ضمانات .. للحياة الثقافية

مهما قيل من أن البنية الفوقية (الفكرية) للمجتمع هي انعكاس وتعبير عن البنية التحتية (الاقتصادية) ومصالحها، فانه يظل صحيحاً أيضاً أن مستقبل المجتمع محدد إلى مدى كبير بالمؤشرات التي ترسمها له البنية الفوقية من خلال وعيها لمصالحه البعيدة ولمقتضيات روح العصر وللدور الذي تمليه على المجتمع استعداداته وقدراته وتطلعاته .

من هذه الزاوية بالضبط ــ زاوية التأثير على المستقبل وتوجيهه ــ تتحدد أهمية القطاع الثقافي في وظيفته وفي طبيعة الدور الذي يلعبه . وهو دور يتضاعف خطره في البلدان النامية لأن التخلف في صميمه ليس الا تخلفاً ثقافياً في مختلف القطاعات الفكرية ، السياسية والعسكرية والصناعية والفنية والأدبية والادارية والتنظيمية والعلمية.

وعلى مدى التآلف بين هذه القطاعات الفكرية المتنوعة يعتمد تقدم المجتمع وتطوره وتحديثه ، لأن هذه الفئات حينما تتعاون بحسب خطة واحدة لانجاز هدف معين فانما تعمل على احداث تحريك اجتماعي وتوجيهه وجهة خاصة متفقاً عليها . غير أن هذه الحالة المثالية وضع افتراضي لا يحدث في حياة الأمم الا في لحظات لا يصح أن توصف حتى بالندرة . . لحظات من الوحي والالهام تتجلى فيها لكل الناس ضرورة واحدة وطريقة واحدة لتلبيتها . وفيما خلا هذه اللحظات النادرات فان الاجماع لا يسعف القائمين على السلطة بمثل هذه الحلقة الذهبية الممهدة المتماسكة الصافية. فالخلافات والحزازات لابد أن تدب في الصدور والعقول ، بدءاً من عدم الارتياح الشخصي القائم على الانطباع الذاتي والذي لا تؤيده الأسانيد ، وانتهاء بتناقض صريح لا في ترتيب الأولويات فقط ، وانما في صميم تعريفها وتحديدها .

ومن الشائع المعروف أن الخلاف العلني المجلجل الذي يقع تحت سمع الناس وبصرهم ــ دون أن تترتب عليه آثار مباشرة فورية ــ هو الخلاف بين السياسيين

والمثقفين ، لأن الأخيرين ، بما فطروا عليه من ادراك مجرد وتصور ذهني صرف ، يقع في خلدهم دائماً أن تغيير الواقع المتخلف أسهل وأعجل مما يقول به الأولون وما يقومون به أيضاً ، وبديهي أن ما من سياسي ــ بل ما من أحد ــ يرضى بأن يرمى بالتقصير ، وأنه لا بد له ــ في هذه الحالة ــ من أن يتحرك ليدافع عن نفسه .

غير أن تحرك السياسي لا حدود له . فهو تحرك السلطة الحاكمة بكل ما تملك من قوة مطلقة لا تقبل التجزؤ ولا المساومة . أما المثقف فهو فرد أعزل لا يملك إلاالقدرة على الاقناع ، وفي جو شديد التسامح . إن طبيعة التناقض بين القدرتين تحتم ألا يكون الصدام مادياً اولا ، وتحتم ثانياً على السياسي ــ بعد تجريده من قدرته المادية ــ أن يدخل في اللعبة الثقافية ، ولو بصورة غير مباشرة : أي ليس من الضروري ان يشترك بنفسه ، بل يترك لمثقفين آخرين ان يصفوا الآراء المناقضة . إذ لا بد لكل موقف سياسي من مثقفين يتبنونه ويجيدون عرضه والبرهان عليه .

هذا الموقف ، يتخذه السياسي ، يتضمن افتراضات كامنة لكنها ايجابية ومتعددة الجوانب . فهذا الموقف يفترض اولاً ايمان السياسي بقضيته ، وبأن المثقفين ، اذا تركوا لقناعاتهم ، فسوف يتبنون تلك القضية ويناضحون عنها . ويفترض ثانياً ايماناًبصيرورة الفكر في اتجاه تلك القضية ، أي أن النقاش المفتوح والحر سوف يؤدي في النهاية الى اظهار العوامل التي تحرك المجتمع لصالح القضية ، ويفترض ثالثاً ايماناً بنزاهة الفئة المثقفة وصحة الجو الثقافي بحيث انه اذا ترك لطبيعته فسوف يصفي نفسه بنفسه لصالح القضية السياسية . وأبرز دليل على ذلك أن الدكتور لويس عوض من أربعين عاماً الى الآن لم يكن ليرى في مصر غير أوزيريس وأمنحوتب ، لكنه كان يجد باستمرار مثقفين آخرين يأخذون بيده ليضعوهاعلى آثار عمرو بن العاص والأخشيد والفاطميين والايوبيين وعبدالناصر .. الخ . ولم تكن القضية العربية تخسر شيئاً من مواقف الدكتور بل كانت تستفيد أقصى الفائدة من ردود الفعل التي يثيرها ضد أفكاره ، مثلما كانت تتمتع بغزارة علمه وعمق استبصاراته .

إن تحرك السلطة ضد المثقفين يستند الى نزعة عالمية معروفة تسمى « النزعة المناهضة للثقافة » ، وهي نزعة تكره النقاش وترى أن في وسع السلطة السياسية ، ومن حقها ، أن تخاطب الشعب مباشرة ، دون وساطة المثقفين . ان هذه النزعة لم تفلح أبداً في ان تتفهم أن تغيير الأفكار أصعب بكثير من تغيير الواقع ، وأن الأفكار التي تعتبرها

ضارة لا يمكن تصفيتها الا عن طريق تيار ثقافي آخر تقيمه فئة اخرى من المثقفين . ولعل القطر العربي السوري ، في هذه المرحلة ، فضلا رياديا في تحصين الجو من النزعة المناهضة للثقافة ، عن طريق سلسلة من الضمانات بدأها الرئيس حافظ الأسد بخطابه في افتتاح المؤتمر الثامن للادباء العرب ، حين قال، « لا رقابة على الفكر إلا رقابة الضمير» وأتت الضمانة الثانية من الدستور الذي وضعه مجلس الشعب ، وورد في المادة ٣٨ منه :

« لكل مواطن الحق في أن يعرب عن رأيه بحرية وعلنية بالقول والكتابة وكافة وسائل التعبير الاخرى ، وان يسهم في الرقابة والنقد البناء بما يضمن سلامة البناء الوطني والقومي ويدعم النظام الاشتراكي ، وتكفل الدولة حرية الصحافة والطباعة والنشر وفقاً للقانون » .

والضمانة الثالثة وردت من السلطة التنفيذية في البيان الوزاري ، حيث يقول السيد رئيس مجلس الوزراء الاستاذ محمود الأيوبي ان من منهج الوزارة :

« اعطاء مزيد من الحرية لوسائل الاعلام ، وخاصة فيما يتعلق بالرقابة على مؤسسات الدولة ، لتكون وسيلة حوار وتعاون بين الجماهير الشعبية وأجهزة الدولة » .

ولعل تحديد دور وسائل الاعلام بأنه « وسيلة حوار وتعاون بين الجماهير الشعبية وأجهزة الدولة » .. لعل هذا التحديد يتضمن خير فهم لطبيعة دور الفئة المثقفة في المجتمع . ومنه تنبثق الضمانة للاجراءات الديمقراطية في الحياة الثقافية بأجمعها .

رئيس التحرير

★ ★ ★

حوار بين الدول أم حوار بين الثقافات؟

أديب اللجمي

حين أنشئت منظمة اليونسكو منذ ربع قرن ونيف ، كان الهدف من انشائها أن تدعم جهود الأمم المتحدة الرامية الى حفظ السلام العالمي وصيانة حقوق الانسان ومنع تكرار الحروب .

بيد أن مجال نشاط اليونسكو كان مختلفاً عن مجال نشاط منظمة الأمم

المتحدة . فبينما تتحرك هذه في نطاق سياسي ، فإن تلك تتحرك في نطاق فكري. انها انطلقت من فكرة ضمنية ، بل من مسلمة مفادها أن التقريب بين العقول والأفكار وسيلة مجدية ناجعة لإشاعة جو من التفاهم بين الشعوب والدول. وبتعبير آخر فإن هيئة الأمم المتحدة تنطلق من مبدأ أولوية العامل السياسي – باعتباره في تقديرها هو المحرك الأول للنشاط الانساني – لتستعمله وتفيد منه في حل ما يواجه الانسانية من معضلات ؛ بينما تنطلق اليونسكو من مبدأ أولوية الفكر – وما يتمخض عنه من خلق ثقافي وعلمي ومن تكوين لسلوك الانساني (التربية) – لتجعل لقاء البشر فيما بينهم لقاء فكرياً ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا فهم كل منهم أفكار الآخرين . فإذا كان على منظمة الأمم المتحدة أن تنهج سبل التوفيق وأنصاف الحلول والتنازلات المتبادلة ، فان على اليونسكو ، بالعكس ، أن تنهج سبيل التمسك الجذري والكلي بمجموع القيم التي يستهدفها الفكر ، وتتجلى في مبدعاته اللامتناهية ، من هنا كان على اليونسكو أن تحقق مهمتين بآن واحد :

– مهمة صيانة التراث الفكري لدى كل أمة .

– ومهمة إقامة حوار فكري حقيقي بين الأمم يستهدف احترام تراث كل منها ، وفهمه ، والمساعدة على تفتحه .

ترى هل نجحت اليونسكو في تحقيق هاتين المهمتين ؟ ان انقضاء سبع وعشرين سنة على قيام هذه المنظمة الدولية يتيح لكل باحث أن يستخلص النتائج التي آل اليها نشاطها حتى الآن . فمعلوم مثلاً أن إمكانات تحرك هذه المنظمة مرهونة بنسبة ما يخصص لها من أموال . ومعلوم بداهة أن تشخيص الأهداف التي ترمي اليها المنظمة – أي تحديد البرامج التي تعتزم تنفيذها خلال كل سنتين – يساعدها على بلوغ ما تنشد ، مثلما يتيح الفرصة للقادرين على الاسهام في نشاطها أن يتحركوا وفق هذه البرامج .

ولكن ثمة مشكلة كبرى تواجه هذا النشاط وتتجلى في وجهين : ان تحديد ميزانية المنظمة وبالتالي إقرار برامج نشاطها مشروطان بموافقة الدول الأعضاء . وبتعبير آخر ان صيانة الفكر في تجلياته لدى مختلف الأمم والحضارات مرتبطة بمدى حرص الدول المنتمية الى المنظمة على احترام الفكر ذاته. وهنا يبدأ إلحاق الفكر بالسياسة ، أي ان الموقف الذي تتخذه كل دولة من أهداف منظمة اليونسكو سيكون مرتبطاً بل تابعاً لمعاييرها السياسية . مثالان عن هذه الظاهرة يكفيان في تقديري للتدليل على ذلك . المثال الأول هو ما تمارسه اسرائيل من عمليات السطو والعبث بالتراث الثقافي والحضاري العربي في المناطق التي تحتلها في اعقاب عدوانها على البلاد العربية في حزيران ١٩٦٧، ذلك أن الخبراء الاسرائيليين يقومون بحفريات أثرية في الاراضي السورية المحتلة وفي مدينة القدس وفي بعض مناطق الضفة الغربية وفي قلب سيناء . وقد سطوا على كنوز أثرية عربية ذات قيمة حضارية كبيرة، بل ذات قيمة حضارية للانسانية كلها . اعترفت اليونسكو بذلك ، واتخذت أكثر من قرار يقضي بارسال هيئة تحقيق دولية مهمتها تحديد التراث المنهوب وإعادته إلى اصحابه الشرعيين ووجوب توقف اسرائيل كلياً عن متابعة اعمال السطو والنهب ، ولكن اسرائيل رفضت الامتثال للقرارات ، بل رفضت السماح للهيئة أن تدخل إلى المناطق التي تعرضت للنهب الثقافي ، وشجعها في موقفها عدد من الدول الكبرى ، في طليعتها الولايات المتحدة الأميركية وألمانيا الغربية وانكلترا ، التي رفضت الموافقة على ادانة تصرفات اسرائيل . هكذا نرى أن القيم الثقافية ـ القيم التي من أجلها قامت اليونسكو ـ لم تُصن، بل أخضعت للمعايير السياسية وألحقت بها .

والمثال الثاني هو ما قامت وتقوم به الولايات المتحدة الأمريكية من قصف لبلاد الهند الصينية ـ فيتنام وكمبوديا ولاوس ـ ومن تدمير لمنشآتها الأثرية

الرائعة وتراثها الحضاري الذي تعتز به الانسانية. ان هذا التدمير هو تدمير للفكر ذاته ، هو إبادة لما أبدعه الانسان من روائع الفن على مدى الزمان . ان الفكر هنا تدمره السياسة .

ذلك هو الوجه الأول من المشكلة التي تواجه اليونسكو ؛ أما وجهها الثاني فيتجلى في مدى قدرة اليونسكو على صيانة الفكر ونتاجه ومدى حرصها على ذلك . هذا الوجه بالذات هو الذي يحدّد مسؤولية اليونسكو ، ومسؤولية القائمين على أمرها ، بل ومسؤولية كل من يعمل في إطارها . ومن استعراض مختلف البرامج التي وضعتها المنظمة طوال هذه السنوات من عمرها يبدو الاهتمام بالجزئيات والتفاصيل طاغياً على الاهتمام بالكل والشمول . ان على اليونسكو أن تساعد بلداً ما في مجال محو الأمية ، وآخر في مجال الكشف عن بعض الآثار ، وبلداً ثالثاً في مجال استعمال الوسائل السمعية البصرية ، وبلداً رابعاً في تشغيل مركز لتدريب الفنيين . . . وكل هذه التحركات والانجازات تتطلب المئات من الخبراء، والألوف من حلقات البحث ومشاريع العمل وسواها ، ولكن التساؤل يظل مطروحاً : أيكون هذا النشاط تعبيراً عن فكرة أولى ، أم هو بديل عنها ؟ ان بين الحالين فارقاً جوهرياً . إذ لو كانت هذه البرامج وسائل لبلوغ الهدف الأساسي ، أعني تحقيق حرمة الفكر وتحقيق الحوار الجدّي بين الحضارات ، لكانت خيراً ولأدّت حكماً الى مزيد من تقارب الثقافات والى مزيد من تفهم كل منها للأخرى . أما إذا كانت هذه البرامج مؤلفة من أجزاء لا رابطة بينها ، فإن كل جزء منها يغدو كياناً بذاته ، ويصبح غاية لا وسيلة . وإنني أتجه الى هذا التفسير أكثر مما أتجه الى التفسير الأول، ذلك أن حصيلة اليونسكو طوال سبع وعشرين سنة لم تكن أبداً في صالح الحوار بين الثقافات بل في صالح الحوار ـ السلبي تارة ، الايجابي طوراً ، النسبي في جميع الأحوال ـ بين الحكومات والدول .

ان هذه المشكلة هي في تقديري أكبر موضوع مطروح على المنظمة الدولية من ناحية ، وعلى جماعات رجال الفكر والثقافة في العالم كله ، من ناحية أخرى . ولا يستطيع أحد أن يفكر أن ثمة انجازات تمت في إطار لائق وأدت الى نتائج لائقة، ولكن ما من أحد يستطيع ان يتخلى عن التساؤل حول التكافؤ بين الجهد المبذول والنتائج الحاصلة. وما من أحد يستطيع أن يتخلى عن التساؤل ما اذا كان مجموع هذا الجهد الذي قامت به اليونسكو سيؤدي الى الهدف الأخير المنشود، ذلك انه اذا صح أن الكل يتألف من مجموع أجزاء فليس صحيحاً أن مجرد جمع أجزاء الى بعضها يمكن أن يشكل كلاً .

يمكننا أن نأخذ بعض البيانات التي قدمها المدير العام للمنظمة ، مثالاً على ذلك:

« كان اهتمامي وما يزال مركزاً على زج نشاط اليونسكو ، بجميع مجالات الإمكان ، في مشكلات الدول الأعضاء وفي جهودها . انني أرى في ذلك شرطاً أساسياً لنجاح اليونسكو ، بل مبرراً لوجودها ومعناها ، وفي نطاق عملية الزج هذه تتدخل عوامل سيكولوجية ، وبالتالي عوامل شخصية ، بنسبة كبيرة . ان ذلك يمنح سكرتارية المنظمة - الموظفين والخبراء - أهمية وقيمة ، بيد أن تحقيق هذه المهمة مرهون أولاً بتصور المشروع من وجهات نظر ثلاث :

- من حيث مدى تطبيقه .
- من حيث أهدافه .
- من حيث وسائل تنفيذه .

« وحين أشير إلى ضرورة دمج عمل اليونسكو في الواقع الذي تعيشه الدول الأعضاء، فإنني أعني أولاً وقبل كل شيء تنسيق المشاريع الخاصة مع ذلك الواقع. بل انني اذهب الى ما هو أبعد من ذلك . إنني أريد ان تفيد الحكومات اثناء وضعها لسياستها من خدمات المنظمة في مجال اختصاصاتها . وسواء كان الأمر أمر

تشخيص لحالة معينة وتحديد للمشكلات المطروحة ، وتحليل للخيارات المتوفرة من أجل حل هذه المشكلات ، ووضع برنامج عمل ، فإنني أعتقد أن اللجوء إلى معونة فنية ذات طابع دولي تقدمها اليونسكو، في كل مرحلة من مراحل مسيرة التفكير بتلك السياسة ووضعها ، هي معونة مفيدة بل طبيعية .

« ذلــك أن بين الأوضاع والظروف التي نلحظها في بلدان مختلفة ، من التشابه والتضامن ما يجعل حــل المشكلات ، في كلا المجالين النظري والعملي ، مرهوناً بمقارنة المعارف والأفكار بعضها ، وبالبحث المشترك عن الاختصاصين ، وبتعاون الفنيين على صعيد دولي »[1] .

إن هذا الكلام إشـــارة إلى مدى استغراق المنظمة بالتفاصيل دون أن يكون هناك فكرة موحّدة لها .

ومن خطاب السيد رينه ماهو بمناسبة مرور /٢٥/ سنة على تأسيس اليونسكو (٤ نوفمبر ١٩٧١) :

« ثمة مهمة كبرى ، بل وظيفة كبرى لليونسكو ، أشار إليها كثيرون منكم في تصريحاتهم ، وأود أن أوضحها . هذه الوظيفة هي اولية التفكير الشامل بالمشكلات الكبرى للحضارة الحــديثة . ففوق الاهتمامات بالوضـع السياسي والاقتصادي ، وهي اهتمامات تشترك في جميع العهود ، يمكن بسهولة أن نلحظ قلقاً عاماً ، غامضاً ولكنه متزايد العمق ، حول مصير الانسانية ، ومثل هذا القلق هو طابع الأزمات الكبرى التي تنتاب الحضارة . ان اليونسكو لا تستطيع أن تقف موقف اللامبالاة منها . بل ينبغي عليها أن تسهم في التفكير المركز على هذه

---

(١) من المقدمة التي وضعها المدير العام لليونسكو لبرنامج المنظمة المتوسط الأجل (١٩٧٣ – ١٩٧٨) والذي قدمه الى الدورة السابعة عشرة للمؤتمر العام للمنظمة (تشرين الأول – تشرين الثاني ١٩٧٢) .

الموضوعات الخطيرة التي تسيطر على عصرنا . حقاً ان اليونسكو لا تستطيع أن تخول لنفسها أي تفرد بمعالجة هذا الأمر ، ولا يجوز أن تمنح نفسها صفة الموجه الفكري ، بيد أني أؤيد فكرة أن تقوم اليونسكو خلال السنوات المقبلة بأداء دور المركز الموجه للتفكير بالمشكلات الكبرى لوضع الانسان الراهن ، وهي مشكلات ندرك أنه لا معنى لها إلا إذا تم طرحها بمستوى أبعاد الانسانيـــة ، إذ لا يمكن أن يكون لها حل إلا في هذا المستوى .

وللنهوض بهذه المهمة ، ينبغي أن نعمل بأدنى حدّ من الشكليات وبأعلى حدّ من المرونة ، وكذلك بأعلى حدّ من الحرية ، لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً في هذا المجال من دون حرية. ينبغي أن تكون لنا الحرية في الجرأة، والحرية في المجابهة ، بل والحرية في أن نضرب في الآفاق ، وإلا لما تمكنا من الكشف عن آفاق جديدة . ثمة خطر كامن على حياة الفكر الأصيل ».

هنا بالضبط يشير السيد ماهو ، المدير العام للمنظمة ، باصبعه الى جوهر المشكلة . انها ليست في تنظيم تقنيات من أجل حلّ بعض المشكلات الجزئية ، بل هي مواجهة صميم الموضوع ، اي موضوع الفكر ومستقبله . وبالرغم من أن ماهو قد أدرك الصميم فقد راحت المنظمة تغوص في التفاصيل وتبتعد كثيراً أو قليلاً عن البؤرة التي منها انطلق الاهتمام الأولي .

وكمثال على ذلك يمكن أن نقدّم بعض المشروعات التي عالجتها وفود الدول الأعضاء في مؤتمر اليونسكو الأخير .

ه ان دراسة الأشكال الانسانية للتقدم العلمي وكذلك الموضوع الذي يطرحه المؤمنون إزاء مشكلات السلام، والدراسات حول أسباب العنف ووسائل حل المنازعات ، ثم موقف الشباب من السلام ، كل هذه الموضوعات تحتل اهتمام اليونسكو خلال الفترة القصيرة المقبلة .

مشكلات السلام :

– العمل المشترك في سبيل ترسيخ حقوق الانسان .

– النضال ضد التمييز العنصري والتفرقة .

– برامج مساعدة اللاجئين .

مقرارات اليونسكو في مجال دراسة الثقافات وتنميتها

القرار رقم ٣٠٩٨

يفوض المدير العام لمنظمة اليونسكو :

بالاستمرار في تشجيع الدراسات التي يمكن أن تساعد على زيادة معرفة مختلف الثقافات وزيادة تقديرها المتبادل كما تساهم في السلام والتفاهم وذلك في نطاق التعاون مع مؤسسات البحث المختصة بمساعدة البلاد النامية على حماية هويتها الثقافية على أن تتلاءم مع الظروف الراهنة .

وفي سبيل ذلك يقوم المدير العام بتنفيذ المشاريع الخاصة :

آ بثقافات آسيا وخاصة ثقافات آسيا الوسطى وماليزيا والثقافات الآسيوية المعاصرة .

ب - بالثقافة العربية المعاصرة .

ج بالدراسات الافريقية وخاصة بنشر كتاب « تاريخ أفريقيا العام » وبتنفيذ خطة خلال عشر سنوات لجمع التقاليد الشفهية وتقدم اللغات الافريقية باعتبارها وسائل ثقافية .

د – بالثقافات المعاصرة في امريكا اللاتينية .

ه - بالثقافات الأوربية وخاصة الثقافات البلقانية والسلافية وثقافات أوربا الوسطى .

و ـ بتجديد الثقافة في المجتمعات التقنية والتي تجاوزت المرحلة الصناعية وتركيز الاهتمام بالدرجة الأولى على الولايات المتحدة الأمريكية .

ز ـ بنشر مجلة « الثقافات : مجلة دولية » .

يفوض المدير العام :

آ ـ بمساعدة الدول الأعضاء على وضع وتطبيق سياسات ثقافية وذلك :

١ ـ بأن ينظم مؤتمرات من أجل ذلك بين الحكومات مهمتها اتاحة المجال للتفكير المشترك وتبادل الخبرات حول قضايا تنمية الثقافة .

٢ ـ بأن يضع تحت تصرف هذه الحكومات نتائج الدراسات والبحوث الخاصة ببعض مظاهر الاطار الاجتماعي الثقافي التي تحدد صياغة السياسات الثقافية بما في ذلك التساؤل واعادة النظر في الثقافة القائمة .

٣ ـ بتشجيع واعداد الاختصاصيين في ميدان تنمية الثقافة وكذلك اعداد الموجهين وكبار المشرفين على الأمور الثقافية .

٤ ـ بأن يواصل جهوده في سبيل احداث صندوق دولي للثقافة .

ب ـ بتشجيع الابداع الفني والاعداد الفني وذلك :

١ ـ بأن يجري استقصاءاً حول وضع الفنان ودوره ووظيفته في المجتمع المعاصر وأن يقوم ببحوث حول الأشكال الجديدة للابداع في ميادين الموسيقى والفنون المسرحية والفنون التشكيلية وان ينظم ندوات ومراكز فنية متنوعة الوجوه وان يتحرى عن الامكانيات الثقافية المتوفرة سواء تلك التي تتم عن طريق التقاليد اللفظية او بالوسائل التقنية الحديثة للاتصال والتبادل .

٢ ـ بأن يقدم مساعدة في مجال اعداد الفنانين المحترفين كالمصورين والنحاتين والعازفين والمؤلفين الموسيقيين والسينمائيين .

٣ ـ بأن يسهم في حل المشكلات الثقافية الناجمة عن التوسع العمراني وخاصة في مجال اعداد المهندسين المعماريين .

ج ـ بتدعيم ونشر نشاط مركز التوثيق والاعلام والبحث من اجل التنمية الثقافية بحيث يقدم هذا المركز للدول الاعضاء معطيات ووسائل تحليل من اجل وضع السياسات الثقافية .

د ـ تيسير سبل الثقافة والمشاركة فيها وذلك بجعل الأعمال الأدبية والفنية الانسانية في متناول اكبر عدد ممكن من الناس بواسطة كتب الجيب المتخصصة في الفن وبواسطة الترجمات بأسعار رخيصة وكذلك الاسطوانات والمعارض المتنقلة .

هـ ـ بالتعاون مع المنظمات الدولية المعنية وذلك فيما يخص اجزاء البرنامج الخاصة بالاعداد الفني واعداد الفنيين المحترفين وبنشر الثقافة على صعيد عالمي .»

★ ★ ★

لم يقم بعد حوار حقيقي بين الثقافات ، ولا بين الحضارات . ذلك أن الحوار يشترط أول ما يشترط تكافؤاً بين المتحاورين . انه يتضمن اعترافاً بوجود الآخر ، مثلما يتضمن اعترافاً بأهلية الآخر للحوار . وما لم يتوفر مثل هذا الشرط المسبق فلن يكون ثمة حوار ؛ ان ما يحدث في عالم اليوم ، على الصعيد الثقافي ، يتلخص في عدة ظاهرات يحسن ابرازها ولو في فقرات قصيرة :

أولى هذه الظاهرات ان الثقافة ما تزال تابعاً للسياسة لا نداً لها ، ولا أولاً عليها ، وان ما يجري في عالم اليوم من اخضاع الثقافة لمختلف أشكال الاعتبارات السياسية ليس خافياً . فما زال الحكم في العالم كله ، شرقيه وغربيه ، يرى أن للمعايير السياسية المقام الأول في تقييم الثقافة . والثقافة التي تلبي أغراض الساسة هي التي تحظى بالقسط الأوفى من الرعاية والدعاية والتشجيع . أما الثقافة التي تحاول ان تكون مستقلة ، اي تلك التي تريد أن تجعل المعيار الثقافي هو نقطة الارتكاز ، فأقل ما يقال بشأنها إنها تترك لقدرها ، ان نجحت في تثبيت وجودها

كان ذلك خيراً وإن فشلت فيه لم يكن في ذلك أي ضير . ألوف الشواهد على ذلك تصرخ في وجه العالم كل يوم ، بالامس مثلما هي اليوم ، وفي القرن الماضي مثلما كانت قبل عشرة قرون ومثلما هي في النصف الثاني من القرن العشرين . كم من أعمال أدبية تافهة متهافتة تلاقي ، بفضل الدعاية المركزة ، رواجاً لا تستحقه ، في مقابل أعمال أصيلة فذة يكاد لا يسمع بها الا النزر القليل من الناس ، وفي مقابل أعمال عملاقة أخرى تظل مطموسة حتى بعد موت أصحابها بعشرات السنين .

وثانية هذه الظاهرات أن الثقافة التي تفرض على العالم هي ثقافة الأقوياء ؛ فثمة استعمار ثقافي يسير جنباً الى جنب مع الاستعمار السياسي والاقتصادي . بل ان الثقافة في أحيان كثيرة تصبح أداة لخدمة الاستعمار وترسيخ جذوره ، بصرف النظر عن كون هذه الثقافة في ذاتها ثقافة هزيلة أو جيدة . وينتج عن ذلك أن ثقافة الضعفاء ، وثقافة المستعمرين تنحسران وتضمران في وجه ثقافة الأقوياء . ولأن القوي يملي ثقافته من عل ، فهو لا يملي منها إلا ما يعتقد انه يخدم أغراضه ؛ فيكون موقف المتلقي لهذه الثقافة موقفاً مزيجاً من الكراهية والتبني : كراهية الثقافة بوصفها دخيلاً مفروضاً من عل ؛ وتبني هذه الثقافة بوصفها ثقافة الأقوياء . وقانون التقليد يشير أبداً الى أن الأدنى هو الذي يقلد الأعلى . ولكنّ الأدنى ليس هو كذلك إلا بقدر ما يعتبر نفسه أدنى . حقاً ان الانسان يستحق المصير الذي ينتظره كما يقول باسكال . وبمعنى ما فإن شعور النقص ، وفقدان الثقة بالذات ، اللذين يتجليان على الصعيد السياسي لدى كثير من الشعوب الضعيفة يؤديان بالتالي الى فقدان ثقة هذه الشعوب بثقافتها وحضارتها ، فتهمل إغناءهما وتجديدهما ، وتقبل اقبال التابع على ثقافات الآخرين كأنما تحس إزاءها بأنها ثقافة الأسياد . ان تسعة وتسعين بالمائة من رجال الثقافة والفكر في بلاد العالم الثالث ، بالرغم من تبجحهم الظاهري بثقافة بلادهم وتراثهم ، هم في أعماق أعماقهم

مأخوذون بل مسحورون بثقافة الغرب ، ثقافة الأقوياء . قد لا يجهرون كلهم بهذا الواقع ، ولكن أكثرهم يتصرف ازاء ثقافات الشعوب المتقدمة تصرف التلميذ ازاء ما يقدمه له استاذه من حقائق يعتقد أنها خالدة . ومثل هذا الموقف يختلف كلياً عن موقف التكافؤ الذي يتجلى في التفاعل مع الثقافات الأخرى من موقع الايمان بالثقافة الذاتية ـ القومية ـ وقدرتها على ان تعطي بقدر ما تأخذ.

والظاهرة الثالثة ، وهي الى حد ما نتيجة لظاهرتين السابقتين ، هي أن الأقوياء والمتقدمين ، إضافة إلى شعورهم بتفوق ثقافتهم ، يقفون من الثقافات الأخرى (ومن ممثليها) موقف المستهتر بها . فهم إذا حاولوا دراستها أو التعرف اليها فلكي ينالوا منها ، ولكي يقدموها الى العالم في صورة شوهاء . إن عملية مسخ ثقافات الآخرين ، لدى ممثلي ثقافة الأقوياء ، هي العملة الرائجة ، ولم ينج منها إلا القليل القليل من أولئك الذين تخصصوا في التعريف بالثقافات الأخرى . وحتى أولئك الذين يمارسون المهمة بروح النزاهة لا يستطيعون ان يتحرروا كلياً من معتقداتهم الراسخة في اعماق نفوسهم وهي ان ثقافتهم اعلى من ثقافة الآخرين . لذا فان ما يقدمونه من تعريف بهذه الثقافات هو اقل من القليل . كم كتاباً من التراث العربي الفكري القديم والمعاصر تُرجمت الى لغات الغرب ؟ .

★ ★ ★

هذه الوقائع لم تتصد الى مواجهتها منظمة اليونسكو فيما اعلم . ربما فكّر بها بعض المسؤولين عن امور المنظمة ، بيد انها لم تتجلّ في برنامج عمل واضح الخطوط والاهداف . وإذا صحّ ان المنظمة لا تستطيع ان تستقل في سياستها عن حصيلة ما ترسمه لها الدول الاعضاء من سياسة في ميادين التربية والثقافة والعلوم ، فليس يخطر في بالنا ان نقيم من المنظمة عدواً للدول الاعضاء . ولكننا نعود الآن الى نقطة الانطلاق . ان مهمة اليونسكو الاولى هي ان تكون جسراً بين

الثقافات، وان تكون بؤرة تلتقي فيها مختلف الثقافات لتتفاعل فيما بينها وتتحاور. واذ ان الدول لم تنهض بهذه المهمة بل عملت كل منها في الاتجاه الذي يحدده لها موقع القوة الذي يخصها ، فقد غدت القضية الكبرى ان تمارس اليونسكو بنفسها جميع الجهود التي تؤدي الى قيام هذا الحوار . ان ثمة تفاوتاً كبيراً بين الاهتمام الذي يولى الى ثقافات الغرب والاهتمام الذي يولى الى ثقافات الامم الاخرى . والمشروع الذي ابدعته اليونسكو تحت عنوان « مشروع الشرق-الغرب » والذي رمت من ورائه بخاصة الى تعريف الغرب بحضارات الشرق لم يعط من النتائج ما كان مرجواً . ولم يكن الحيّز الضيق الذي احتلته هذه النتائج رهنـاً بالقدر الضئيل من الاموال التي خصصت له . ان تفاعل الثقـافات في العصر الحاضر ضرورة قومية وانسانية بآن واحد . فما من ثقافة انسانية يمكن ان تقوم اذا لم تكن هناك ثقافات قومية تعترف بعضها ببعض ، وتتلاقى لا لكي تذيب احداها الاخرى بل لكي تنفتح كل منها على ما تنفرد به الاخرى فتحاول معرفتـه ، وتتمثله . تلك هي ديالكتيك الاخذ والعطاء . وحين تصل اليونسكو الى إقامة الحوار بين الثقافات اضافة الى ما تقيمه من حوار بين الحكومات ، او بصرف النظر عن الحوار القائم بين الحكومات ، تكون اليونسكو قد سارت فعلاً في الطريق التي تبرر لها وجودها .

صفحة من التاريخ

طبيب شاعر وفيلسوف أديب

الدكتور عزة مريدن

ليس التغني بمحامد الآباء والأجداد ، والاغراق في ترديد المآثر والأمجاد ، بمغن عن النظر والتأمل في الكثير الكثير مما يجب ان نكون عليه في يومنا الحاضر ، فليست ظروف الحياة القديمة ، مشابهة لظروفها الحاضرة ؛ بل ان الواجب ليقضي علينا ان ننظر فيما نحن عليه اليوم ، وأن ننصرف لمعالجة الكثير من مشكلات جيلنا الحاضر ، اللهم إلا اذا كان الغرض من تقليب صفحات التاريخ ، إثارة كوامن الهمم ، وبعث روح الجد والعمل ، مما قد يكون حافزاً على اقتفاء آثار الأقدمين ، والنسج على منوالهم ، في

الجد والدأب والعمل المتواصل ، كما أنه يضم في بعض معانيه ، الدفع والحفز والاقتداء، ولقد قيل ، إن تقليب صفحات التراث القديم ، يضع بين أيدي الاجيال الحاضرة ، ثروة الماضي ، وعظة الحاضر ، وهدى المستقبل ، وليس يجوز مطلقاً ان ينظر بعض العرب الى تاريخ العرب ، بمنظار أسود ، كما فعل أمين الريحاني في كتابه ، النكبات ، فهذا ما يجب ان يُرفض بشدة وإباء ، فمن ذا الذي لا يفخر بعروبته وأجداده ، وهم الذين بلغوا ما بعد الهند شرقاً ، وقرعوا ابواب (بواتيه) في فرنسا ، ونشروا في كل مكان بلغوه ، حكماً عادلاً وتسامحاً كريماً وخيراً وعلماً ومدنية رائعة ، لا تزال آثارها شاهدة عليها حتى اليوم . وانه لمن القبيح جداً ، أن يعمد المتحاملون الجاحدون ، الى ذكر النقائص والعيوب ، وإغفال الفضائل والحسنات ، ولكل عصر حسناته وسيئاته، فضائله وهناته ، وهذه سنة درج عليها الكون منذ أقدم العصور حتى اليوم ، وكيف يسوغ لنا ان نغفل العصور الذهبية ، التي لم تكن فيها مدنية الا مدنية العرب ، وكيف ننسى عصر التأليف والترجمة والاختراع ، في مختلف العلوم والفنون، وهل يجوز أن ننسى باع العرب الطويل ، في علوم الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء وغير ذلك من العلوم التي سبقوا اليها ، ثم انتقلت عنهم الى الآخرين . واذا كانت ظروف كثيرة ، قد حكمت علينا أن نعدّ اليوم بين الأمم النامية، فان التاريخ قد علمنا ان كثيراً من الأمم المتمدنة القديمة ، قد بادت أو كادت ، حينما بلغت حد الكمال ولقد قيل ،

اذا تم شيءٌ بــدا نقصــه ... ترقب زوالاً اذا قيل تمّ

فهذه دولة الأكاسرة التي كانت سيدة الشرق ، وهذه امبراطورية روما التي كانت سيدة العالم ، أين هما اليوم ، لقد دالت دولة كسرى ، وبادت امبراطورية الرومان ،حتى لم نعد نسمع عنها الا ما يكتبه التاريخ ، وكذلك دولة الأمويين في الشام أو في الاندلس، ودولة العباسيين في بغداد التي كانت احدى اثنتين في أيامها ، وكان عصر الرشيد نصراً مؤزراً للعرب ، وكان عصر المأمون فتحاً خالداً في العلم والترجمة والفتوحات ، حيث نقلت المكتبة العربية ، كنوز العلم الدفينة ، وصارت معاهد بغداد ، قبلة العلماء وكعبة القصاد ومحط أنظار العالم في الارض . ولقد شع النور الوهاج من دولة الأمويين في الاندلس ، فعبر البلاد الاوروبية ، وايقظها من سباتها ، ونفخ فيها روحاً قوياً من العلم والجد والعمل ، وليرحم الله أبا البقاء الرندي الاندلسي ، الذي قال في مطلع مرثيته ،

لكل شيء اذا ما تم نقصان ... فلا يُغر بطيب العيش انسان

ومع كل ذلك . فإن من الطبيعي، بل من الواجب أن يكون بين أهدافنا ، نبش الكنوز الرائعة ، لنضعها أمام أنظارنا اليوم ، ولِنُحِسّ بتأخرنا وبالواجب المفروض علينا ، ولنزيل ماران على قلوبنا ونفوسنا من صدأ الأيام المظلمة ، التي حكمَ فيها علينا أن نخرج زمناً من التاريخ، بعد أن دخلناه من أعرض أبوابه . فإن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي ، الكيمياوي المبدع ، هجر الامارة وعظمتها ، وترك حياة الدعة والترف والمفاخرة ، الى حياة العلم والجد والعمل ، حيث أنكب على دراسة الكيمياء ، حتى نبغ فيها ، وتاقت نفسه إلى أن يبتدع فيها شيئاً جديداً ، فدأب على البحث في امكان تحويل المعادن الخسيسة كالرصاص، إلى الذهب والفضة ، حتى خُيِّل إليه أنه قد بلغ المراد أو كاد. وهذا يعقوب بن اسحاق الكندي الذي يعدون له من المؤلفات ، ما يقرب من الثلاثمائة ، وضعها في الفلسفة والمنطق والهندسة والطب والفلك ، وهذا الطبيب العلامة أبو بكر الرازي ، واضع علم الطب التجريبي وأنظمة المستشفيات وطرائق العمل فيها ، وكيف تغفل الفيلسوف العربي والموسيقي الفنان ، أبا نصر الفارابي ، الذي كان عالماً وطبيباً وفيلسوفاً وموسيقياً بارعاً في هذه الأمور كلها ، مع أنه بدأ حياته العلمية متأخراً ، بدأها بقراءة شيء من بضاعة الوراقين ، على ضوء قناديل الطريق حينما كان ناطوراً ، وظل كذلك ديدنه ، حتى عظم شأنه وظهر فضله ، وقربه سيف الدولة من مجلسه، ولما مات صلى عليه مع خمسة عشر رجلاً من خاصته ، وهنالك بعد هؤلاء ، غير قليل من العلماء ، الذين سارت بأحاديثهم الركبان ، ولا تزال آثارهم مرجعاً مضيئاً يهتدى به ، كالبيروني والسُّهرَوردي وجمال الدين الرحَبي وابن البيطار صاحب التذكرة في مفردات الأدوية، وغيرهم كثيرون، ممن كان لهم باع طويل في العلوم الطبيعية والكيمياوية والفلكية والطبية والهندسية والفلسفية وغيرها .

هذه مقدمة لم أجد بدأ منها توطئة لبحثي ، ذلك إن الشخصية التي أجعلها محور هذه المقالة هي الشيخ الرئيس : أبو علي الحسين بن سينا .

ذكر الأديب الكبير المرحوم أحمد أمين ، في تصديره لكتاب الأب قنواتي عن مؤلفات ابن سينا ما يلي :

كان ابن سينا من الرجال القلائل الذين يصح أن ندعوهم بالموسوعيين ، إذ أنه لم يكن موسوعة حافلة ولا مَعلَمة عظيمة فحسب ، وانما كان عالماً مستقلاً ، خلّف للعالم من بعده ، ثروة ضخمة ينوء الباحثون اليوم ، بحملها وتصنيفها ، واذا كانت الفلسفة والطب

قد غلبت في بحوثه وكتبه وأراجيزه ، فانه لم يترك ناحية من النواحي العلمية ، إلا حاول معالجتها ودراستها .

وقد ذكر الدكتور (آندره مان) في مقاله الرائع عن الطب العربي ، وإننا لنرى في ابن سينا الفيلسوف والطبيب والشاعر ومؤلف القانون ، الرجل الأول ، الذي يُمثل بحق ، ذروة الطب العربي . ويقول (بول دوتر) في محاضرته القيمة التي ألقاها في الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب : يعد ابن سينا العالم العظيم والفيلسوف والطبيب ، من عظماء التأليف المنتجين في التاريخ ، ظلت ثقافته موضع اهتمام أساطين العلم والطب والفلسفة خلال خمسة قرون ، ويعد قانونه موسوعة كاملة ، عانق فيها كل العلوم الطبية مع بعضها ، فليس من العجيب أن يظل هذا القانون ، الدستور الطبي العملي ، طوال خمسمائة عام ، في بلاد العرب وفي كثير من أرجاء أوربا ، وقد اعتمدت عليه جامعة (لوفان) في بلجيكا حتى منتصف القرن الثامن عشر .

وبعد فان الكلام عن ابن سينا واسع كثير ، وقد يُظَنّ أن حصر البحث في ناحية معينة ، يعيده سهلاً بسيطاً ، ولكن عالماً من طراز ابن سينا ، يجعل أكثر الباحثين أعجز من أن يستطيع وفاء حق هذا العالم وفضله على العلم والعالم ، لهذا فاني مُورد نُتفاً من نواحيه المتعددة ، منذ ولادته وخلال حياته الحافلة الى حين وافته المنية .

ولد ابن سينا في قرية (أفشنة) إحدى قرى أزبكستان التي كانت تدعى بخارى ، وقضى معظم حياته في ايران ، وقد أتم ثقافته اللغوية والدينية ، ولما يجاوز العاشرة ، وبلغ درجة النبوغ والاختصاص ، ولما يناهز العشرين ، وأصبح في هذه السن حجة في الطب وإماماً في الفلسفة ، وهو كما يصفه أكثر المستشرقين ، عالم موهوب ، ومفكر عالمي ، يملك ذكاء نادراً وذاكرة قوية وعقلاً خصباً وجداً منقطع النظير ، وكل شيء فيه يستحق التقدير ، وأعجب ما فيه ، طموحه العقلي الدائم ، لبحث عن الحقيقة ، وامعان النظر فيما يجب التساؤل عنه ، مما يوجد على سطح هذه الأرض ، فلم يغادر في تأملاته صغيرة ولا كبيرة ، وكان بحق ، جباراً من جبابرة العقل ، تيلألأ كل ذلك في تضاعيف مؤلفاته التي نيفت على المائتين ، بين مطول ورسالة وارجوزة وقصيدة ، وقد تتلمذ له كثير من العرب والفرس والاتراك وتعد مكتبة « استامبول » ، اكبر مصدر لآثاره ومخلفاته . ولقد سأله أحد الناس ذات مرة ، عن الوسيلة التي التزمها لتقدمه ونبوغه ، في هذا الخضم المتلاطم بانواع العلوم والطب والفلسفة ، والموسيقى والإلهيات والفنون ، فأجابه ، ان هذه

الوسيلة هي السؤال عن كل ما أجهله ، ومن أي شخص كان ، وبتساؤلي عن كل شيء ، قد عرفت كل شيء ، ولعله في هذا الجواب ، أراد أن يعطي درساً ثميناً لكل الأجيال من بعده .

ويقول في ترجمة حاله : « لقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، وأنا ابن عشر سنين ، وصارت ابواب العلم تتفتح عليّ ، ثم رغبت في علم الطب ، وصرت اقرأ الكتب المصنّفة فيه ، حتى بدأ الفضلاء يقرأون عليّ هذا العلم ، وتعهّدت المرضى ، فانفتح لي من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف ، وأنا مع ذلك ، أختلف الى الفقه واناظر فيه ، وانا في هذا الوقت من ابناء ست عشرة سنة ، وفي هذه المدة ، ما نمت ليلة بطولها ، ولما بلغت ثماني عشرة سنة ، كنت قد فرغت من قراءة كتب العلوم كلّها ، فأخذت أصنف فيها ولي اذ ذاك أحدى وعشرون سنة ، وفي هذه السن ، صنفت كتاب الحاصل والمحصول ، في قريب من عشرين مجلّدة ، وكلما كنت أتحيّر في مسألة ، ولم أكن أظفر بالحدّ الأوسط في قياس ، ترددت الى الجامع ، وصليت وابتهلت الى مُبدع الكل ، حتى فُتح لي المغلق ، وتيسر المتعسر ، فاحكمت علم المنطق ، والطبيعي والرياضي ثم عدلت الى الالهي ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس عليّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسي ، وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه ، واذا أنا في يوم من الأيام ، حضرت وقت العصر في الورّاقين ، وبيد دلاّل مجلد ينادي عليه ، فعرضه عليّ ، فرددته ردّ متبرم ، فقال لي : اشتر مني هذا فانه رخيص ، أبيعُكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه بحاجة إلى ثمنه . فاشتريته فاذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي ، في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، ورجعت الى بيتي وأسرعت قراءته ، فانفتح عليّ في الوقت ، اغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان محفوظاً على ظهر القلب ، وفرحت بذلك ، وتصدّقت في ثاني يومه بشيء : كثير على الفقراء ، شكراً لله تعالى ، وكا سلطان بخارى في ذلك الوقت ، نوح بن منصور ، فاتفق له مرض أعجز الاطباء ، وكان اسمي قد اشتهر بينهم ، فأجروا ذكري بين يديه ، وسألوه احضاري ، فحضرت وشاركتهم في مداواته ، وتوسّمت بخدمته ، فسألته يوماً أن يأذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها ، وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضّدة بعضها فوق بعض ، في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك كل بيت كتب على مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت

اليه منها ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه لكثير من الناس ، وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه ، فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري ، فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت اذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معي أنضج » .

يقول صاحب طبقات الأطباء : ولما سافر الشيخ الى همذان ، عرفه شمس الدولة، وأحضره مجلسه بسبب قولنج كان قد أصابه ،فعالجه حتى شفاه الله ، وفاز منه بخلع كثيرة ، وصار من ندماء الأمير حتى سأله تقلّد الوزارة فتقلدها ، ولكن الجند لم يرض عنه لتعاظمه ومفاخرته،فكبسوا داره وأخذوه الى الحبس ، وجرّدوه من جميع ما كان يملكه ،ثم سألوا الأمير قتله، فامتنع وعدل الى نفيه عن الدولة ، فتوارى الشيخ أربعين يوماً ، ثم عاود القولنج شمس الدولة ، فطلبه واعتذر إليه فاشتغل بمعالجته ، وأقام عنده مكرماً ، ثم أعاد الوزارة اليه ثانياً ، وسئل في أثناء ذلك ، شرح كتاب أرسطو ،فأجاب انه لا فراغ له في ذلك الوقت ، فان رضيتم ، صنفت كتاباً أورد فيه ما صحّ عندي من هذه العلوم ، بلا مناظرة مع المخالفين ، ولا اشتغال بالرد عليهم ، فرضوا به فابتدأ بالطبيعيات من كتاب الشفاء ، ومات شمس الدولة في أثناء ذلك ، وتولّى الامارة ولده من بعده ، فطلبوا اليه استوزار الشيخ فأبى عليهم ، فأقام متوارياً في بيت أبي غالب العطار ، فطلب اليه اتمام كتاب الشفاء ، فاستحضر الكاغد والمحبرة ، وكتب في قريب من عشرين جزءاً بخطه ، رؤوس المسائل كلها ، بلا كتاب يحضره ، ولا أصل يرجع اليه ، بل من حفظه وعن ظهر قلبه .

أما طب ابن سينا ، فلا يقتصر على القانون ، الذي بلغت النظر فيه ، وضوحه الكامل في عرض البحوث الطبية المختلفة ، وصراحته المطلقة ، في ذكر كل ما يجد فيه فائدة للباحثين في أيامه ومن بعده ، وفي تبويبه وعنايته بارجاع الاسماء الى مسمياتها ، وقد وضع الكثير من المصطلحات الطبية ، التي لا تزال مستعملة في يومنا الحاضر ، وللفت النظر أيضاً في طب ابن سينا ، عنايته بالوقاية ، وتفضيله اياها على الطب العلاجي ، وليس أدل على ذلك ، من نصائحه الكثيرة ، التي أوردها في كثير من المناسبات ، في بحوث القانون ، ومما جاء في ارجوزته الألفية التي يقول في مطلعها :

الطبُّ حفظُ صحةٍ ، بُرءُ مرض ... من سببٍ في بدنٍ منه عرض

وكان يعتمد في طبه على تجاربه الخاصة ، كما ذكر في أرجوزة المجرّبات التي يقول في مطلعها :

بدأت باسم الله في النظم الحسن أذكر ما جرّبته طول الزمن

ثم يختمها بقوله :

هذا الذي جرّبته في عمري نظمته لمقتفي لأثري

وقد نظم هذه الارجوزة قبل وفاته بأربعين يوماً .

ويكفي ان نعلم ، أن قانونه ظل معقد آمال الأطباء ، ومحط رجائهم ، في سائر كليات الطب في العالم طوال خمسة قرون ، ولا نزال نستنير بالكثير من هديه ، في التسمية والمصطلحات ، والتبويب والتأليف ، بل لا نزال نذكر في كثير من الاعجاب ، وصفه لبعض الامراض وصفاً لا يزال كما هو الى يومنا الحاضر ، من ذلك مثلاً ما ذكره في وصف مرض السل ونفث الدم ، اذ قال في معرض الكلام على قروح الرئة : (ان الاطباء قد اختلفوا في أنها تبرأ أو لا تبرأ ، فقال قوم انها لا تبرأ البتة ، لان الالتحام يفتقر الى السكون ، ولا سكون هناك ، ولكنه اذا أمكن احداث السكون أمكن البرء). وقد أثبت العلم بعد هذا الكلام بتسعة قرون ، أنه كان على صواب في تخيله ، وذلك لما شوهد من شفاء سل الرئة ، حين تسكينها بحقن الجنب بالهواء ، ثم ان ابن سينا قد وصف المستعدين للاصابة بمرض السل ، من حيث الهيئة والسحنة والسن والبلد والمزاج ، بشكل زاد فيه على ما ذكره من بَعده بكثير ، العالم (لاندوزي) ، وقد أثبت العلم صحة رأيه في ذلك ، كما انه ابتدع الكثير من طرق المعالجة ، كالتمديد في معالجة الكسور ، فقد صوّر (هرفاجيوس) طريقته هذه منذ عام ١٥٥٦ وهي طريقة لا تختلف في شيء ، عما يجرى اليوم ، في معالجة الكسور المختلفة ، في الاطراف او في العمود الفقاري.

وانه لمن المحزن حقاً ، أن يكون هذا العالم الفيلسوف ، والطبيب الأريب ، قد دعا في تعاليمه الى اتباع الوسط الذهبي في كل الافعال ، وهو الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، ثم هو يخطيء في تدبير نفسه حتى أجهز عليها ، فهو لم يعرف في حياته الخاصة شيئاً من هذا الاعتدال الذي دعا اليه ، اذ كان مفرطاً في مواصلة النساء ، مخلّطاً في الطعام والشراب ، مع أنه هو القائل :

ثلاثة هُنّ من شَرَك الحمام وداعية الصحيح الى السَّقام
دوام مُدامةٍ ودوامُ وطءٍ وادخال الطعام على الطعام

فاذا هو يمعن في استنفاد قواه الشهوانية ، حتى قصر عمره ، وقد حض كثيراً على ترك الخمرة وعدم تعاطيها الا تداوياً ، ولكنه شرب وأطنب في مدحها ، حتى قال فيها اشعاراً فارسية هذه ترجمتها :

« ان المدامة حقاً غذاء الروح ، فقد فاقت بلونها ورائحتها ، لون الورد ورائحته، لونها يصقل القلب الحزين ، واذا احتست البقّة جرعة منها أصبحت صقراً ، طعمها مر كنصيحة الوالد، ولكنها مفيدة، وقد حُرِّمت على ذوي الباطل، وأُحلّت للحكماء ، حُرّمت في الشرع على الجهال لطيشهم ، وأُحلت بفتوى العقول على اللبيب . . . الى أن يقول: فان شربت الخمرة كما يشربها أبو علي « ويعني نفسه » أقسم بالله أنك تتصل بالحق » . ويتبين من هذا أنه أولع بالخمرة حتى احتلت من قلبه مكاناً فسيحاً ، فلهج بذكرها واستشهتير بها ، ويقول في قصيدة فارسية أخرى ما معناه : (لقد أصبح اولئك الذين ديدنهم في الليل والنهار، الزنا واللواط ، والسحت والفساد ، موسومين لدى العوام بالعقل والسمعة الطيبة بعد توبتهم من شرب الخمر ، فاذا تناول عالم كريم ، اشتهر بفضائله بين الانام (ويعني نفسه أيضا) قدحين او ثلاثة اقداح ، انهالوا عليه بالف طعنة والف قول سيىء ، الا فالخراب لبيوت هؤلاء العوام) ، ومن خمرياته في الشعر العربي :

قم فاسقنيها قهوة كدم الطلا   يا صاح بالقدح الملايين الملا
خمراً تظل لها النصارى سُجّداً   ولها بنو عمران أخلصت الولا
ولو أنها يوماً وقد وُلِعوا بها   قالت ألست بربكم قالوا بلى

وربما كانت أقواله هذه وافعاله ، هي التي دعت فيلسوف الاسلام الامام الغزالي، الى القول بتكفيره ، كما ذكر في كتابيه ، تهافت الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال ، على أن أقواله التي يسوّغ فيها أعماله ، لم تفده شيئاً مع الناس ، فلم يصغوا الى حجته، ولم يستمعوا الى فتواه ، بل اشتدوا عليه ونهشوا سمعته ، ووصموه بالكفر والالحاد فصاح يقول : (ان تكفير مثلي ليس بالامر الهيّن ، ولا يوجد ايمان اقوى من ايماني انا وحيد دهري واكون كافراً ، اذن لا يوجد في العالم كله مسلم واحد ، غير انه شعر بالتناقض القائم بين أقواله وأفعاله ، فاضطربت نفسه وقال في قصيدته الميمية :

ما لي ارى حِكَم الافعال ساقطةً   واسمع الدهر قولاً كله حِكَمُ

وأبيات هذه القصيدة كثيرة ، تنطلق فيها ثورته ونقمته ومفاخرته فيقول :

الشيب يُوعد والايام واعدة … والمرء يغتر والايام تنصرم
مالي أرى حِكَم الافضال ساقطة … وأسمع الدهر قولاً كله حكم
مالي أرى الفضل فضلاً يستهان به … قد أكرم النقص لما استُنقص الكرم
جَوَّلت في هذه الدنيا وزُخرفها … عيني فألفيتُ داراً ما بها ارم
كجيفةٍ دَوَّدَت فالدود منشؤه … فيها ومنها له الارزاء والطُعَم
سِيَّان عنديَ ان برُّوا وان فجروا … فليس يجري على امثالهم قلم
ليسوا وان نعموا عيشاً سوى نَعَم … وربما نعِمت في عيشها النَّعَم
الواجدون غنىً العادمون نُهىً … ليس الذي وجدوا مثل الذي عدموا
بأي مأثرة ينقاس بي أحدٌ … بأي مكرمة تحكينيَ الامم
اني وان كانت الاقلام تَخدمني … كذاك يخدِم كفي الصارمُ الخَذِم
أما البلاغة فاسألني الخبيرُ بها … أنا اللسان قديماً والزمان فَمٌ

وأما فلسفته ، فقد تجلت واضحة في مؤلفاته الضخمة ، كالشفاء والنجاة والاشارات ، كما تجلت في كثير من رسائله ، كرسالة الطير وحي بن يقظان وغيرهما ، فمن فلسفته ما أورده في النجاة ، عند البحث في الالهيات، قال: (حين يوجد مفعول من فاعل ، يجب ان نفهم انه قد كان المفعول معدوماً ، ثم حصل له وجود ، ولكن ليس للفاعل في عدمه السابق تأثير ، بل تأثيره في الوجود الذي للمفعول منه ، وانما هو مفعولٌ لان وجوده من غيره ، ولكن عَرَّض له عَدَمٌ من ذاته ، وليس من تأثير الفاعل ، والقول ان المفعول لابد أن يسبقه عَدَم ، ليس الا من الاوهام ، فأصحاب هذه الاوهام ، يرون ان الشيء المُحَسّ ، لا يوجد الا بعد ان لم يكن موجوداً ، وان المفعول الذي نقول ان موجداً يوجده لا يخلو بأن يوصف بأنه مُوجِدٌ له ومُقَيِّد لوجوده ، في حال العدم أو في حال الوجود أو في الحالين معاً ومعلوم أنه ليس موجداً له في حال العَدَم . فبطل أن يكون موجداً له في الحالتين جميعاً ، وبَقيَ أن يكون موجداً له ، اذ هو موجود .

وإله ابن سينا كإله اخوان الصفا ، مُبدع الوجود ، ومفيض الجود ، ومتجل على كل موجود ، ولولا تجليه لم يكن خير ولا وجود ، انه الواجب الوجود بذاته ، وهو

خير محض وكمال محض. تلك هي بعض اراء ابن سينا في الاله والخير والخلق والوجود ، وكان يقول معتداً بنفسه ، لقد حللت مشكلات الكائنات كافة ، من أعماق الارض الى أعالي زحل ، ونجوت من عقدة كل مكر وحيلة ، وانحلت لي كل عقدة ، الا عقدة الأجل .

أما عقيدته في دينه ، فقد اختلف فيها كثيراً، فمن قائل انه مسلم مخلص في اسلامه، ومؤمن مملوء قلبه بأيمانه ، وكل ماحاوله هو التوفيق بين العقل والنقل ، وانه رمى بذلك الى تدعيم الدين بتأكيد اليقين ، ومن قائل ان فلسفته مملوءة بالألحاد ، وان تصوفه كان ستراً لهذا الالحاد ، وهذا هو رأي الامام الغزالي فيه ، الذي كان من أكبر اللائمين له في فلسفته ومعتقداته ، وشربه واستهتاره بخلاف الفيلسوف ابن رشد ، الذي حمل عليه في بعض آرائه ، ولكنه اعجب بالكثير من فلسفته ، ولم يتعرض لحياته الخاصة .

وقد نشأ ابن سينا في وسط اسماعيلي ، اذ كان ابوه اسماعيلياً فتأثر بتعاليمه ، كما ان بعضهم حشره في زمرة الشيعة ، ونسبوه الى الاثني عشرية ، ومع جميع ماقيل في عقيدته ، فقد كانت وصيته لتلميذه أبي سعيد الصوفي هي مايلي : (ليكن الله تعالى اول فكر لك وآخره ، وباطن كل اعتبار وظاهره ، ولتكن عين نفسك مكحولة بالنظر اليه ، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه ، مسافراً بعقلك في الملكوت الأعلى ، وما فيه من آيات ربك الكبرى ، فاذا نزلت الى قرارك ، فتنزه الله تعالى في آثاره ، فانه باطن ظاهر ، تجلى لكل شيء بكل شيء . وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد ، ان افضل الحركات الصلاة ، وأمثل السكنات الصيام ، وأنفع البر الصدقة ، وازكى السر الاحتمال ، وابطل السعي المراءاة ، ولن تخلص النفس عن الدرن ، ماالتفتت الى قيل وقال ، ومناقشة وجدال ، وانفعلت بحال من الاحوال ، وخير العمل ماصدر عن خالص نية ، الحكمة ام الفضائل ، ومعرفة الله أول الأوائل ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) .

ان المرء ليحار حقاً في التوفيق بين فلسفته وخمرياته ، وبين تصوفه وإلحياته ، وبين اقواله وأفعاله ، ولعله كان يتستر احياناً في مثل قوله :

اعتصام الورى بمغفرتك   عجز الواصفون عن صفتك
تب علينا انـــا بشر   ما عرفناك حق معرفتك

أو في قوله كمثل الشعر الصوفي الرمزي :

هبت نسيم وصالكم سحراً   بحـــدائق الشوق في قلبي

فاهتز غصن العقل من طرب وتناثرت درر من الحب
وبدت شموس الوصل خارقة بشعاعها لسرادق القلب
فبقيت لا شيء أعانيه الا ظننت بأنه ربي

ومن عجب بعد ، أن نستمع اليه في رسالة الطير يقول : (وكم من أخ قرع سمعه قصتي ، فقال أراك مس عقلك مس ، وألم بك لمم ، ولا والله ما طرت ولكن طار عقلك ، وما اقتنصت ولكن اقتنص لبك ، كأن المرار قد غلب في مزاجك ، واليبوسة استولت على دماغك ، وسبيلك ان تشرب طبخ الافتيمون ، وتتعهد الاستحمام بالماء الفاتر العذب ، وتستنشق بدهن النيلوفر ، وتترفه في الأغذية ، وتستأثر منها بالخصبة ، وتجتنب الباه ، وتهجر السهر ، وتقل الفكر ، فانا قد عهدناك فيما خلا لبيبا ، وشاهدناك فطنا ذكيا ، والله مطلع على ضمائرنا ، فانا من جهتك مهتمة ، ولاختلال حالك مختلة ؛ وبعد فترة من الصمت يقول ، ما اكثر ما يقولون ، واقل ما ينجع ، وشر المقال ماضاع .

واما نظرته الى المرأة ، فنظرة العاشق الوامق ، الذي يمحضها الود ، ويصدقها الحب ، ولا يصغي فيها الى عذل عاذل أو لوم لائم ، بل يذرف الدموع في حبها ، ولنستمع اليه يقول :

وقفت دموع عيني دون سعدى على الأطلال ماوجدت سبيلا
على جفني لسعدى فرض دمع أقمت له به قلبي دليلا
عقدت له الوفاء وأن عقدي هو الحب الذي لن يستحيلا

وكان الشيخ الرئيس ، يحسن الضرب على العود ، وقد ألف في الموسيقى «المدخل الى صناعة الموسيقى كما أورد هذا الفن في الشفاء ، وأوضحه في رسائل لاتزال مخطوطة ، وهي محفوظة في خزانة الكتب بجامعة «اكسفورد» وواحدة منها في جامعة «لايدن» بهولنده ، ونسختان بدار الكتب المصرية بالقاهرة وقد اشار المستشرقان الدكتور «هنري فارمر» والبارون «رودولف ديرلانجيه» الى وجود نسخة من موسيقى الشفاء ، في خزانة الكتب بجامعة «ابسالا» في السويد ، وقد ترجم الدكتور «فارمر» منها فصل العود ، الى اللغة الانكليزية ، ولم يكن ابن سينا راضيا عن الفلسفة القديمة المتعلقة بالموسيقى والتي تقول بعلاقتها بالفلك ، وان للافلاك نغمات ، ولحركاتها نغمات ، وغير ذلك مماتبناه إخوان الصفا في رسائلهم .

وكان الشيخ الرئيس يعرف من اللغات اثنتين : العربية والفارسية ، ولئن كانت الفارسية لغته الأولى كتب بها وقال شعراً ، ولكن اللغة العربية ، التي كانت في أيامه لغة العلم والدين والدولة ، فاقت معرفتها لديه ، معرفة الكثير من ارباب الارومة العربية الخالصة.

ذكر تلميذه الجوزجاني مانصه : « كان الشيخ جالساً . يوماً من الايام بين يدي الامير ، وابو منصور الجبائي حاضر ، فجرى في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره ، فالتفت ابو منصور الى الشيخ وقال له : انك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة مايرضي كلامك فيها ، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام ، وتوفر على درس اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة — للأزهري ، من خراسان ، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها وانشأ ثلاث قصائد ، ضمنها الفاظاً غريبة من اللغة ، وكتب ثلاثة كتب ، احدها على طريقة ابن العميد ، والآخر على طريقة الصابي ، والثالث على طريقة الصاحب ابن عباد ، وامر بتجليدها وإخلاق جلدها ، ثم أوعز الأمير ، فعرض تلك المجلدة على ابي منصور الجبائي ، وذكر له انا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد ، فيجب ان تتفقدها وتقول لنا مافيها ، فنظر فيها ابو منصور ، وأشكل عليه كثير مما فيها ، فقال له الشيخ : ان ماتجهله من هذا الكتاب ، مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة ، وذكر له كثيراً من الكتب المعروفة ، كان الشيخ قد حفظ تلك الالفاظ منها ، وكان ابو منصور مجزفاً فيما يورده من اللغة ، غير ثقة بها ، ففطن ان تلك الرسائل من تصنيف الشيخ ، وان الذي حمله عليه ، ماجبهه به في ذلك اليوم ، فتنصل واعتذر اليه ». وان من يقلب النظر في مؤلفاته ورسائله ، واراجيزه وقصائده ، لايشك ابداً في ان قائلها عربي النجار ، ضادي اللسان ، مع انه نبت في مقاطعة سمرقند وبخارى ، وعاش معظم حياته في ايران ، حتى لقد بلغ به السرف ، أن يصف ادويته شعراً . كتب له احد المقربين اليه :

صنيعة الشيخ مولانا وصاحبه وغرس انعامه بل نشء نعمته
يشكو اليه أدام الله مدتـه آثار بثر تبدى فوق جبهته
فأمنن عليه بحسم الداء مغتنماً شكر النبي له مع شكر عترته

فأجابه ابن سينا :

الله يشفي وينفي ما بجبهتـه من الأذى ويعافيه برحمتـه
أمـا العلاج فاسهال يقدمه ختمت آخر أبيـاتي بنسخته

وليرسل العلق المصاص يرشف من / دم القذال ويغني عن حجامته
واللحم يهجره الا الخفيف ولا / يدني اليه شراباً من مدامته
ولا يضيق منه الزر مختنقاً / ولا يصيحن أيضاً عند سخطته
هذا العلاج ومن يعمل به سيرى / آثار خير ويكفى شر علته

وان من يستمع الى قصيدته العينيـة في وصف الروح ، لايملك الا ان يغلبه العجب ، في امر هذا النابغة الذي جاءت به فلتة من فلتات الزمان ، وهذه بعض ابيات هذه القصيدة الرائعة :

هبطت اليك من المحل الأرفع / ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف / وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما / كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت / ألفت مجاورة الخراب البلقع
حتى اذا قرب المسير الى الحمى / ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت / ما ليس يبصر بالعيون الهجع
وبدت تغرد فوق ذروة شاهق / والعلم يرفع كل من لم يرفع
ان كان أرسلها الاله لحكمة / طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فلأي شيء أهبطت من شاهق / سام الى قعر الحضيض الاوضع
فهبوطها اذ كان ضربة لازب / لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفيـة / في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها / حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألـق بالحمى / ثم انطوى فكأنه لم يلمع

أما مؤلفات ابن سينا وآثاره الكثيرة ، فلايمكن ان تدخل تحت حصر ، فقد ألف في الفلسفة والطب والطبيعيات والرياضيات والموسيقى والمنطق والفقه واللغة ، كما ان

له رسائل كثيرة ، اشهرها ماكتبه في البر والاثم ، والعشق ، والحكمة العروضية، ورسالة الطير ، وحي بن يقظان ، ودفع المضار ، وقيام الارض وسط السماء ، ولعل في الرسالة الاخيرة ، مايوحي ببعد تخيله لفكرة البحث في الفضاء ، هذا عدا اراجيزه وقصائده ومؤلفاته الاخرى باللغة الفارسية ، ولقد فقد الكثير من هذه المؤلفات، وشتتت حوادث الايام ، غير قليل منها ، ولكن مابقي بين ايدينا ، ينوف على مائتي مؤلف ، وقلما تخلو مكتبة كبرى من المكتبات الاجنبية من بعض هذه المؤلفات ، في ستوكهولم وبرنستون ومونتريال ، واكثرها محفوظ في استامبول التي يوجد في مكتبتها مايزيد على الف وخمسمائة مخطوطة ، كما يوجد بعض هذه المخطوطات في مكتبة القاهرة .

ولم يكن ابن سينا نقلة كما يدعي بعضهم ، فهو قد اخذ عن اليونان والرومان ، وتأثر بالفرس والهند والسريان ، ولكنه ضم كل ذلك الى عقله ، ليكون منه مزاجاً خاصاً ويخرج منه بجديد غير معهود ، وان موسوعتاه في الفلسفة والطب : الشفاء والقانون ، خير شاهد على ذلك ، وقد نقلت طائفة من مؤلفاته الى اللغة العبرية ، كعيون الحكمة والنجاة وبعض اجزاء الاشارات ، وتأثر بآرائه في القرون الوسطى ، كثير من اليهود وعلى رأسهم موسى بن ميمون ، كما نقلت بعض آثاره الى السريانية ، كرسالة الطير والاشارات والقصيدة العينية التي مر ذكرها .

ولم يمض على وفاته قرن واحد ، حتى ترجمت اجزاء هامة من الشفاء ، الى اللغة اللاتينية ، كما ترجم القانون كله ، وطبع بالعربية واللاتينية في اوربا ، وظل الدعامة الاصلية في تعليم الطب ، حتى ان جامعة « لوفان » في بلجيكا ، ظلت تعتمد عليه في تدريس الطب حتى اوائل القرن الثامن عشر ، كما اسلفنا ، وفي الاصلاحات الاخيرة التي اجريت لجدران مكتبة « اكسفورد » ظهرت مجموعة من الصور ، كانت من بينها صورة لابن سينا ، الى جانب صور ارسطو وافلاطون واقليدس ، وانه لمن العجب حقاً ان نجد لابن سينا كل هذه المؤلفات . وهو لم يعمر اكثر من ثمان وخمسين سنة ، وان يحظى بالكثير من الجاه والشهرة ، وهو في عنفوان شبابه حيث تقلد الوزارة غير مرة ، ودبر شؤون الامارات ، ووضع يده على خزائن الاموال ، واستمتع بماشاء من نعيم الدنيا وصفاء العيش ، وكان يقول : إنه يفضل الحياة العريضة القصيرة ، على الحياة الطويلة الضيقة ، ومع كل ذلك فقد برم بالحياة وبرم بالناس ووصفهم بسوء الطباع وفساد الاحوال وخبث السرائر وعبادة الاهواء والشهوات ، ولولا تعاليه وتعاظمه ، وجبروته وكبريائه ، لكان

له بين بني قومه — في خلال حياته — شأن غير شأن ، فلقد جرت عليه كبرياؤه نقمة الجيش كما رأينا ، ونقمة الكثير من حساده، حتى كانت حياته سلسلة مضطربة من الاحداث والمؤامرات ، لذلك قال :

«لما عظمت فليس مصر واسعي   لما غـلا ثمني عدمت المشتري»

وإذا كانت كبرياء العلم صفة محمودة ، وخلة : لاتلم ، اذا احاط بها الاعتدال ، فان من حق العالم على نفسه وعلى الناس ، ان يكون مرفوع الرأس في تواضع ، شديداً في حلم وأناة ، فخوراً من غير زهو ولا اعجاب ، كبير النفس ، رهيف الحس ، عفيف اليد والقلب واللسان ، اما ابن سينـا فلم يكن كذلك ، وقد عرف تلاميذه فيـه صفة التعاظم والطموح والاستعلاء ، وقد جاء في كتاب قصص العلماء ، المطبوع في ايران عام الف وثلاثمائة وستة ، ان تلميذه وملازمه ، أبا الحسن بهمنيار بن المرزبان ، قال له ذات يوم ، انك رجل عالم فاضل ، قد اتيت بالمعجزات في العلم والطب والفلسفة فلماذا لاتدعي النبوة ، فاني اعتقد ان النـاس يصدقونك ، فسكت ابن سينـا ولم يجب بشيء ؛ وفي ليلة شديدة البرد من ليالي الشتاء ، وكان بهمنيار نائماً مع الشيخ في غرفة واحدة ، استيقظ ابن سينا في وقت كان المؤذنون فيه ينادون لصلاة الصبح ، وطلب من بهمنيار أن يأتيه بقدح من الماء ، فأراد هذا أن يعفي نفسه من الخروج في تلك الليلة الباردة، فأخذ يتعلل لأستاذه بأن الماء بارد جداً ، فكيف يشربه وما كاد يستيقظ ، ان شرب المـاء عند اليقظة ، يضر بالأعصاب والعروق ، فقال له ابن سينـا . (اني انا الطبيب الوحيد في هذا الجيل ، فكيف تمنعني شرب المـاء ؟ لقد طلبت مني أن أدعي النبوة ، وانت اقرب تلاميذي الي ، ولا تطيعني بشربة ماء في حياتي ، أفيصدقني الناس بعد موتي ، لقد توفي النبي منذ اربعمائة سنة ، ولم يزل اثره باقياً في النفوس ، ولا يزال الناس مع شدة البرد، يدعون باسمه الى الصلاة ، ألا تسمع صوت المؤذنين الذين خرجوا في هـذه الليلة الباردة ، ولم يثنهم عن طاعة ربهم هـذا البرد الذي تتعلل به ، فكيف أدعي النبوة ؟) فأفحم بهمنيار ، وادرك ان الشيخ لم يكن يقصد الشرب ، وانما أراد أن يجيبه على سؤاله في أمر إدعاء النبوة .

يقول الجوزجاني ، كاتب سيرة ابن سينـا ، وكان الشيخ قوي القوى كلهـا ، وكانت قوته الشهوانية اشد واغلب ، فأثر هذا في مزاجه ، ثم اصابه القولنج الذي كان سبب موته ، فكان من شدة حرصه على الشفاء منه ، ان جعل يحقن نفسه ثماني مرات

في يوم واحد ، فتقرحت امعاؤه ، واصيب بالزحار ، فانحطت قواه ، حتى لم يعد يقدر على النهوض ، ولكنه استمر في معالجة نفسه حتى استطاع المشي ؛ غير انه لم يتحفظ، بل عاد الى الانهماك في الشهوات ، والتخليط في الغذاء والشراب والدواء ، حتى سقطت قوته ، فصرف اطباءه واخذ يقول : ان المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير ، والآن لاتنفع المعالجة ، وتوجه الى ربه بأفكاره ، واغتسل وتاب ، ووزع كثيراً من الصدقات ، واعتق مماليكه ، وجعل يختم في كل ثلاثة ايام ختمة ، ثم مات بعد ايام قليلة عن عمر لايزيد على ثمانية وخمسين عاماً .

مشاهد السياسة والحضارة عند ابن خلدون

سهيل عثمان

تقوم آراء ابن خلدون في السياسة والحضارة[1] على بيانات تاريخية ودينية وجغرافية زودته بها ثقافته[2]، وعلى بيانات واقعية مباشرة وعملية زودته بها رحلاته

وتجاربه . وأغزر معلوماته التاريخية هي المعلومات المشرقية عن العرب والبربر والترك والفرس ومجاوريهم ، وان أكثر علمه بالدين هو علمه بالاسلام فقد كان فيه فقيهاً ومتصوفاً وأما مشاهداته المباشرة وتجاربه العملية فقد كان مسرحها الشمال الافريقي من مغربه حتى مصره والاندلس وبلاد الشام . كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأن علامتنا كان انتاجاً شرقياً وأن العناصر الغربية في تكوينه الفكري كانت باهتة الوجود ضعيفة الاثر .

ولكي نقترب من الصورة التي وجد فيها ابن خلدون نفسه علينا أن نذكر أن الرجل قد عاش في القرن الهجري الثامن – الرابع عشر الميلادي – وكانت خلافة العباسيين في بغداد وخلافة الأمويين في الاندلس قد سقطتا ، وساد الانقسام العالم الاسلامي وسيطرت عليه حكومات هي في الأغلب امتداد لعشائر غير عربية ، استوى المماليك الترك والشركس على عرش مصر ، وظفر بنو مرين البربر بشمالي افريقيا تنازعهم عليه بقايا دولة الموحدين البربرية أيضاً ، ويدير الأمر في الشرق الاتراك السلاجقة والدولة العثمانية التركية الناشئة ، ومن أقصى الشرق تندفع جحافل المغول والتتر بخطوات الجبابرة تحت لواء سلطانها الأعرج تيمورلنك فتسود آسيا وتتطلع نحو افريقيا ، ولم تبق بين دول العصر إلا دولة واحدة عربية الحاكم لم تكن من أوسعها املا في البقاء والنماء وتلك هي دولة بني الأحمر في غرناطة الاندلس . وقد كانت لصاحبنا لقاءات ومواقف مع أكثر ملوك دول عصره وأقطابها من سلطان بني الأحمر حتى تيمورلنك . واذا كان قد ابتدأ حياته العملية بالوظائف الديوانية وختمها بمنصب قاضي المالكية في مصر فهو قد مارس بينهما ضروباً من النشاط السياسي كمفاوضة العشائر والدول والمشاركة في المؤامرات وتغيير الولاء ثم العودة اليه ، وجنى من السياسة ما يجنيه عادة أغلب رجالها في عصور الاضطراب فذاق حلاوة الجاه والعطايا والاقطاعات والمراتب حتى وصل الى الوزارة وذاق مرارة السجن والاقامة الجبرية والنفي وخيبة الأمل وذل الاسترحام ، ولم تكن له من عشيرة تنصره في أيام العشائر تلك ولذلك لم يطمح فعلياً الى الملك ، ولكنه كان صاحب كفاءة مفيدة لملوك زمانه تجعله مقرباً اليهم وموضع رعايتهم وتنافسهم وتجعلهم يعلون منصبه ويكرمونه ويعفون في نهاية الأمر عن زلاته اذا ما انقلب أو تآمر .

قيام الدولة

ان لقيام الدولة سبباً غائياً وسبباً فاعلاً رئيسياً تدعمه بعض الأسباب المساعدة .

١ – السبب الغائي : الدولة جزء لا يتجزأ من النظام الذي رتبه الله للانسان ، فقد أودع الخالق في الانسان الحاجة الى الاجتماع

الضروري لتحصيل مايلزم لبقائه من طعام وشراب وكساء ومأوى ودفاع عن النفس من عدوان الحيوان المفترس ، فالانسان مستضعف اذا وقف وحيداً أعزل أمام الحيوانات ، ولكنه قوي بعقله وحيله وأدواته وتعاونه وهو لايصنع الأدوات الا اذا تجمع وتضافرت جهوده ،غير أنه أيضاً لايخلو من الطبيعة الحيوانية العدوانية فاذا ما اجتمع الناس أمنوا غائلة الحيوان ولكنهم يتعرضون عندئذ الى عدوان آخر لايقل عن الأول وهو عدوان الانسان على الانسان وايذائه اياه ، ولهذا احتاجوا الى ان يقوم من بينهم وازع لهم ورادع تكون له الغلبة عليهم والسلطة ليقدر على كف الأذى وايقاف التمادي وهذا هو معنى الدولة ، واذن فالهدف الجوهري لوجود الدولة هو حفظ أمن المجتمع ليتمكن الناس من العيش والانتاج والتكاثر «١» .

٢ - السبب الفاعل الرئيسي : انه عصبية العشيرة ، وذلك ان الاجتماع البشري له شكلان هما البدوي والحضري ، والشكل البدوي هو الاصل في كل أمة وهو السابق على الحضارة ، والبداوة عند ابن خلدون تختلف عن البداوة في مصطلحنا فالخاصة الجوهرية للمجتمع البدوي لديه هي اكتفاؤه بالضروري سواء قام على الرعي او على الزراعة وسواء حمله الرعي على الترحل أم دعته الزراعة الى الاستقرار . وأما خاصة المجتمع الحضري فهي قيامه بالصناعة والتجاره وعدم اكتفائه بالضروري ، وكأن البدو في نظره هم أهل البادية والارياف وكأن المتحضرين هم سكان المدن التي يسميها غالباً بالامصار .

والبدو - على تخلفهم الحضاري - صحيحة أجسامهم حسنة أشكالهم ذوو ذكاء وشجاعة وكرم ألفوا الاخطار والصعاب ولم تفسد الاغذية الغليظة أبدانهم ولا أدمغتهم فهم على العموم أقرب الى خلال الخير من الحضريين ، وكلما أوغلوا في البوادي وابتعدوا عن الامصار نمت فيهم صفات الخير واقتربوا من الفطرة السليمة كبدو العرب ومن في حالهم ونظراً لانعزال المجتمع البدوي وبعده عن الاختلاط وبراءته فان الانساب فيه محفوظة موثوقة ، واذا كان النسب أمراً ذهنياً وهمياً فهو وهم مفيد لانه يبقي العصبية حية فعالة فالانسان مفطور على نصرة قريبه والتضحية في سبيل أهله ، فالعصبية في الاصل للاقارب وهي على

«١» مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي . نشر لجنة البيان العربي ١٩٥٧ من ص ٢٧٢ الى ٢٧٥ .

درجات أقواها بين شديدي القرابة وأضعفها بين بعيديها وهذا فالى جانب العصبية العامة في العشيرة توجد عصبيات جزئية تتحرك متعاولة ومتنافسة ضمن الاطار العام «١» وقد يحالف الحظ بعض العصبيات الجزئية فتصعد عبر الدرجات التالية :

آ ـ البيت الشريف : هو أسرة من أسر العشيرة تعاقب عليها عدة آباء اشتهروا بالشرف وعرفوا بمكارم الأخلاق والمروءة وأنفقوا في سبيل ذلك . ويستنكر ابن خلدون ماذهب اليه ابن رشد من أن معيار بيت الشرف هو قدم النزول الى المدينة وهو يرى على العكس أن مجرد تقادم النزول الى المدن قد لا يعني الا توالي الابتعاد عن سمات الخير وقد يكون بعض الاجداد المدنيين من محبي الشرف ولكن من غير تضحية في سبيله ، ولذلك يفتخر اهل المدن بأجداد بداة«٢» .

ب ـ الرئاسة: وتعظم هيبة بعض البيوت الكريمة الشريفة فتصبح لها الرئاسة على من حولها من أقسام العشيرة وفي الرئاسة الطاعة والاتباع عن طريق الاحترام والمهابة لا عن طريق القوة والتغلب . انها القيادة العشائرية الصاعدة المحاطة بعواطف الأقرباء وحبهم، وربما اتسع نفوذ احدى الرئاسات بتزايد من يلتفون حولها من أبناء العشيرة الكبيرة وتزيدها الولاء والاصطناع قوة على قوتها فتولى القوم منهم وان ظل دونهم ، وتتابع صعودها فتحتك بالمدن والدول المجاورة ويدور صراع طويل ينقلها بالتدريج من حال الزعامة العشائرية العفوية الى حال الدولة (٣)

ج ـ الدولة : وهي اعلى ما تصل اليه العصبية ، وفرقها الرئيسي عن الرئاسة انها لاتقوم على مجرد الهيبة والتوقير بل تضيف الى ذلك السيطرة بالقوة على الرعية ، وعلاماتها المميزة انها تستطيع ممثلة في قائدها أو ملكها أن تستعبد الرعية وتجبي الاموال وتبعث البعوث وتحمي الثغور والا تكون فوق يدها يد قاهرة ، وهذه العلامات تذكرنا بالمصطلحات الحقوقية الحديثة عن سلطة الدولة الداخلية واستقلالها تجاه القوى الخارجية وسيادتها على ارضها وشعبها ، الا ان عبارة (استعباد الرعية) تتنافى مع المفهوم الديموقراطي للدولة وسنرى أن ابن

«١» المقدمة من ص ٤٠٧ ـ ٤٢٧ وص ٣٣٨ ـ ٣٤٤ و ص ٤٣٧ ـ ٤٣٩ و ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ وص ٧٠٣ ـ ٧٠٨ .

«٢» المقدمة ص ٤٣٢ ـ ٤٣٥ .

«٣» المقدمة ص ٤٢٨ ـ ٤٣١ .

خلدون يعني ما يقول«١» . يقترن بنشوء الدولة الجديدة نزوح نواتها العشائرية الظافرة الى المدينة وهجرها البادية ، لانها تحتل مدن الدولة او الدول التي كانت تصارعها وتفضل ان تستقر في تلك المدن لتفوت على الخصوم فرصة الاستعصاء بحصونها ، وهكذا تترك البداوة الى الحضارة ويفتح التاريخ سجلين في آن واحد، هما سجل لدولة جديدة وسجل لحضارتها ، وان غاية العمران البدوي ان يصبح حضرياً وقد عرف التاريخ بدوا كثيرين اصبحوا حضراً ولكنه لم يشهد الا قلة من الحضريين عادوا الى الحالة البدوية فالبداوة اصل والحضارة تالية عليها«٢» .

٣ ـ عوامل مساعدة : وهي عوامل اذا اضيفت الى العصبية ساعدت على سرعة قيام الدولة ويسرت ولادتها ولكنها لاتغني عن السبب الرئيسي المتمثل في العصبية، واهمها:

آ ـ الدين : اذا امتلأت نفوس العاملين على اقامة الدولة بالعقيدة الدينية واخلصوا لها زادت شجاعتهم وتضحياتهم وقلت مطامعهم وخلافاتهم وتنافسهم على المناصب والمكاسب فيسرع النصر اليهم ويقطعون الزمن وثباً الى السيادة والحكم، وهذا حال دولة العرب التي قامت على اساس العقيدة الاسلامية فانها لم تحتج الى الفترة الطويلة التي تحتاج اليها عادة الدول الجديدة أثناء صراعها مع الدول السابقة عليها اذ سرعان مادانت لها الجزيرة العربية وانهارت امامها دولة الساسانيين وانفلت جموع الروم. وان الأمم ذات البداوة الشديدة العريقة لفي أمس الحاجة الى الايمان الديني اذا ارادت اقامة دولتها . لأن شدة البداوة مقترنة بشدة الانفة وعدم الانقياد وكثرة العصبيات المتنافسة فيأتي الايمان ملطفاً للنفوس من غير أن يقضي على الشجاعة وجامعاً للشتات تحت لواء الدعوة النبيلة ، ومن الشواهد على ذلك بدو العرب الاقحاح كنظر ومن شايهها فانهم لا تقوم لهم قائمة الا بمعونة الدين وتقل حاجة بقية الأمم الى ذلك لضعف بداوتها .

ومع ذلك فالدين ليس شرطاً ضرورياً للدولة لان اغلب امم الارض لم تعرف النبوات وقد عرفت الدول أن وجود الدولة امر تتطلبه طبيعة الانسان سواء رافقها الدين أم لم يرافقها .

وليس الدين شرطاً كافياً لقيام الدولة

«١» المقدمة ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

«٢» المقدمة ص ٤١٤ ـ ٤١٨ و ص ٤٨٨ ـ ٤٩٢ وص ٨٣١ ـ ٨٣٢ و ص ٨٧١ ـ ٨٧٥ .

ولذلك فشل المدعوون الذين حسبوا ان الدعوة الدينية بدون العصبية يمكنها أن توصلهم الى الحكم ويعدد ابن خلدون بعض هؤلاء .

والدولة أطول عمراً من الحماسة الدينية ان وجدت ، فهذه الحماسة تخبو بسرعة لان الانسان سرعان ما تغلبه طبعته الدونية وتهوي به من المستوى المثالي الذي رفعه اليه الدين ، واعتبر ذلك بحال الدولة العربية الاسلامية التي بدأت دينية وانتهت دولة طبيعية يحكمها ملك تحميه عصبيته وان حافظ على اسم الخلافة وبعض مظاهرها الخارجية (١) .

ب – الخلال الكريمة ، ومما يساعد على قيام الدولة واستمرارها اتصاف الحاكم بخلال الكرم والخير ، لأن قوته تجعله موضع رجاء الناس في الانصاف وتأمين الحقوق ، ومن رام الملك من غير خلال الخير فكأنما سار عارياً ، فعلى الحاكم ان يكون كريماً عادلاً محترماً لأهل العصبية حتى يلتفوا حوله مقدراً العلماء ليبذلوا ما عندهم من علم وتشريع في خدمة دولته منصفاً للتجار كي ينشطوا فتكثر البضائع وتدور حركة الاسواق ويعم الازدهار مقرباً لاهل الصلاح متجنباً أهل الفساد وحاشية السوء . ومن الافضل له أن يرتفع درجة فوق الملك الطبيعي العشائري الى مستوى السياسة التي هي ادارة شؤون الدولة بموجب انظمة وقواعد شرعية أو عقلية فيعرف حقوق الناس وواجباتهم وحدودهم وحدوده ويتحاشى الظلم فالظلم مرتعه وخيم وقد يزيد على مهمته الاولى في حفظ الامن فينشىء المرافق المفيدة للرعية في حلها وترحالها ،

وهو لا ينسى القيمة الدعائية لهذه المناقب التي تطلق الالسنة في الثناء على الحاكم والدعاء له وتجعله بؤرة تستقطب اصحاب الكفاءة والمقدرة .

ومن تمام خلال الخير أن يعفو الحاكم عن المسيء بل ان يتغاضى عن الهنات ويتجاهلها ان علم بها ، فليس الحاكم الناجح من يحاسب الرعية على الكبيرة والصغيرة ويترصد لهم عند كل منعطف ويربط ألسنتهم ويقيد حركتهم بل هو المتسامح الحليم المتجاهل لتوافه الاخطاء والمخالفات ، وإذا عجز الحاكم الذكي عن التجاهل فأفضل منه وانجح حاكم متوسط الذكاء يغفل عن الزلات الصغيرة فلا يلاحظها ولا يقف عندها ، وقد عزل عمر بن الخطاب زياداً عن ولاية العراق لا لريبة أو عجز ولكنه خشي أن يرهق الناس كبر عقله (٢) .

---

(١) المقدمة ص ٢٧٢ – ٢٧٥ و ص ٤٦٦ و ص ٤٦٧ – ٤٦٨ و ص ٤٦٨ – ٤٧٢ و ص ٥٣٨ – ٥٤٨ .

(٢) المقدمة من ص ٤٤٤ – ٤٤٧ و ص ٥١٤ – ٥١٦ و ص ٦٧٩ – ٦٨٦ .

والعلماء سياسيون فاشلون لانهم أصحاب معلومات كلية نظرية وبعيدون عن الواقع الذي لا تدخل حقائقه الجزئية في أقيستهم فلا تأتي تصرفاتهم في مكانها وزمانها وتسوء العلاقة بينهم وبين الناس . فالناس لا يريدون فقط من يعجبهم ذكاؤه وعلمه ولكنهم يريدون حاكماً واقعياً يعرف كيف يسوسهم ، ومع ذلك فانك واجد كثيراً من أهل العلم يترفعون بعلمهم على الناس وينتظرون ان يسعى البشر زرافات ووحداناً اليهم ويقفوا على بابهم ليستفيدوا من بضاعتهم الثمينة النادرة ولكن الناس لا يسعون الا الى القوي صاحب العصبية ولايلتفون الا حوله فيخيب رجاء العلماء المتأنفين ولا ينالون جاهاً ولا مالاً ولا يخسر الناس أنفسهم لخدمتهم (١) .

ج ــ الاقليم : وللاقليم دوره في قيام الدولة او اعاقة قيامها . فالدولة كالنبوات والحضارات من معالم الاقاليم المعتدلة ،وقلما تقوم دولة لسكان المناطق المنحرفة الى الحرارة والبرودة المفرطتين ، ومما يزيد في نشاط البداة وذكائهم وسلامة أجسامهم نقاء هوائهم وجفافه وخفة الغذاء الذي تقدمه لهم بيئتهم وتقنينها عليهم ذلك الغذاء فلا تترهل جسومهم ولا تخمل عقولهم . ويقترب (مونتسكيو) من ابن خلدون في الحديث عن اثر البيئة على تكوين الانسان ونظمه الا ان ابن خلدون يقدم البيئة المعتدلة ولعلها المائلة نسبياً الى الحرارة وأما (مونتسكيو) فيقدم البيئة المائلة الى البرودة ويشيد بفضائلها وآثارها الحميدة على قاطنيها ويكفيها انها تزيد من جديتهم وتضعف من شهواتهم ، وقد كان الحق الى جانب ابن خلدون في العصور القديمة والوسطى التي لا يكلف بمعرفة سواها ، وأما (مونتسكيو) فيمثل طموح سكان المناطق الباردة نسبياً الى الصعود السياسي والحضاري والظفر بمقام تاريخي وقد حققوا ما يريدون في هذا السبيل (٢) .

ــ هرم الدولة المجاورة « عندما تنمو قوة العشيرة المتضامنة بالعصبية تشرع في مزاحمة الدولة المجاورة لها والتي تكون حتى ذلك الوقت في منطقة نفوذها، لتستقل عنها أولاً ولتستولي عليها ثانياً ، فاذا كان الهرم قد استحكم بتلك الدولة وتخرقتها انتقلت العشيرة الصاعدة من الانتصارات

«١» المقدمة ص٩٠٨ ــ ٩١٣ .

«٢» المقدمة من ص ٣٣٠ ــ ٣٣٥ و ص ٣٣٨ ــ ٣٤٤ وأما رأي مونتسكيو في تأثير الاقليم فيظهر في كتابه روح الشرائع الذي ترجمه عادل زعيتر وطبع في القاهرة عام ١٩٥٣ نشر دار المعارف بمصر المجلد الأول من ص ٣٢٩ ــ ٣٤٧ باب صلة القوانين بطبيعة الاقليم .

الصغيرة الى الانتصارات الكبيرة وحققت مبتغاها ، ويتم ذلك غالبـــاً بالتدريج والمطاولة لا بالمناجزة السريعة لأن الدولة الهرمة لا تخلو من الهيبة والعدد والخبرة .

وأما إذا كانت الدولة المجاورة ممسكة برمق من شبابها وقوتها فانها تستطيع أن تجعل العشيرة الزاحفة أقل طموحاً وأكثر تواضعاً وقد تستميلها مع اظهار القوة فتدخلها في جندها وأتباعها وهكذا تنغمس تلك العشيرة في ترف الحضارة المذهب للعصبية قبل تحقيق دولتها الخاصة فتكتفي بالحد الذي وصلت إليه ، ولذلك فالمجال متسع لقيام دول ناقصة السيادة ضمن اطار الدولة الأصلية وقد يستعبد حكام هذه الدول الناقصة رعاياهم وقد يجبون منهم الأموال ولكنهم يعترفون بأن فوق يدهم يداً قاهرة . . . أي تنقصهم هذه العلامة أو تلك من علامات الملك وتلك حـــال عشائر الديلم والترك في أيام العباسيين . (١)

هـ ـ شذوذ يؤيد القاعدة : قد تنشأ هنا أو هناك دول ليس لزعمائها من عصبية في منطقـــة قيامها ، كدولة الادارسة والعبيديين ، فلا يخدع المرء نفسه ويحسب أن أمثال هاتين الدولتين قد استغنت عن العصبية فهي لم تقم الا بها ، اذ وجدت بعض العشائر البربرية ذات الشوكة والعصبية في شمالي افريقيا أن التفافها حول ملك منتسب الى أصل ملكي ديني دعم لقوتها وبذلك قامت دولة الادارسة وبعدها دولة العبيديين في شمالي افريقيا حيث كان الملوك عرباً من بني هاشم والأعوان المشاركون في الفائدة من البربر (٢) .

القوانين الموجهة لتطور الدولة

تركنـــا الدوله في الفقرة السابقة وقـــد انتصبت على قدميها فتية ممتلئة بالحياة ، وتكون اثناء ذلك قد استولت على عاصمة الدولة السابقة وأهم مدنهـــا فتتخذ من تلك العاصمة أو احدى تلك المدن عاصمة لها أو تختط لهـــا عاصمة خاصة تقيم فيها نواتهـــا وتوزع أعوانها على المناصب الحساسة وترسل بعضاً منهم قادة لجيوش الاطراف وولاة على

«١» المقدمة ص ٤٤١ وقبلها ٤٣٩ - ٤٤٠ .

«٢» المقدمة ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

المناطق المدخلة في الطاعة . وابتداء من هذه المرحلة تبرز قوانين جديدة تتحكم بحياة الدولة ذات طبيعة مختلفة عن طبيعة قانون العصبية الذي رعى قيامها . ونستطيع ان نتبين هذه القوانين من معالجة النواحي التالية :

١ – الملك والاعوان : من طبيعة الملك الميل الى الانفراد بالحكم والمجد . وقد كانت القيادة جماعية بين أقطاب العصبية في مرحلة الكفاح التأسيسي والرئيس واحد منهم يشاركهم في الرأي والغنائم والامجاد ، فما ان يتثبت وجود الدولة ويقيم رئيسها في المدينة وينقلب الى ملك حتى تتحرك فيه الطبيعة الملكية فيتبرم من جرأة اعوانه عليه ويضيق ذرعاً بدنو مكانتهم من مكانته وتدخلهم في شتى الشؤون والتطاول عليه بالكلام والتصرف وعدم إظهار الخضوع له فيعمل على ترويضهم والانة عريكتهم فمن جاء طوعاً أغدق عليه العطايا وأبقاه في عداد الحاشية الخاضعة ومن ابى الانصياع وثار لمقامه السابق يؤتى به أو برأسه كرهاً ، وهكذا تنقضي الفترة الاولى من حياة الدولة الجديدة في صراع بين الملك وأعوانه السابقين من أقاربه البارزين وموالي عشيرته الاصليين ، وهو إذ يتخلص منهم يحل محلهم أعواناً جدداً من غير أهل عصبيته اقرب الى الخدم المأجورين منهم الى الانصار والموالي يرضون غرور الملك ولكنهم يكلفونه غالياً مع ضعف قدرتهم على التضحية في سبيله . وهكذا ينقلب نظام الحكم فيغدوا حكماً فردياً بعد أن كان ضرباً من ضروب حكم الخاصة (١)

٢ – الدولة والحضارة : تحضرت العشيرة الظافرة بانتقالها الى سكنى المدن وكثر المال في ايديها فاستيقظ فيها ميل الانسان الطبيعي الى الترف وتحسين الحياة فتأخذ بالتفتح على ملاذ الحياة وينمو بالتدريج طلبها لطيب الطعام والشراب وزاهي الكساء وجميل العمران وترق طباعها فتطلب المتعة بالعلوم والآداب او تتباهى بها ، وبذلك تشجع الانتاج الحضاري وتنشط الصنائع والتجارة والثقافة ومختلف الفنون ، ويكون الملوك عادة من السباقين الى حب الترف والمغالاة فيه فدورهم في تنشيط الحضارة كبير ما دام اكثر المال في ايديهم وما داموا قدوة رعاياهم .

وهذه الحضارة نعم من ناحية ولكنها جحيم من نواح كثيرة لأنها تؤدي الى اضعاف الهمم واعتياد الراحة وتزيد الجشع الى المال والشره والانكباب على الشهوات ويرافقها الفسق والاسراف وذهاب العصبية والمروءة والحمية ، وهي اذا زادت من هيبة الدولة في عيون المنافسين فانها من المزالق المؤدية الى

«١» المقدمة ص ٤٧٩ – ٤٨٠ و ص ٥٠٧ – ٥٠٨ ص ٥٠٨ – ٥٠٠ .

نهايتها(١) .

٣ – الدولة والمال» تزداد حاجة الدولة الى المال باطراد ، فهي في أول أمرها قانعة بما حصل لها من الغنائم والموارد المشروعة لأن انفاقها قليل ولأن ما حصلت عليه كثير بالنسبة الى دخلها المعهود أثناء حياتها البدوية ولكن اقبالها على الترف والأبهة واحلالها الأعوان المرتزقة محل الأعوان الأصلاء يفجران حاجتها الى المال فتحتال للحصول عليه بزيادة الضرائب والرسوم وفرض المكوس على المبيعات وقد تصادر بعض أموال الرعية والكبراء بأعذار شتى وربما سخرت الناس مصادرة بذلك عملهم الذي هو منشأ كسبهم وسبب رزقهم وقد تصغي الى نصائح بعض المنتفعين من مشاركتهم لها فتدخل السوق شارية بائعة مخلة بتوازنه لأنها قد تفرض السعر في الحالتين متجنبة الخسارة على حساب المتعاملين معها وعلى حساب المستهلكين وقد تستخدم الترغيب والترهيب لتفرض على الناس التعامل معها(٢).

٤ – الدولة والأجهزة ، تبدأ الدولة بسيطة يتولى كبراؤها شؤونها بشكل عام مختلط من غير تقسيم العمل فيا بينهم ولكنها اذ تستقر وتتسع أعمالها تنشىء الأجهزة المتعددة المختصة بادارة الشؤون المتنوعة وقد تستفيد عند انشاء مؤسساتها من تجارب الدول السابقة عليها كما تستفيد من هذه التجارب عند انشاء حضارتها ، فتظهر الدواوين والحجاب والقضاة وقواد الشرطة والوزراء وينحصر بعض المناصب في الحاضرة وينشأ بعضها الآخر في الحاضرة والاطراف. ويحتاج القائمون بالأمر الى أصحاب الكفاءات لادارة الأجهزة المختلفة وقلما يعثرون على المتصف بالكفاءة والأمانة معاً فان شاؤوا أن يقنعوا باحدى الصفتين ففضيلة الكفاءة مقدمة على فضيلة الأمانة في هذا الميدان ولا خير لهم في أمين بليد(٣) .

وبعد هذا التحليل نستطيع أن نستخلص أهم القوانين التي توجه سير الدولة وهي » .

١ – قانون التخلص من الأعوان الأصلين . أو قانون الميل نحو الحكم الفردي .

٢ – قانون الانتقال من البداوة الى الحضارة .

«١» المقدمة ص ٤٨١ – ٤٨٥ و ص ٤٨٨ – ٤٩٢ – ٤٩٣ .

«٢» المقدمة ص ٦٦٧ – ٦٦٩ و ص ٦٧٠ – ٦٧١ و ص ٦٧١ – ٦٧٤ و ص ٦٧٥ – ٦٧٨ .

«٣» المقدمة ص ٦٠١ – ٦٣٣ و ص ٦٣٣ – ٦٣٤ و ص ٦٣٤ – ٦٥٢ و ص ٥٦٤ – ٥٧٨ و ص ٦٨٧ – ٦٨٩.

٣ ـ قانون الميل الى الترف .

٤ ـ قانون الحاجة المتزايدة الى المال.

٥ ـ قانون الانتقال من البساطة الى التعقيد .

نهاية الدولة

تفعل القوانين السابقة فعلها في بنية الدولة فتتراكم الرواسب السمية في جسمها فتضعف قوتها ويقل مالها بالقياس الى حاجاتها المتزايدة فتشيخ وترتتق للزوال . تضعف قوتها لأن العصبية قد خمدت جذوتها بعد طرد نواة العصبية واذلال ما تبقى منها والاعتماد على المأجورين وقلما يؤجر الانسان نفسه على الموت فتقل التضحية ولأن الحياة الحضرية تذهب بشجاعة الانسان وفروسيته وتجعله متكلا على الأسوار وجند السلطان في حمايته فكأنه قد غدا من جملة (العيال والنسوان) .

وتتخبط ماليأ لأن الاسراف يدعوها الى فرض الضرائب الثقيلة والمصادرة والنزول الى السوق لجني الربح كما رأينا فتتقف حركة الأسواق ويخبىء الناس أموالهم أو يهربون بها وتغلق المحلات ويتشتت أصحاب الصناعات ويحل الضمور محل الازدهار فتقل موارد الدولة وان ارتفعت نسبة ضرائبها وتعجز عن تلبية مطالب جندها المأجورين الذين اعتادوا على الرفاه والأعطيات الكثيرة ، فيكثر الشغب والفتن والنهب فيتقلص السكان بعد زيادة ويكثر الخراب ويقل الانشاء وتجف عروق الشجرة وتنتظر فأس الحطب. ويعلن ابن خلدون أن الدولة تعيش عبر ثلاثة أجيال من الحكام، وعمر الجيل أربعون سنة فحياة الدولة الطبيعية تمتد الى مائة وعشرين عاماً وهو العمر الطبيعي للفرد الانساني ذاته كما يقرر أهل الفلك والطب ويمكن اختصارها الى مائة عام ، غير أنني لاحظت في أماكن أخرى من المقدمة أن أجيال الدولة أربعة في الواقع واذا كان ابن خلدون يهمل الجيل الرابع أحياناً فلأنه جيل الهدم الذي تنتهي معه الدولة ويؤكد ذلك أن الدولة عنده بداية" ونهاية" ثمرة صعود العصبية واضمحلالها وكل عصبية تعيش أربعة أجيال من الزعماء سواء وصلت الى مرتبة الدولة أم وقفت عند حدود الرئاسة أو البيت الكريم وهذه الأجيال هي :

١ ـ الجيل الباني المترع بالعصبية والشجاعة والنشاط والتقشف .

٢ ـ الجيل المباشر له الذي ربي على يد الأول فاحتفظ ببعض مزاياه وفقد بعضها الآخر بسبب التحضر .

٣ ـ الجيل المقلد الذي ولد وربي في النعيم وحسب أن الأمور تسلم له ولأهله أزمتها بلا مشقة فينشغل بالملذات .

٤ – الجيل الهادم الضعيف ضعفاً مطلقاً المتفسخ بفعل تراكم عوامل الانحلال في شخصيته وبه تزول الدولة .

وعندما تؤذن الدولة بالانهيار قد يقوم ملك قوي متحمس بمحاولة ارجاع شبابها وتجنيبها الهاوية التي تنحدر اليها ولكنه يفشل لأن فعل القوانين الاجتماعية الحتمية أقوى من فعل الأفراد وان العصبية هي التي تنشىء قادتها وليس القادة هم الذين ينشئون العصبية .

وخلال عمر الدولة تكون سياسة ملوكها قد مرت بخمسة أطوار هي :

١ – طور الظفر بالبغية حيث تكون الأمور شركة الملك بين وبين أقطاب عصبيته .

٢ – طور الاستبداد والتفرد بالحكم وتصفية الشركاء الأولين .

٣ – طور التفرغ للبناء والعمران والتنظيم والتفاخر بالمنشآت .

٤ – طور التقليد حيث يقلد الملوك أسلافهم وتكون مقلدتهم دونهم .

٥ – طور الموادعة والمسالمة أو الضعف والعجز عن مدافعة المنشق والمنافس وهنا تؤذن الدولة بالزوال .

ومن علامات اقتراب نهاية الدولة تجزؤها واستقلال أصحاب الولايات بولاياتهم وتبدأ بالانفصال ولايات الأطراف حيث تكون قبضة الدولة أضعف منها في بقية المناطق ، وتجهز على الدولة الهرمة عادة دولة جديدة ما تزال في ميعة الفتوة وعنفوان العصبية واذا لم توجد هذه الدولة الجديدة فقد تعيش الدولة المتداعية أكثر من عمرها الطبيعي لتأخر وصول من ينفذ حكم القدر فيها وعلى كل حال فان مآلها الى السقوط لا محالة كالثمرة المنخورة التي تنتظر النأمة حتى تهوي .

وكلما كانت الجماعة المؤسسة المتحمسة عند قيام الدولة كبيرة العدد ساعد ذلك على اتساع رقعة الدولة وطول عمرها نسبياً كدولة عرب مضر التي قامت مع الاسلام فعاشت حتى نهاية سلطان العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس وامتدت رقعتها في أوجها حتى فاقت الدول التي سبقتها والتي خلفتها لأن نواة تأسيسها كانت عظيمة(١) .

«١» المقدمة ص ٤٣٥ – ٤٣٧ و ص ٤٧٢ – ٤٧٤ و ص ٤٧٤ – ٤٧٦ و ص ٤٨٢ – ٤٨٥ و ص ٤٨٥ – ٤٨٨ و ص ٤٩٢ – ٤٩٣ و ص ٤٩٣ – ٤٩٦ وص ٤٩٦ – ٥٠٦ و ص ٥١٠ – ٥١١ و ص ٦٧٥ – ٦٧٨ و ص ٦٧٩ – ٦٨٦ و ص ٦٨٧ – ٦٨٩ و ص ٦٨٩ – ٦٩٢ و ص ٦٩٢ – ٦٩٣ و ص ٦٩٣ – ٦٩٦ و ص ٦٩٨ – ٧٠١ و ص ٧٠٢ – ٧٠٣ و ص ٧٠٩ – ٧١٠ .

فلسفة الموضوع

نحاول في هذه الفقرة الأخيرة أن نفهم معنى الصور الخلدونية للدولة والحضارة عن طريق معرفة مدى ارتباطها بالمفاهيم الأساسية للتفكير المعاصر المتعلق بالشؤون الانسانية، وقد تبين لنا منذ الفقرة الأولى أن صاحبنا لا يرى في الدين شرطاً ضرورياً ولا كافياً لقيام الدولة واستمرارها وأن أعتبر توفره الدولة خيراً فاويظهر أنه يعد الدولة الدينية مثلا أعلى يحتاج إلى نفوس تفوق النفوس الانسانية الضعيفة أمام مصالحها وشهواتها، وهذا الضعف الدنيوي المتأصل في الطبيعة البشرية يجعل غالبية الناس عاجزين عن البقاء مدة طويلة في المستوى الديني الحقيقي الرفيع ولذلك لم تدم الخلافة الدينية النقية للمسلمين الا زمن الخلفاء الراشدين بسبب وجود الصحابة المتتلمذين مباشرة على يد الرسول عليه الصلاة والسلام، وبانتهاء العصر الراشدي شارك الملك الخلافة ثم استأثر من دونها بالأمر ولم يبق منها إلا الشكل الشاحب. (١)

فلنبحث الآن علاقة الصورة الخلدونية ببعض المفاهيم الأخرى.

١ — الدولة والأمة: ابن خلدون لا يجهل الأمم ويذكر بعضها كأمة العرب والفرس والترك والمغل والتتر والروم وأمم الفرنجة ويرى أن الأمة تتميز بالأصل المشترك كخاصة رئيسية ثم بالأرض والعادات والشعار واللسان وهو يعتقد أن الأمة لا تنفذ طاقتها بزوال دولة واحدة من دولها، فاذا ما اضمحلت العصبية القائمة بالدولة وبقيت في الأمة عصبيات أخرى ما زالت في حال البداوة تنهض احدى هذه العصبيات الباقية بالأمر وتؤسس دولة جديدة وما تكاد تدع المشعل حتى تتسلمه أخرى الى أن تضمحل عصبيات تلك الأمة جميعاً وتغدو من سكان المدن المستضعفين أو تبقى لها عصبيات صغيرة ضعيفة تعجز عن القيام بالأمر. وقد عدد للأمة العربية عدداً من الدول كدولة عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة والأذواء من حمير وأخيراً دولة مضر التي ابتدأت بظهور الاسلام وانقضت بانقضاء سلطان العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس ويستخدم ابن خلدون كلمة الشعب بمعنى الجزء الكبير من الأمة المتجمع على النسب العشائري الواحد كعاد وثمود ومضر. وكأن الأمة في نظره هي الخلفية والعشيرة ذات العصبية المتوثبة هي الصيغة المنتظمة أو بعبارة أرسطية كأن الأمة هي المادة والعشيرة هي الصورة فالعشيرة هي جرثوم الفالية والرشيم النامي في هيولى الأمة ليبلغ أشده سياسياً وحضارياً ثم

(١) المقدمة ص ٥٣٨ — ٥٤٨.

يذوي ويهوى نحو أجله المحتوم . وحين يتكلم ابن خلدون عن العلاقات الداخلية في الأمة فانه يسمي الدولة باسم العشيرة التي قامت بها وحين يقارن بين الأمم فانه يطلق على دولة كل عشيرة من عشائر الأمة اسم الأمة ذاتها فالدولة التي نشأت بظهور الاسلام هي تارة عنده دولة مضر وأخرى دولة العرب وهي على كل حال احدى دولهم . (١)

وهنا تعترضنا مشكلة احتدم حولها نقاش لا يخلو من الانفعال وهي مشكلة معنى كلمة العرب عند ابن خلدون وهل يقصد بهذه الكلمة الأمة العربية بكاملها أم يقصد بدوها وبشكل خاص عندما ينعت العرب بنعوت غير حضارية كقوله ان المناطق التي يحتلونها يسرع إليها الخراب وأنهم أبعد الناس عن حسن السياسة وعن قبول الحكم والصنائع والعلوم . . .

أعتقد « طه حسين » (٢) مثلا أن ابن خلدون يقصد الأمة العربية وعاتبه على ذلك وذكره بفضائل العرب وعمرانهم وحسن معاملتهم للشعوب . وقد حاول الشعوبيون أن يستفيدوا من ابن خلدون كما نقم عليه بعض القوميين. واعتقد ساطع الحصرى (٣) في المقابل أن المقصودين هم أعراب العرب البداة وليس العرب كأمة ودعم اعتقاده بنصوص من مقدمة ابن خلدون وتاريخه العام وتاريخه الشخصي وأكد أن « دوسلان » المترجم الفرنسي للمقدمة عرف هذه الحقيقة وتابعه في هذا الاعتقاد « علي عبد الواحد وافي »(٤) وأكد أن « جودت » المترجم التركي قد عرف هذه الحقيقة أيضاً .

وأرى أولا أن مرور ستة قرون كاف لتبدئة انفعالاتنا نحو آراء ابن خلدون وأرى ثانياً أن صاحبنا قد استخدم الكلمة بالمعنيين كليهما ومن شاء أن يعرف أيها قصد ابن خلدون في صفحة معينة من صفحات المقدمة فعليه بمراعاة الموضع وسياق الكلام اذا يتناوب هذان المعنيان لكلمة العرب بحسب النقطة

(١) جميع الأماكن التي تبحث في العصبية والتي أشرنا سابقاً الى صفحاتها من المقدمة وأما قضية الأمة العربية فتراجع في المقدمة بشكل خاص انظر ص ٤٥٣ - ٤٥٨ و ص ٨٣٥ - ٨٣٦ و ص ٨٥٦ - ٨٥٧ و ص ٨٥٧ - ٨٥٨ و ص ٩٢٩ - ٩٣٠ و ص ١٢٧٠ - ١٢٧٤ و ص ٤٤٨ - ٤٥٠ .

(٢) كتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تأليف طه حسين ترجمة من الفرنسية محمد عبد الله عنان الطبعة الأولى ١٩٢٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر - م الاعتماد و ص ١٠١ - ١٠٤.

(٣) دراسات عن مقدمة ابن خلدون - تأليف ساطع الحصري - نشر دار الكشاف عام ١٩٤٣ من ص ١٠٦ - ١٢٤ .

(٤) كتاب عبد الرحمن بن خلدون من سلسلة أعلام العرب تأليف علي عبد الواحد وافي .

المبحوثة ، فحين يتكلم ابن خلدون عن العمران البدوي أو الشكل البدوي للمجتمع ويذكر أن العرب أشد الناس بداوة وأبعدهم عن انشاء الدول والحضارات يكون قصده الأعراب وحين يقارن بين دولة العرب ودولة امة اخرى كالفرس مثلا فان قصده امة العرب في مرحلة من مراحل تاريخها ، ونسوق على سبيل المثال محاولة هرون الرشيد هدم ايوان كسرى واستشارته ليحيى البرمكي وهو في محبسه ونهي يحيى له — حسب القصة التي اوردها ابن خلدون — لئلا يعجز عن هدمه ويقول الناس (ان امير المؤمنين وملك العرب قد عجز عن هدم بناء شيده ملك الفرس) وهذا القول صريح في انه يقصد امة العرب لا الأعراب .

وخلاصة رأي ابن خلدون في العرب انهم امة كبيرة تتصف اصولها البدوية بشدة البداوة وتتجلى فيها بشكل فائق كل فضائل البداوة كالكرم والشجاعة وسلامة الفطرة والمروءة والأنفة وكل رذائلها كالبعد عن التنظيم واتباع العصبيات الضيقة الممزقة وعدم المبالاة بالانتاج الحضاري ، ولذلك فان اخراجها من حال البداوة الى حال الدولة والحضارة صعب، وهي اذا خرجت الى الحال الجديد احتاجت الى الزمن المديد كي تزول آثار بداوتها فاذا اسعفها الزمن بطول البقاء بعيداً عن البداوة واندمجت في الحضارة اندماجاً تاماً كعرب اليمن واما اذا لم يمهل الأجل دولتها وحضارتها وزالتا قبل مضي الوقت الكافي النضج فان ما تخلفه من انتاج حضاري خاص بها يبدو لعين المقارن دون ما خلفته بعض الامم الاخرى كما جرى للعرب المضرية . فليس التقدم والتأخر خاصتين جوهريتين للأمة بل صفتان تابعتان لعوامل معينة يتغيران بتغيرها .

واذا كنا ابناء هذه الايام نمدح بالحضارة ونذم بالتأخر فان ابن خلدون لم يكن كذلك لأنه يرى في البداوة المتأخرة مستقر الفضائل الأصيلة ويرى في الحضارة انحرافاً عن الفطرة البريئة يجعلها بداية النهاية ، وحين يصف جماعة بأنها اقرب الى خلال التوحش فان قصده لايكون هجاءها اذا لم يكن مدحها والرجل على كل حال بعيد عن منطق المدح والهجاء في ابحاثه العلمية(١) . وان اعتبار العشيرة هي العامل الفعال في انشاء الدولة دون الأمة ليقرب بين ابن خلدون والمتنبي ويبدو ان القرون الاربعة التي تفصل بينهما قد اطرد فيها نمو الدول المحلية العشائرية على حساب الدولة المركزية التي عرفها الشرق خلال العهود الاسلامية الاولى.

والفرق بينهما ان ابا الطيب يمنح شخصية القائد اهمية عظيمة في قيام الدول واستمرارها

---

(١) المقدمة ص ٤٣٢ - ٤٣٣ و ص ٤١٨ - ٤٢١ وص ٣٣٨ - ٣٤٤ وص ٤٣٧-٤٣٩

بينما يمنح ابن خلدون الاهمية العظمى لقوانين المجتمع الحتمية السريان في مرحلة صعود الدولة او هبوطها ويظل اثر الفرد الذي يعاكس تيار القوانين عارضاً سرعان مايزول (١) .

٢ ـ الطبقة : يذكر ابن خلدون بعض الطبقات الاجتماعية في مقدمته كطبقة الحكام الذين يعيشون على الضرائب والرسوم وطبقة المثقفين واصحاب الكفاءات الذين يتناولون رواتبهم واعطياتهم من اولئك ويشبههم في ذلك الجنود المأجورون وسائر افراد الحاشية ، وطبقة التجار التي لاينجح من افرادها الا من كان من ذوي القدرة على المشادة والمطالبة أو من قوى نفسه بتقريب او شريك او حلم من الحكام او من اصحاب الجاه والنفوذ في الدوائر الحاكمة ، وطبقة الحرفيين التي تزدهر اعمالها في مرحلة ازدهار الحضارة وتضمر بضمورها ، وطبقة الفلاحين التي تقع عليها أفدح الاعباء وتلقى على كاهلها المغارم واكثر الضرائب حتى ينسبها صاحبنا الى الضعف ويقرن اسلوب حياتها بالعجز عن مقاومة الظلم والاستعباد (هذا اذا لم تكن من البدو ذوي العصبيـــة القوية) ، ولايخلو المحيط الخلدوني من الرقيق ولكنه كما يبدو رقيق خدمة ولذة وجندية اكثر منه رقيق عمل يقوم الانتاج الاقتصادي على كاهــله كالرقيق الاسبارطي والروماني . ويذكر ابن خلدون الاقطاع وقد اقطعـــه الحكام بعض القرى احياناً ولكنه اقطاع غير مستقر ينتزعــه الحاكم الكبير اذا شاء او تنتزعـــه الدولة الجديدة من اعوان الدولة السابقة وتعيد توزيعه على اتباعها هي فمنطقتنا حتى الايام الخلدونية لم تعرف الاستقرار الاقطاعي الذي كانت اوربا قد وصلت اليه وكان كثير من الاقطاعيين آنذاك ملاكا قد يكونون عابرين يتناولون حصة من المحصول ، وكانت هـــذه الحصة تتراوح قلة وكثرة بحسب القدرة على التادي والتطاول .

ويبدو ان الملكية الخاصة المحدودة البعيدة عن التطاول لم تكن مربحة لان ابن خلدون يذكر ان ملكية العقارات والاطيان ليست بالوسيلة الكافية للعيش بل هي مجرد وسيلة مساعدة ولايعتمد عليها الا من قعدت به همته عن الزراعة او الصناعة او التجـــارة او الامارة او من خشي موته فأحب تأمـــين اولاده بالقليل ، ولاينسى ابن خلدون الخوف من عين السلطان على كل من نمت ثروته وازداد مردود وسيلته في كسب الرزق .

في المجتمع الخـــلدوني ملاكون متفاوتو القرب من الاقطاع ورأسماليون هم كبار التجار وبرجوازيون صغار هم الحرفيون وصغار

(١) المحصول الفكري للمتنبي تأليف سهيل عثمان ومنير كنعان نشر دار الارشاد ـ بيروت الطبعة الاول ١٩٦٩ ، الباب الرابع في السياسة ص ٢٢٧ ـ ٢٧٦ .

التجار وعمال يدويون وفلاحون وسادة وعبيد مايغري الانسان بالسؤال عن الطبقة المسيطرة المستفيدة الاولى من الدولة كما صورها ابن خلدون والجواب أنه لاتوجد طبقة اقتصادية معينة ترتبط مصلحتها ارتباطاً محكماً بتلك الدولة ، لاتوجد طبقة مستقرة واضحة المعالم تجد في الدولة الخلدونية ضمانة لعلاقات الانتاج التي يهمها الاحتفاظ بها . لقد عاش الشرق الخلدوني في فوضى طبقية اذا ما فهمنا الطبقات بالمعنى الاقتصادي ، واذا ما أبينا إلا الحديث عن ديناميكية الطبقة المسيطرة فان الطبقية السياسية أو طبقية الحاكم أولى بالاعتبار من الطبقية الاقتصادية ، ولربما صعب على الأوربي المنحدر من مجتمعات المدن الراسخة أن يصدق هذه الحقيقة ، ففي مجتمع المدينة العريق تتضح معالم الطبقات الاقتصادية وحدود مصالحها وتنشط لجعل الحكومات أداة مسخرة لها ، وأما في المجتمعات البدوية أو المهددة دائماً بغزو البادية والخضوع لها فان البنى الطبقية ما ان تقوم حتى تقع وما تكاد تشاد حتى تنهار ويبقى الزمام في يد الظافرين بالحكم بغض النظر عن هويتهم الطبقية وهم غالباً مقبلون من أغوار سابقة على الطبقات بالمعنى المعتاد ، ان من يتأمل الواقع الاجتماعي الذي صوره ابن خلدون بأمانة يشهد كيف يقيم الحكم الطبقات لاكيف تقيم الطبقات الحكومات وكيف يغير الحكم معالم الحياة الاقتصادية لاكيف يغير الاقتصاد واجهته السياسية ، وعندما عد الامارة — على مضض منه — وسيلة من وسائل الكسب كان مدركاً للواقع الذي يتناوله مهما كان هذا الواقع مخالفاً لتطلعاته . ويعرف كيف يكون الانقسام الرئيسي في المجتمع الى حاكم ومحكوم لا الانقسام الى صناع وتجار وفلاحين فهم جميعاً رعية الحاكم الذي ينال النصيب الأوفى من فضل القيمة الاجتماعي بوسائله العادلة والعنيفة ، وهو ان سمي ملكاً أو سلطاناً أو شيخاً أو أميراً ... ينتسب الى طبقة خاصة يمثل مصلحتها قبل كل مصلحة أخرى وهي « طبقة الحاكم » . وينتمي أعوانه وحاشيته الى « الطبقة المستفيدة من الحاكم » وينتمي خصومه الى « الطبقة المزاحمة للحاكم » المتطلعة الى الحظوة بما يحظى به من امتيازات «١».

وليس هذا من صنع ابن خلدون أو من

«١» المقدمة من ص ٦٦٧ — ٦٧٩ و ص ٨٢٩ — ٨٣١ وص ٨٣٢ — ٨٣٤ و ص ٨٦٩ — ٨٧٠ و ص ٨٧١ — ٨٧٥ وص ٨٩٨ — ٩٠٠ و ص ٩٠٧ — ٩٠٨ وص ٩٠٨— ٩١٣ وفي كتاب التعريف بابن خلدون الذي كتبه ابن خلدون نفسه المطبعة الخيرية ص ١٠٤ حديث عن اقطاعه الخاص .

صنعي بل هو تحليل الواقع الذي تدل عليه الصورة الخلدونية للسياسة والمجتمع.

١ – نظام الحكم : انه لنظام الحكم المطلق الذي لايعرف الفصل بين سلطة تنفيذية وتشريعية وقضائية لأنها جميعاً بيد الحاكم او من يعينه الحاكم في هذا المنصب أو ذاك وقد لاتخلو الدولة الخلدونية من قوانين تنظم المعاملات والأحوال الشخصية مستمدة من المذاهب الفقهية ومن مجرى العرف والعادة ومن الضرورات الاجتماعية ومن رغبات الحاكم وآراء أولي الرأي التي يتبناها ،ولكن ماتفتقر اليه هذه الدولة بشكل صارخ هو المؤسسات الدستورية التي عرفت منذ أيام يونان تلك المؤسسات ذات المهمات الواضحة والأسلوب المحدد في اختيار اعضائها وذات الصلاحيات التي اذا ماتطاول الحاكم عليها فكأنه قام بانقلاب ، لاتوجد مجالس منتخبة من مجموع الشعب ولا حتى من مجموع السكان الأحرار وحدهم ولا توجد هيئة يحق لها رسمياً ان تناقش الحاكم الحساب وترسم له الطريق وتحدد الموارد والنفقات وتنظم الضرائب .

واذا كانت هذه الصيغة للدولة قد شهدت ناصحين صريحين مع الحاكم تصل نصيحتهم أحياناً الى مرتبة التقريع واذا كانت قد شهدت ثورات على بعض الحكام الذين تجاوزوا كل حد معقول في معاملة الرعايا الى جانب الحكام الذين ثار بهم منافسوهم وعرفت الحاكم الذي يطأطىء رأسه للفقيه الناصح ويقبل يد العابد الورع ويجيز الشاعر ويعين المحتاج ويقدر الحجة ويستعين بذوي السداد ويقود الحملات لحماية البلاد وقد يضحي بنفسه وماله وراحته وقد يعفو عمن تمردوقد يضرب على يد الظلوم وان كان وجيهاً أومقربا ... ولكن هذه الظواهر الايجابية لاتغير شيئاً من طبيعة النظام غير القائم على المؤسسات الدستورية الانتخابية ذات الصلاحيات الواضحة ، انه يظل نظاماً معتمداً على خلق الحاكم وتربيته وتقواه وعقله وتقديره للأمور ومن الجدير بالملاحظة أن الحاكم يصبح فرداً في مرحلة استقرار الدولة وانتقالها الى المدينة وأما في المرحلة التمهيدية فان الحاكم مجموعة كاملة من زعماء العشيرة الصاعدةورئيسهم الأعلى واحد منهم متقدم عليهم ويكون حكمهم مطلقاً على شرط أن يحترم ماجرت به العادات وهنا نجد ضرباً من حكم الخاصة اعتبره بعض الباحثين ضرباً من الارستقراطية في مقابل الفردية الاوتوقراطية التي تحصل بعد أن يستأثر الملوك بكل الامر ويجمعوا في يدهم كل السلطة التي كانت لهيئة كبار العشيرة (١) .

٤ – جدلية مأساوية : من الواضح أن الدولةوالحضارةاللتين يعرضهما علينا الاستقراء

---

(١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٩٦ تأليف طه حسين .

الخلدوني تقومان على عناصر متبادلة التأثير ومتفاعلة متصارعة بل يحمل كل منها بذور نقيضه وهذا يعني أنها من طبيعة جدلية ، ولكن الجدل الخلدوني دوراني وليس زاحفاً الى الامام او صاعداً باستمرار ، انه عجلة تعلو لتهوي وكثيب يتكون لينفثت . فصعود العشيرة يؤدي الى استيلائها واستقرارها فانحلال عصبيتها واضمحلالها .

وحينما تنتقل السلطة والحضارة من يد الى يد لا يجد ابن خلدون بناء بدأ به السابقون وسوف ينهيه اللاحقون ، بل ان كل حضارة تصنع مثلما صنع اسلافها وتكادتهم باهتماماتهم ذاتها وقد تأخذ عنهم وهي تفعل ذلك وقد تكون انجازاتها اقل او أكثر من انجازاتهم الا أنها لا تخطو خطوة جديدة على طريق مؤد الى هدف منشود للانسانية كالتفتح الاقصى للوعي عند هيغل أو المجتمع اللاطبقي عند ماركس وأنغلز أو مجتمع الأخلاق الغيرية عند هربرت سبنسر. وهو اذا كان قد سبق أنغلز (١) في تأكيده أن الدولة ربح من جهة وخسارة من جهة أخرى وكذلك الحضارة الا أنه يختلف عن أنغلز في أنه علل الامر بطبيعة الانسان لا بظروف طارئة على الانسان ويمكنه التخلص منها كالطبقات ونحوها ولذلك ظل البشر عنده اسيري دولاب النمو والتلاشي وليست حضاراتهم مراحل على طريق الهدف وانما فقاعات تتكون وتنطفىء حتى يأذن الله بانقضاء الكون ، ان ابن خلدون صوفي حقيقي على الرغم من خوضه غمار الدنيا ومزاحمته عليها بين المتزاحمين ، ان خلفيته الصوفية تتجلى عندما يصفي المرء حساب مذهبه فيجده في نهاية الامر من أعداء « الدنيا » او من الموحين بعداوتها فكل شيء فيها حتى الدول والحضارات هباء وقبض الريح وان هذا الهيكل الاجوف للدنيا معروف في تاريخ التصوف والزهد الاسلاميين وليس غريباً عن تاريخ اي تصرف وزهد آخرين .

وقد صنعه بعض المستشرقين من امثال كرامر وفريرو متشائماً ورد عليهم طه حسين (٢) بأن الرجل كان مقبلا على الحياة وليس في حياته مايدل على التشاؤم ، وأرجو ألا أكون من هواة الحلول الوسطى اذا قلت في هذه المشكلة ايضاً بأن الحق مع الطرفين فالصورة التي يعرضها ابن خلدون للانسان مأساوية مثلما لاحظ أولئك المستشرقون ولكن

---

(١) كتاب اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة تأليف فريدريك أنغلز ترجمة اديب يوسف من منشورات دار الفارابي ودار الكتاب العربي عام ١٩٥٨ وبشكل خاص الفصل الاخير المتعلق بالبربرية والحضارة ص ٢٤٩ - ٢٨١ .

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٢٣ تأليف طه حسين .

لا يبدو على ابن خلدون أنه تشاءم منها او شعر باليأس من مصير الانسان او ترك العمل والسعي فطه حسين ايضاً على حق ، والسبب في هذه المأساوية المتفائلة يكمن – كما أرى – في بقية الصورة الاسلامية للكون ، فوراء دار الفناء دار البقاء ، واذا لم تكن الدنيا في كل فترة من فتراتها مرحلة لدنيا اخرى افضل منها فهي خطوة على طريق الآخرة التي هي افضل منها بالنسبة لعاملي الصالحات واذا كانت مسالك التغيير النوعي مسدودة امام الانسان في هذه الحياة التي لا تكتمل فيها فرحة ولا يتم فيها تقدم فان طريقاً آخر يظل مفتوحاً أمامه وهو طريق الحياة الاخرى ومثل هذا الفكر لا يمكن أن نعده تشاؤمياً بالمعنى المطلق وان كان قليل الرجاء في عالم الانسان هذا .

ان دنيا الانسان كما يصورها ابن خلدون دنيا نقص وخيبة امل يضيع بين التخلف البدوي والازدهار العابر المنزلق الى الانحلال دنيا ربيعها قصير وايامها الوديعة لاتدوم الا أياماً معدودات ، العدوان فيها هو الغالب فاما عدوان الحيوان اذا ما انعزل الانسان عن الانسان واما عدوان الاقوياء اذا ما اجتمع الناس ولم تكن لهم دولة واما عدوان الحكومات واستغلالها للرعايا اذا ما قامت وهي بعد حاصلة على حكمها بقوة العصبية ومجردة منها على يد عصبية اقوى منها ، صراع المطامع لاينتهي فأين يعيش الودعاء غير الطامعين ، انهم ان وجدوا فلن يكونوا الا محل الاستغلال وان لهم أن يحمدوا حسن حظهم اذا ما قنع الحاكم بالاستيلاء على حصة معقولة ثابتة غير نامية من انتاجهم ينفقها هو في ما يراه لا في ما يرونه ويغدو الكريم الظافر ويغدون الفقراء الأذلاء . انها مأساة الشرق يعرضها ابنه الشرعي باعصاب هادئة ، وان افظع ما في المأساة هو انقلابها الى امر عادي مقبول وكأنه القدر الذي لايمكن تغييره فلا معنى للتهيج منه والثورة عليه كما انه لامعنى للتهيج من الموت والثورة عليه .

غطرسة القوة
نظرة على المشهد السياسي الأمريكي

صفوان قدسي

هل تملك الولايات المتحدة الامريكية ان تكون شيئاً آخر غير الولايات المتحدة التي يعرفها عالمنا المعاصر ؟

هذا السؤال تطرحه المحاولات المبذولة لفهم السياسة الامريكية وإماطة اللثام عن المحركات الاساسية لهذه السياسة .

وفي الحقيقة فان الولايات المتحدة ليست ذلك اللغز المحير الذي يستعصي على أية

(*) استعرت عنوان هذه الدراسة من كتاب وليام فولبرايت « غطرسة القوة » الذي صدر عام ١٩٦٦ . والدراسة ليس لها أية علاقة بالكتاب المذكور .

محاولة مبذولة لفك رموزه والكشف عن اسراره . وتستطيع النظرة المدققة ان تضع يدها على حقيقة هذا الكيان السياسي والاقتصادي الذي يحاول ان يعيد العالم مرة اخرى الى عصر الامبراطورية الرومانية حين كانت « روما » تحكم العالم وتتحكم في مصيره ، والذي يحاول « أمركة » العالم بحسب الاصطلاح السياسي المعروف .

بل ان الولايات المتحـــدة ، بما تحاول ان تقوم به على صعيد السياسة العالمية ، ترسم لنفسها صورة واضحة المعالم ، بغير ألغاز أو أسرار ، وتحدد لنفسها مكاناً على خارطة العالم لا تخطئه العين المتفحصة .

واذا كان ثمة اسرار والغاز في المشهد السياسي الامريكي ، فذلك يعود في الحقيقة الى سبب ناصع في وضوحه ، وهو ان الولايات المتحدة حاولت في وقت من الاوقات ان تبدو امام العالم الخارجي بمظهر من يسعى الى ان يكون قوة ايجابية وسط عالم محكوم بعلاقات يمكن ان تقود في نهاية المطاف الى كارثة شبه محققة.

وبوضوح اشد ، فان الولايات المتحدة حاولت في فترة من تاريخها السياسي، ان تترك انطبـــاعاً لدى العالم الخـــارجي بأنها تمثل شباب العالم واندفاعه « نحو بناء » علاقات افضـــل بين شعوب العالم . واكثر من ذلك ، فان « مبـــادىء » « ويلسون » .

حاولت ان تترك انطبـــاعاً بأن الولايات المتحـــدة تمثل قوة معادية للاستعمار ،في وقت كانت تمثل بريطانيا الوجه القبيح لعالم يعيش عصر الامبريالية . ذلك ان الولايات المتحدة خرجت من حرب الاستقلال التي خاضت غمارها ضد بريطانيا بقيادة «جورج واشنطن» دولة فتية تملك امكانيات غير مستثمرة ، ويبدو المستقبل امامها واسعاً وعريضاً . وحين وصل « ويلسون » الى اعلى منصب في الولايات المتحدة ، لم يترك غير مجال محدود للشك في ان بلاده تحاول ان تكون شيئاً جديداً في هذا العالم . وعلى الرغم من ان «ويلسون» هو الذي صمم سياسة « العصا الغليظة » ازاء امريكا اللاتينية ، وهي السياسة التي كانت تقوم على اعتبار هذا الجزء الهام من القارة الامريكية ، الحديقة الخلفية للولايات المتحدة،والتي اباحت الولايات المتحدة لنفسها بمقتضى هذه السياسة ان تتصرف في شؤون امريكا اللاتينية دون ان يملك احد الحق من ان يجادل او يعترض او يتدخل .. على الرغم من ذلك ، فان « ويلسون» نجح في ان يدخل في روع العالم بأن الولايات المتحدة يمكن ان تكون املاً لكل الشعوب الراغبة في الحرية والاستقلال .

وبطبيعة الحال ، فان سياسة « العصا الغليظة » كانت محاولة بذلتها الولايات المتحدة لمنع بريطانيا من ان تحتفظ لنفسها بموطىء قدم في القارة الاميركية .

ولعل في مقدمة الاسباب التي افضت الى هذا المشهد الامريكي ، هو ان العالم لم يكن قد اختبر السياسة الامريكية ، خصوصاً وان الولايات المتحدة كانت حتى بدايات هذا القرن قد اختارت لنفسها العزلة عن العالم غير الامريكي .

وكانت الولايات المتحدة تخضع لتأثير فكرة مفادها انه ينبغي عليها ان تظل خارج العالم ، وانها تستطيع ان تطمئن الى عزلتها التي اختارتها بنفسها ، وانها وهي العالم الجديد الحافل بكل الاحتمالات ، تستطيع ان تكون بغير دور حقيقي تقوم به في العالم القديم.

ولقد كان « جورج واشنطن » يحلم باميركا مستقلة ومتحدة ، وكان « ابراهام لنكولن » يقاتل من أجل امريكا بريئة من مظنة العنصرية والعصبيـة اللونية ، وكان « ويلسون » يحاول تقديم امريكا للعالم في صورة الدولة التي تبشر بقيام عالم جديد لامكان فيه للامبراطوريات الاستعمارية التي كانت تتحكم في مصير العالم في ذلك العصر ، غير ان احداً من هؤلاء الثلاثة لم يكن ليخطر له على بال بأن الولايات المتحدة سوف تخرج من قارتها التي اختارت ان تحبس نفسها داخل اسوارها وان تكتفي بما يمكن ان تطاله يدها من « حديقتها الخلفية » .

وكما يقول احمد بهاء الدين ، فانه حتى « ويلسون الذي قاد خطوات الولايات المتحدة الاميركية في الحرب العالمية الاولى ، ذهب الى العالم القديم وعاد كما يذهب الجار الذي يحاول ان يفض مشاكل جيرانه دون ان يتورط معهم بحيث يصبح طرفاً دائماً في مشاكلهم »(١)

غير ان هذا المشهد الاميركي سرعان ماتبدل . ذلك ان الولايات المتحدة وجدت نفسها في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، بفعل اعتبارات متعددة ، وتحت تأثير اسباب لاحصر لها ، في مقدمتها طبيعة النظام الرأسمالي ، وقد خرجت من جلدها القديم لتقوم بزحفها المفاجىء الى كل مكان من العالم القديم . واندفعت الولايات المتحدة « من ارضها الحافلة بالثراء ، المزدحمة بناطحات السحاب التي لم تنفجر فيها قنبلة منذ انتصار ابراهام لنكولن في الحرب الاهلية الاميركية اندفعت الى العالم القديم الممرغ بالتراب . . اوروبا الحاكمة محطمة مخربة منهوكة

(١) افكار معاصرة ـ كتاب الهلال ـ العدد ٢٣٠ نيسان ١٩٧٠ ص ١٥٥

القوى..وسائر البلاد المحكومة في آسيا وأفريقيا رازحة تحت ماهو أبشع من التخريب والتحطيم .. رازحة تحت الاستعمار ، تحت ظلام أرهق جسدها وكاد أن يزهق روحها بعد مئات طويلة من السنين . اندفعت امريكا الى جميع أركان الأرض ، بمزيج من الثراء الفاحش ، والسذاجة ، وضيق الأفق ، والشهية ، وعدم الدراية . فجأة ، أصبح ملوك الصابون ، سفراء وخبراء ، فجأة أصبح رجل الأعمال الأمريكي الذي نجح في ادارة مصانعه وتسويق منتجاته ، هو النبي الجديد الذي يستطيع أن يدير شؤون أي بلد في العالم ، وأن يصف له الدواء الصحيح . ولم يكن هناك إلا دواء واحد : بضعة ملايين من الدولارات ، وأسلحة يحاربون بها الشيوعيين ، وطبقة تعرف طعم الحياة الأمريكية بشتى منتجاتها من أفلام هوليود الى سيارات الكاديلاك . وفجأة وجدت أمريكا نفسها غائصة الى عنقها في مشاكل غريبة ، وجدت أقدامها وقد انغرست في طين من تعقيدات لاعلم لها بها .. في أفريقيا ، وفي جنوب شرقي آسيا ، وفي الشرق الأوسط ، وربما في كل مكان » (١) .

ما الذي كانت تسعى اليه الولايات المتحدة في محاولتها الخروج من عزلتها ؟

النظرة المدققة تستطيع ان تضع يدها على حقيقة مفادها ان الولايات المتحدة في محاولاتها المبذولة منذ بدايات هذا القرن للخروج من عزلتها انما كانت تسعى الى تحقيق هدف رئيسي هو « أمركة » العالم . وكانت الولايات المتحدة تعتقد انها بهذه الوسيلة تستطيع أن تصل الى الاهداف الأبعدمدى .

كانت الولايات المتحدة تحلم بقيام عالم أمريكي واحد . وكان تفسير ذلك هو ان الولايات المتحدة تريد أن تجعل العالم كله مجرد مساحة من الأرض يمكن التصرف بها حسبما تمليه المصالح الأمريكية . وعلى أية حال، فلقد كانت الولايات المتحدة تبحث عن دور تقوم به في العالم .

وبكل تأكيد ، فان الخلاف لم يكن حول حق الولايات المتحدة في أن يكون لها مثل هذا الدور . أي ان أحداً لم يكن يجادل في حق الولايات المتحدة في أن يكون لها دور في هذا العالم. لكن الولايات المتحدة أرادت

(١) المصدر السابق ص ١٥٦ - ١٥٧

لهذا الدور أن يكون بغير حدود أو قيود . وكان ذلك أخطر ما في المسألة كلها . ذلك أنه حين يكون أي دور عالمي بغير حدود ، فان هــذا الدور يتحول الى قوة ضريرة لا تعرف أين تضرب ومتى تضرب وكيف تضرب . ولعل الدور الامريكي في فيتنام يقدم الصورة الاكثر وضوحاً عن هذه الحقيقة .

والقوة الضريرة قوة مجنونة بطبيعتها . وربما كان هذا هو التفسير الوحيد لما تميط عنه اللثام أوراق « مكنامارا » السرية من ان الولايات المتحدة اكتشفت بعد فوات الأوان انها تحارب هناك في فيتنام دون ان تعرف على وجه التحديد لماذا تحارب ، ودون أن تكون متأكدة على وجه اليقين من أن نتيجة هذه الحرب يمكن ان تقرر مصير الاستراتيجية الامريكية أم لا . ولعل هذا هو مغزى ماتقوله أوراق « مكنامارا » من أن خبراء السياسة في الولايات المتحدة أصبحوا يعتقدون بأن الاستراتيجية الامريكية لايمكن ان يتقرر مستقبلها في ضوء نتائج الحرب الفيتنامية .

والقوة الضريرة هي التي تضع الولايات المتحدة تحت تأثير الوهم القائل انه يمكن العودة بالعالم مرة اخرى الى عصر الامبراطورية الرومانية حين كان العـــالم كله محكوماً بمشيئة روما باعتبارها الدولة الاقوى والاعظم .

وكما يقول الجنرال « ديغول » ، فان القوة الامريكية الضريرة تمثل مشكلة العالم الكبرى باعتبار ان هــذه القوة هي التي تدفع بالولايات المتحدة الى طلب السيطرة العالمية ، لا لأن الشعب الامريكي يريد ذلك ، وانمــا لان القوة الزائدة لها منطقها الخاص .

ولقد تأكد لكثير من الامريكيين ، وبالخبرة العملية وحدها ، ان الولايات المتحدة ليست الوجود الوحيد في هذا العالم ، وان القوة الضريرة التي لا تعرف اين تضرب ومتى تضرب وكيف تضرب ، يمكن أن تواجه بقوى عاقلة تعرف اين تضرب ومتى تضرب وكيف تضرب. كما تأكد لكثير من الامريكيين ان العالم اشد اتساعاً من ان يضيق بوجود مراكز عالمية تستطيع أن تحدد الدور الامريكي وان تقلص من حجم تأثيره وفاعليته .

ففي خلال فترة قصيرة من الزمن ، ظهرت قوة الاتحاد السوفييتي بكل التأثير

الذي حملته ، وبكل التحدي الذي افصحت عنه ، قوة سياسية وعسكرية واقتصادية تستطيع ان تواجه القوة الامريكية الطاغية وان تسحب من تحتها مواقع كثيرة كانت تقف فيها .

وظهرت في الوقت نفسه اوربا قوية تحاول بقدر ما تملك وتستطيع ان تجدلنفسها مساحة من الارض في عالم لايمنح اعترافه لغير الأقوياء . وعلى الرغم من ان اوربا لم تظهر حتى الآن كقوة موازية للقوة الامريكية ، فان هناك اشارات لاتخطئها العين المدققة الى ان هذه القوة آخذة يوماً بعد يوم في الظهور . ولعل الديغولية لم تكن فلسفة سياسية طارئة يمكن ان تذهب بذهاب مؤسسها ، ولم تكن فلسفة فرنسيةفحسب، وانما الديغولية فلسفة سياسية يمكن ان تنسحب على قارة بأكلها .

وظهرت في الوقت نفسه قوة الصين . وفي الحقيقة فانه في خلال عقدين من الزمن استطاعت الصين ان تتحول من قوة مهملة لايعتد بها ، الى قوة فاعلة ومؤثرة في الصراع العالمي .

وما يقال عن الصين يمكن ان يقال عن اليابان . ذلك ان اليابان تتحول هي الاخرى الى قوة فاعلة ومؤثرة . ولقد كان يقال دائماً عن اليابان انها عملاق اقتصادي وقزم سياسي ، اما الآن فان هذا الواقع آخذ بالتغير شيئاً فشيئاً .

ولعل هذا كله يفسر تلك الأصوات التي ترتفع بين الحين والآخر داخل الولايات المتحدة تطلب العودة الى العزلة من جديد ، والخروج من العالم القديم . وعلى الرغم من ان هذه الاصوات تبدو خافتة وباهتة في بعض الاحيان ، فانها تعبر عن تيار حقيقي يسري داخل المجتمع الامريكي ويحاول ان ينبه ويحذر من مخاطر التورط الامريكي .

هل معنى ذلك ان الولايات تحاول ان تخرج من جلدها القديم لتلبس جلداً جديداً؟

الحقيقة هي ان السياسة الامريكية تحاول كثيرا في هذا المضمار منذ ان وصل نيكسون الى اعلى منصب في الولايات المتحدة . فلقد حمل نيكسون معه شعاراً ظل يردده بصورة مستمرة ، وهوانه يريد الانتقال بالعالم من عصر المجابهات الى عصر المفاوضات . وكانت الولايات المتحدة في السنوات التي سبقت وصول نيكسون تحاول ان تضع العالم بقرب حافة الهاوية . وكانت تلك السياسة من صنع سياسي عجوز استطاع ان يصل الى وزارة الخارجية الامريكية وان ينصب نفسه سيداً حقيقياً للسياسة الامريكية .

ولعل في مقدمة الأسباب التي أفضت بالولايات المتحدة الى سياسة الانتقال بالعالم من عصر المجابهات الى عصر المفاوضات ، ذلك السقوط المروع في الجنوب الشرقي للقارة الآسيوية. ومعنى ذلك ان شعار «المفاوضات بدلاً من المجابهات» لم يولد هكذا فجأة وبغير مقدمات ، وانما كان محصلة طبيعية لمجموعة مقدمات .

وبوضوح أشد ، فان الاخفاق الذي منيت به السياسة الامريكية في فيتنام، وعجز آلة الحرب الامريكية عن تحقيق انتصار حاسم على القوات التي تشتبك معها في الهند الصينية، وضياع كل الجهود المبذولة من أجل سحق الثورة القومية في فيتنام. . . ذلك كله دفع بالسياسة الامريكية الى وقفة تأمل تحاول بها أن تعثر على حل للمأزق الخطير الذي وجدت نفسها فيه . وبالفعل ، فان شعار « المفاوضات بدلاً من المجابهات » كان الشعار المناسب للخروج من هذا المأزق .

ولقد تأكد بالخبرة العملية ان الحرب الفيتنامية قدمت للعالم ، وللولايات المتحدة على وجه الخصوص، مجموعة حقائق ناجزة لايمكن انكارها. من ذلك مثلاً ان هذه الحرب أكدت اخفاق ما يسمى بالحرب المحدودة . والحرب المحدودة اصطلاح سياسي وعسكري فرضه واحد من أبرز جنرالات الحرب الامريكيين ، هو « ماكسويل تايلور » الذي شغل في وقت من الأوقات منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة الامريكية .

وقد أسس «تايلور» نظريته في الحرب المحدودة على القاعدة التالية، وهي ان الحرب الشاملة أصبحت مستحيلة تحت تأثير ميزان الرعب النووي ، وان ما يسمى بالرد الشامل أصبح أيضاً في حكم المستحيل. وقد اقترح الجنرال الامريكي بديلاً من الرد الشامل أطلق عليه اسم « الرد المرن » . ويقوم هذا

النوع من الرد على أسلوب العمليات العسكرية المحدودة في مجابهة التحديات التي تتعرض لها الولايات المتحدة . وقد اطلق « تايلور » على هذا الشكل من الحروب التي يقترحها اسم الحروب الصغيرة بهدف التمييز بينها وبين الحروب الشاملة .ويمكن اعتبار الحرب الفيتنامية نموذجاً لهذا النوع من الحروب التي يقترحها الجنرال الامريكي .

وكانت الولايات المتحدة قد جربت قبل تورطها في الحرب الفيتنامية ، سياسة من نوع آخر أطلق عليها اسم سياسة الاحتواء ، وهي السياسة التي تقوم على احتواء الأنظمة التي تعتبرها الولايات المتحدة خارج نطاق تأثيرها وسيطرتها . وقد صمم هذه السياسة ديبلوماسي امريكي عمل في وقت من الأوقات سفيراً لبلاده لدى الاتحاد السوفييتي هو « جورج كينان » . وتقوم هذه السياسة على مجموعة قواعد منها ما هو عسكري ومنها ما هو سياسي واقتصادي ،ومنها مايدخل في باب الحرب النفسية . ولعل النموذج الأمثل لسياسة الاحتواء هو النموذج الصيني . فلقد عمدت الولايات المتحدة إلى تطبيق هذه السياسة على الصين الشعبية لسنوات طويلة قبل أن تتيقن بأن هذه السياسة لاتحقق هدفها المرسوم وهو عزل الصين عن العالم ، واشعال الثورة المضادة في الداخل . كذلك فان الثورة العربية المعاصرة واجهت بدورها شكلا آخر من أشكال سياسة الاحتواء تجمع مرة وأخفق مرات .

وإذا لم يكن للحرب الفيتنامية من فضيلة غير فضيلة الكشف عن مشهد من مشاهد الحماقة الأمريكية والجنون الأمريكي ، فذلك وحده يكفي . لقد أماطت هذه الحرب اللثام عن مشهد من مشاهد القوة الأمريكية الضريرة حين تفقد مقدرة تعيين الاتجاه ، وحين تتضخم عضلاتها على حساب عقلها ، وحين تصبح مسألة إلقاء ملايين الأطنان من قنابل الموت والدمار فوق المدن والبشر ، نتيجة من نتائج المزاج السياسي لقمة السلطة في بلد يحاول أن يعيد العالم إلى عصر الامبراطورية الرومانية .

إن أية محاولة لاستقصاء تفاصيل هذا المشهد السياسي الذي قل أن يشهد عصرنا له مثيلا ، سوف تضع يدها على الحقيقة التالية وهي أن حرب فيتنام لم تبدأ بحادث

خليج « تونكين » الشهير ، وإنما البدايات الحقيقية لهذه الحرب تتصل اتصالاً وثيقاً بالقرار الذي اتخذته حكومة «هاري ترومان» أحد رؤساء الولايات المتحدة السابقين والذي يقضي بتقديم المساعدة العسكرية لفرنسا في حربها ضد جبهة « فييت منه » في فيتنام قبل نحو من عشرين عاماً . لقد بدأ التورط الأمريكي في فيتنام منذ ذلك التاريخ، ثم أخذ بالتصاعد شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ مداه الشامل في القصف الجوي المركز للأهداف الحيوية في فيتنام الشمالية . إنها على أية حال قصة عشرين سنة من الجهد العسكري الأمريكي في حرب يموت فيها الرجال بغير ما هدف حقيقي ، وتتردى فيها سمعة الولايات المتحدة الى الحضيض ، وينقسم فيها المجتمع الأمريكي على نفسه ، ويتعرض الدولار الأمريكي لمتاعب خطيرة أثرت في مركزه في أسواق التعامل النقدي . إنها قصة عشرين سنة من القرارات السياسية والعسكرية التي تجيء في الوقت غير المناسب، والمكان غير المناسب ، والتي يوكل أمر تنفيذها الى رجال محدودي الكفاءة والمقدرة على أداء مثل هذه المهام الصعبة والخطرة .

ولعل في العودة إلى ما يسمى بأوراق مكنمارا السرية ، أو وثائق البنتاغون ، ما يسلط مزيداً من الأضواء على هذا المشهد السياسي . وهذه الأوراق تشكل الملف الذي كان « روبرت مكنمارا » وزير الدفاع الأمريكي الأسبق قد طلب إعدادها بهدف البحث في جذور التورط الأمريكي في فيتنام ، والذي استطاعت صحيفة « نيويورك تايمز » الأمريكية الحصول عليه وبدأت بنشره ذات يوم من عام ١٩٧١ . ويقع هذا الملف في سبعة آلاف صفحة ، منها ثلاثة آلاف صفحة للتقرير السياسي ، وتشتمل الأربعة آلاف صفحة المتبقية على الوثائق الخاصة بالحرب . وقد وجدت الصحيفة الأمريكية في اسم « أوراق مكنمارا » عنواناً يليق بوثائق تؤرخ للتورط الأمريكي في فيتنام على مدى عشرين عاماً .

ويروي المعلق السياسي الأمريكي « جيمس روستون » في معرض تعليقه على « أوراق مكنمارا » ، ان هذه الوثائق لاتقول الحقيقة كلها ، ومع ذلك فهي أول مجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية التي تساعد في الاجابة عن السؤال الخاص بكيفية تورط الولايات المتحدة والغاسها في حرب فيتنام ، وكذلك السؤال الخاص بحقيقة ما كان يدور في أفكار المسؤولين عندما اتخذوا قرارهم الخاص بتوريط الولايات المتحدة في الحرب . ويرى « روستون » انه من بين الأمور غير العادية التي تكشف عنها هذه

المجموعة من الوثائق الحقيقية القائلة إنه ما من مسؤول واحد في حكومتي جونسون وكينيدي ،حاول أن يتوقف لكي يتساءل عن الأسس الاخلاقية للجهود الحربي الامريكي في فيتنام . ويلاحظ « روستون » من خلال هذه الوثائق أن أشخاصاً من مثل وزير الدفاع الاسبق «روبرت مكنارا »، ووزير الخارجية الاسبق « دين راسك » ومستشاري جونسون ، والت روستو والاخوين بندي ، كانوا يركزون كل جهودهم على الوسائل والسبل الواجب اتباعها للقضاء على الفيتناميين دون أن يحاولوا التساؤل عما إذا كان هناك مبرر لقيام دولة كبرى بشن حرب ضد شعب صغير لاسباب تدعي بأنها أخلاقية. كما يلاحظ المعلق الامريكي أن ثمة افتراضين اثنين تردد ذكرهما مراراً لتبرير المجهود الحربي الامريكي . والافتراض الاول هو أن الولايات المتحدة منهمكة في محاولة لايقاف تحرك استراتيجي عالمي رئيسي من قبل موسكو وبكين ، والافتراض الثاني هو أن اخفاق الولايات المتحدة في ايقاف هذا التحرك في فيتنام سوف يؤدي إلى انتصارات شيوعية مذهلة في أماكن أخرى من العالم ، وبالتالي إلى حدوث تحول رئيسي في ميزان القوى في آسيا . . . وحتى عندما ازدادت الخسائر الامريكية في الارواح زيادة مروعة ، وانقسم الشعب الامريكي على نفسه ، كان المسؤولون في واشنطن لا يزالون يرددون هذه الادعاءات . ومن السخرية ، كما يقول « روستون » ان مكنارا كان مسؤولاً شخصياً عن إصدار الاوامر باجراء دراسة لمعرفة الاخطاء التي وقعت وأدت إلى تعثر الولايات المتحدة واخفاقها . وفي خلال ذلك كله ، زود المكلفين بالدراسة بأدلة وبراهين ضده وضد زميليه في عهدي جونسون وكينيدي .

ما الذي تقوله أوراق مكنارا ؟

في الجزء الأول من هذه الاوراق ، تتضح مجموعة حقائق ، منها ان جذور التورط الامريكي في فيتنام انما تمتد الى قرار ترومان بمساعدة فرنسا في حربها في الهند الصينية . وان حكومة ايزنهاور لعبت دوراً في انهيار اتفاقية جنيف لعام ١٩٥٤ وذلك بفعل تدخلها لانقاذ فيتنام الجنوبية من السقوط في ايدي الشيوعيين . وان حكومة كينيدي حولت سياسة المغامرة المنطوية على مخاطر محدودة ، الى التزام واسع ترك الرئيس جونسون أمام احد اختيارين ؛ اما المزيد من الحرب او الانسحاب . وان حكومة جونسون شرعت منذ عام ١٩٦٤ بالتخطيط لشن حرب مكشوفة في فيتنام .

وتشتمل اوراق مكنارا على تفاصيل دقيقة عن الظروف والملابسات التي تمت فيها

عملية توسيع نطاق التورط الامريكي . من ذلك مثلاً ان « والت روستو » أحد مستشاري « جونسون » هو الذي وضع النظرية القائلة انه ما من سبيل أمام الولايات المتحدة لاستنزاف الثورة غير سبيل تصعيد الحرب، وانه ما من سبيل الى اخضاع فيتنام الشمالية غير سبيل التهديد بقصف جوي تقوم به الطائرات الامريكية ضد المراكز الصناعية في هانوي ، باعتبار ان الرئيس « هوشي منه » كما يقول « والت روستو » في مذكرة رفعها الى « راسك » وزير الخارجية في ذلك الوقت ، لديه مؤسسات صناعية يتعين عليه حمايتها ، ولم يعد رجل العصابات المستميت الذي ليس لديه ما يخسره . ومن ذلك مثلاً ان مكنمارا أوصى في تقرير رفعه الى جونسون بوضع مخطط عسكري لبرنامجين أطلق على أولهما اسم « السيطرة على الحدود والاجراءات الانتقامية » ، واطلق على الثاني اسم « الضغط العسكري التدريجي المكشوف » ، ويتضمن شن غارات جوية على أهداف عسكرية وصناعية داخل فيتنام الشمالية .

هل بقي شيء في المشهد السياسي الامريكي ؟.

يعترف الرئيس الامريكي السابق «جونسون» في مذكراته بأن الغلطة القاتلة في سياسة الولايات المتحدة الخاصة بحرب فيتنام ، هي ان القرارات البالغة الخطورة كان يتم اتخاذها في غياب التقديرات الدقيقة للنتائج التي يمكن ان تترتب على هذه القرارات .

هل ينسحب هذا الاعتراف على السياسة الامريكية ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي؟

ربما كان الدور الامريكي في الشرق الاوسط هو الدور الاكثر خطورة في كل ما تحاول الولايات المتحدة ان تفعله . ذلك ان الولايات لا تستطيع ان تتصور الشرق الاوسط خارج نطاق نفوذها وسيطرتها .

كذلك فان الولايات المتحدة ، تحت تأثير اعتبارات كثيرة ، لا تستطيع ان تتصور غياب اسرائيل عن خارطة الشرق الاوسط ، خصوصاً وان العلاقة الخاصة جداً التي تربطها باسرائيل تجاوزت كل الحدود ووصلت الى النقطة التي يستحيل معها على احد الطرفين ان يبادر الى فك ارتباطه بالطرف الآخر .

ثم ان الولايات المتحدة تريد وطناً عربياً مبعثراً لا يستطيع ان يرفع رأسه او حتى صوته بالاحتجاج، وهي تحاول الآن ان تمسح من تاريخ المنطقة

عقدين من الزمن حاولت فيها الأمة العربية ، بالهام من قيادة عبد الناصر التي كان تأثيرها بغير حدود ، ان تتحرر من الاستعمار الجديد الذي تمثله الولايات المتحدة ، وحاولت فيها ان تحتفظ بأعظم قدر ممكن من حريتها ومقدرتها على الحركة الطليقة . وربما كانت المحاولات الامريكية المبذولة على مدى سنوات طويلة لمنع قيام الدولة العربية القومية الموحدة التي تمثل قمة الطموح العربي ، هي الشاهد على حقيقة هذا الدور الامريكي .

كانت الولايات المتحدة في الخمسينات من هذا القرن ، تبحث عن مخلب قط لها في منطقة تعتبرها الاستراتيجية الامريكية واحدة من اكثر مناطق العالم أهمية . وكانت اسرائيل ، بحكم طبيعتها وتكوينها ، مؤهلة لأن تقوم بأداء دور مخلب القط .

ومن يتأمل تاريخ العلاقات الامريكية الاسرائيلية، سوف يضع يده على حقيقة مفادها ان ثمة شكلا من أشكال الاتفاق غير المسجل بين السياسة الامريكية والحركة الصهيونية ، على أن يقوم كل طرف بأداء اقصى ما يستطيع أداءه من خدمات للطرف الآخر .

ولقد يكون هناك من يرى أن اسرائيل ليست اكثر من أداة في يد الامبريالية العالمية ، وان علاقتها بالولايات المتحدة هي علاقة التابع بالمتبوع . غير أن الوجه الآخر لهذه الرؤية هو أنه يمكن في بعض الاوقات أن يظهر نوع من الاستقلال النسبي في علاقة التابع بالمتبوع . بمعنى ان الحركة الصهيونية التي ربطت نفسها بالولايات المتحدة ، تبدي في بعض الأوقات تململها من صورة التابع والمتبوع وتحاول ان ترسم لعلاقتها مع الولايات المتحدة صورة الشريك . وفي الحقيقة فان هذه المحاولة تأكدت بعد حرب حزيران وما نجم عن هذه الحرب من تغيير في الخارطة العسكرية للمنطقة ، وما تأمل اسرائيل في ان تحققه على صعيد الخارطة السياسية للمنطقة .

ومهما يكن من أمر هذه المحاولات المبذولة ، فان الصورة الراهنة للسياسة الامريكية ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي تبدو ماثلة في تلك الجهود الامريكية التي لم تتوقف منذ حرب حزيران والتي تستهدف في نهاية المطاف استثمار النصر الاسرائيلي وتكريسه وتحويله من مجرد نصر عسكري في معركة ، الى نصر سياسي بكل ما يمكن ان يفضي اليه من نتائج تسعى الولايات المتحدة الى انجازها .

والولايات المتحدة في محاولاتها هذه إنما تسعى الى تحقيق هدف رئيسي هو اعادة المنطقة مرة اخرى الى العالم الامريكي، وتصفية حسابات قديمة مع حركة القومية العربية التي بدت شابة وفتية في الخمسينات ، والتي نجحت في تصفية كثير من الجيوب الاستعمارية في الوطن العربي ، والتي نجحت في الوقت نفسه في ان تمنع الولايات المتحدة من ان تمتد بنفوذها وتأثيرها الى مساحة أوسع من الأرض العربية .

وفي الحقيقة فان السياسة الامريكية ازاء الصراع العربي – الاسرائيلي لا يمكن فهمها واستيعاب دقائقها بغير فهم واستيعاب التكوين السياسي والاقتصادي والاجتماعي وربما النفسي ايضاً ، للمجتمع الامريكي ، وبغير فهم حقيقي لهذه القوة المعصوبة العينين والمفتونة بالدوران حول نفسها .

كذلك فانه لا يمكن فهم هذه السياسة بغير فهم مماثل لحقيقة مراكز القوى الصهيونية التي تمارس تأثيراً واسعاً داخل الولايات المتحدة . صحيح ان هذه المراكز محكومة هي الأخرى بحقائق الحياة السياسية الامريكية، غير أن ذلك لا يقلل من تأثيرها ومن قدرتها على المشاركة في صنع القرار السياسي الامريكي .

في ضوء هذه الحقائق كلها، يمكن فهم واستيعاب السياسة الامريكية في تناقضاتها ، وفي مظاهرات القوة التي تقوم بها، وفي محاولاتها المبذولة للعودة بالعالم الى عصر الامبراطورية الرومانية ، وفي سعيها المستمر من أجل ان يكون لها دائماً الصوت الأعلى والأقوى في عالمنا المعاصر ، وفي جهودها الرامية الى بناء عالم محكوم بتأثير القوة الامريكية الضريرة .

العلاقات التاريخية بين مالطة والعرب

صلاح الدين الخالدي

مالطة في العصور التاريخية القديمة :

(١) عرفت هذه الجزيرة واشتهرت في التاريخ منذ أيام الفينيقيين لذا يُفسر كثير من المؤرخين أن اسمها مشتق من جزر فعل سامي هو « مَلَط » ومعناه « هرب » ،

(١) انظر كتاب « لبنان في التاريخ » ص /١٤٣/ وكتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » للدكتور فيليب حتي .

ولا عجب أن تسمى الجزيرة بالملجأ أو مكان الهرب ، لأن في الجزيرة ميناء طبيعياً يعد من أفضل موانىء المتوسط . وقد ذكر المؤرخ « ديودورس » أن سكان جزيرة «مالطة» كانوا من الفينيقيين ، ومما يؤيد هذا الزعم أن اللغة المالطية قد احتفظت الى يومنا هذا بكثير من المفردات الفينيقية التي طرأ عليها شيء من التحريف والتغيير بدخول العربية الى الجزيرة من شمال افريقية .

كان الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ حيث أن جبال لبنان كانت تعيق التجارة مع الداخل وتزود السكان بالخشب الممتاز لصنع السفن . فان البحر المتوسط اجتذب هؤلاء الساميين المقيمين على سواحل الشرقية فاستجابوا اليه ، وحولوا حياة تنقلهم في أرجاء البادية الى حياة تنقل في البحر .

لم يكن الفينيقيون أولئك الجوالين في البحار الذين تصورهم لنا بعض المرويات ، فقد كانوا يتبعون طرقاً مرسومة بدأوا أولاً في استكشافها ثم استخدامها واحتكارها ، وكانت أقدم طرقهم الدولية تصل « بيبلوس » وهي «جبيل» وسائر الموانىء بمصر ، ثم أصبحت الطرق الرئيسية تبدأ من «صيدا» و« صور » فتصل مصر او تتجه شمالاً الى «قبرص» وغرباً الى « ليكا » تحت جبال طوروس ثم الى الجنوب « رودس » و«كريت» و« جزيرة كورسيرا » وحتى « صقلية » ومنها بطريق جزيرة «كورسيرا» الى قواعدهم التجارية في شمال افريقيا ، وأخيراً غرباً على الساحل حتى قواعدهم التجارية في اسبانيا.

كان الفينيقيون أول من قدم أربع مواد هامة مفقودة في كثير من بلاد البحر المتوسط ، وهي الأخشاب والقمح والزيت والخمر ، وحملوا بعد ذلك منتجات صناعتيها الرئيسية وهما صنع الأقمشة والصناعة المعدنية ، وكانوا كلما وسعوا أسواق البضائع المستهلكة يوسعون أسواق المنتجات حتى أصبحوا العملاء في توزيع بضائع الشرق في الغرب ، والبضائع القليلة الآتية من الغرب ، ومعظمها من المعادن والآنية الخزفية في الشرق ، واصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل ان يكون بحيرة يونانية أو رومانية.

ومنذ عام (١٠٠٠) ق.م ظهرت قواعد الفينيقيين التجارية في جزر بحر ايجه وكيليكية ومالطة وسردينيا وشمال افريقيا واسبانيا ، وكانت قرطاجة ام هذه القواعد التجارية في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، وقد أسستها مدينة « صور » الفينيقية في نهاية

---

(١) انظر كتاب « الحضارات السامية القديمة » ص/ ١٣٥ / تأليف سبتينو موسكاتي .

القرن التاسع قبل الميلاد . (١) لقد اتسعت تجارة قرطاجة وقويت سيادتها السياسية حتى أنها أصبحت في القرن السادس قبل الميلاد على رأس امبراطورية فينيقية سامية متسعة الأرجاء تمتد شرقاً من حدود « قيريني » (ليبيا الآن) الى اعمدة هرقل (جبل طارق) وتشمل جزر الباليار ومالطة وسردينيا ، وقواعد تجارية منتشرة على شواطىء اسبانيا وفرانسا . والراجح (٢) أن التجار الاثرياء لا الأشراف اصحاب الضياع هم الذين قدموا أموال لانشاء مثل هذه الامبراطوريه التي احتاجت فيما بعد الى تجييش الجيوش وانشاء الاساطيل الحربيةالتي حولت قرطاجة من مركزللتجارة الى امبراطورية استولت على سواحل البحر المتوسط الجنوبي ... (٣) وقد ادى ذلك الى نزاعها مع « روما » الآخذة بالظهور التي نازعتها سيادة البحر ،وبلغ من تسلط الاسطول القرطاجي على هذا البحر أن قيل للرومان بأنه لا يمكنهم غسل أيديهم في مياهه بدون اذن قرطاجة. ولكن بعد الحروب البونية بين قرطاجة بقيادة « هانيبال » وبين روما التي انتهت بانتصار روما هدمت مدينة « قرطاجة » عام /١٤٦/ق . م ، وام (٤) تأثيرات قرطاجة على بلاد غربي البحر المتوسط هي انها من جهة أخرت تطور المدن الاغريقية في صقلية وقضت على بعضها، وساعدت من الناحية الثانية على ظهور روما التي كانت دون الاغريق حضارة ، ومن جهة اخرى ايضاً نجحت في صد القبائل الرحل في شمال افريقيا وأخذت الجزية والجنود من هذه القبائل فساعدت في تحضيرهم ، وفي اسبانيا التي احتلها القرطاجيون حيث قال بليني « بعد ثلاثة قرون »ان اسبانيا لا تزال تشاهد المراكز التي لمسها هانيبال ، وهكذا ساهم الفينيقيون والقرطاجيون في تحضير شعوب البحر الابيض المتوسط ... ومن تلك الشعوب شعب جزيرة مالطةالذي كانله ان تطأ ثراه أقدام حواري منحواريي السيد المسيح عليه السلام هو القديس « بولس » (٥) ذلك انه لما حاول « فستوس »

(١) انظر كتاب « لبنان في التاريخ » فيليب حتي . ص /١٤٧/ .

(٢) انظر كتاب « قصة الحضارة » ول ديورانت ص /٧٩/ من الجزء الاول المجلد الثالث .

(٣) انظر كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » فيليب حتي . ص/١١٦/

(٤) انظر كتاب « المدخل الى تاريخ الحضارة » جورج حداد . ص /١٩٣/ الجزء الاول .

(٥) انظر كتاب « قصة الحضارة » ول ديورانت . ص /٢٦١/ الجزء الثالث من المجلد الثالث .

والي دمشق الروماني محاكمته ، وخشي « بولس » من هـذه المحاكمة التي ليست عادلة وباعتباره مواطناً رومانيـاً . فطلب ان يحاكم امام الامبراطور نفسه ، واركب « بولس » سفينة تجارية سافرت به على مهل وقضت في البحر زمناً طويلاً صادفتها في أثنائه عاصفة شتوية قبل ان تصل الى ايطاليـا ، ويقال ان العاصفة دامت اربعة عشر يوماً ضرب فيها القديس « بولس » للبحارة والمسافرين مثلاً طيباً مشجعاً للرجل الذي يسمو على الموت الوائق من النجاة ، وتحطمت السفينة على صخور مالطة ، ولكن من عليها جميعاً نجوا بالسباحة الى الشاطىء ، وبعد ان حلت بركاته على الجزيرة طيـلة ثلاثة أشهر من هذه الحادثة وصل قديسنا الى ايطاليا ...

مالطة والعصور الوسطى :

عملت(١) بيزنطة جاهدة على أن يظل سلطانها نافذاً في القرن السادس وأوائـل القرن السابـع الميلادي وهي وريثة الامبراطورية الرومانية القديمة . فكانت سيطرة بيزنطة على سبتةوجنوب اسبانياوشمال افريقيا وصقلية وسردينيا والبلقان وكوسيكا وكريت وقبرص وجنوة ونابلي ورافينا والقرم والدردنيل والاسكندرية ، وكـذلك فعلت بريطانيا في القرنين الثامن عشر والقرن التاسع عشر حـين سيطرت على البحار من مراكز مشابهة هي : جبل طارق ومالطة وقبرص والسويس وعـدن وسنغافورة وهونـغ كونـغ وسيـلان ومدينه كاب . . . ونيوفوندلند وجزائر فولكلاند وجزر الهند الغربية البريطانية ، وهكذا فان بريطانيا استفادت من الناحية الاستعمارية من الامبراطورية البيزنطية في السيطرةعلى البحار وهذا ما تفعله الولايات المتحدةالاميركية في الاشراف على المحيطات بواسطة أساطيلها الموزعة على البحار والمحيطات كالاسطول السادس في البحر المتوسط والاسطول السابع في الشرق الاقصى . . .

وكما تجنب البيزنطيون الاستيلاء عـلى اراض داخلية مترامية تكلفهم الكثير من المال والرجال فانهم كالبريطانيين في عصرنا سيطروا على مواقع تتيح للسفن التي تتخذهـا قواعد لها اشرافاً قوياً لا على البحار والمحيطات فحسب بل على طرق التجارة الرئيسية ايضاً ... وعلى هذا فقد غدت كل منطقة من المناطق الاقتصادية الكبرى بالامبراطورية البيزنطية نهاية لطريق هام من طرق التجارة من الشرق الاقصى الى الغرب ، فكانت مصر

(١) — انظر « كتاب البحرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط » تأليف : ارشيبالد ر. لويس . ص / ٤٧ / .

نهاية لطريق البحر الأحمر ، و سورية نهاية لطريق الخليج العربي والطريق البري عبر بلاد فارس ، وكانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود . وهكذا أصبح اقليم البحر المتوسط كله مجالاً لتصدير بضائع الشرق سواء تلك التي يتم انتاجها محلياً أو تلك التي تستجلب من الشرق الأقصى . وصار(١) لأهالي سورية ، واليونان ، واليهود الشرقيين والمصريين ، مـا يمكن ان يسمى احتكاراً لهذه التجارة العالمية الغنية القيمة ، واجتذب الغرب الأوربي لمزاولة هذه التجارة المربحة جاليات من المشارقة الى الاستقرار ببلاد غالية واسبانيا وايطاليا وشمال افريقية بل وبريطانيا وفي جزر البحر المتوسط ،كان هذا قبل أواخر العهد الروماني ، وهذا ما يعبرون عنه بالقول المأثور ، « بأن نهر العاصي غمر التيبر » . وحمل السعي للحصول على الامتيازات التجارية للسوريين وغيرهم عـلى الايغال في الداخل بعيداً عن المدن الساحلية ، وقد أشار القديس جيروم المعاصر لهم الى انتشارهم في كل مكان وتحمسهم للكسب والعمل ... ان بلاد الغرب وقفت موقفاً سلبياً من الناحية الاقتصادية والصناعية،وبقيت مجالاً استثمارياً يستثمر لصالح سورية والاسكندرية والقسطنطينية كما حدث في القرون السابقة . وهكذا فان اشراف البيزنطيين على المناطق الاقتصادية الآنفة الذكر في البحر المتوسط وتحكمهم في منافذه نظراً لوقوع القسطنطينية ومصر وسبتة في ايديهم فكانت الامبراطورية البيزنطية من وجهتي النظر البحرية والاقتصادية دولة ذات قوة وحيوية حتى بداية القرن السابع الميلادي حيث(٢) انتابتها علة المرض والانقسام والانشقاق دينياً واجتماعياً وثقافياً وربما زاد من حدته صراع اقتصادي بين الاسكندرية وبين القسطنطينية على اسواق البحر المتوسط ، وفي عام / ٦٤٣ / م واجه عالم البحر المتوسط أول فوج من العرب المسلمين المؤمنين برسالة التوحيد الذين اندفعوا من الصحراء صوب اطراف البلاد السورية، ولكنهم ردوا مؤقتاً، اذا لم يمض عامان حتى حدثت معركة اليرموك وحررت سورية من ربقة الاستعمار وعادت الى أحضان العروبة والعرب وفي عام / ٦٤٠ / م خرجت مصر من يد البيزنطيين وحررت الاسكندرية في عام / ٦٤٩ /م وهكذا انتصر الشرق على الغرب وانتصر العرب واشرقت شمسهم على دنيا البحر المتوسط ... وبعد(٣) أن خفقت أعلام العرب المسلمين على سواحل الشام ومصر

«١» – انظر كتـاب القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ارشيبالد ر. لويس. ص / ١٧ / .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص / ٧٨ / .

(٣) انظر كتاب «البحر المتوسط بحيرة عربية» للدكتور علي حسني الخربوطلي ص ٩ – ١٠ .

ورأى العرب سفن الروم البيزنطيين ، وشاهدوا حروبها فيه ، فتاقت انفسهم للغزو في البحر وامتلاك الاساطيل، فكان أول عربي مسلم ركب البحر هو «العلاء بن الحضرمي» ، والي الخليفة عمر بن الخطاب على « البحرين » في الخليج العربي،أما على سواحل المتوسط فكان اكثر العرب طوقاً «معاوية بن ابي سفيان» ويخطيء الذين يقولون ان العرب لنزوحهم من الصحراء كانوا غير أهل لمزاولة الملاحة البحرية ، فانهم ما كادوا يستقرون على ساحل البحر المتوسط في سورية ومصر حتى مرنوا على البحر واستعانوا بالروم وسكان فينيقيا (لبنان) في بناء (١) أساطيلهم التجارية والحربيـــة ، وأول جزر البحر المتوسط التي استولوا عليها كانت قبرص وحوصرت القسطنطينية عدة مرات واتجه جانب من الغزو العربي نحو الغرب ، فأغاروا على صقلية عام /٦٦٩/ م وفي عام /٦٧٢/ م سلطت قوة العربية البحرية تسليطاً عنيفاً على منطقة بحر ايجة،فهاجمت جزيرة « كريت »واستولت على « رودس » في نفس العام . وفي عام /٥٤/ هقام الاسطول العربي بغارة بحرية على جزيرة كريت ، وفي عام /٦٨ – ٦٩/ هاجموا صقلية وفي عـــام / ٦٩٥ / سقطت قرطاجنة عاصمة افريقيا الرومانية في يد العرب ، واصبح شمال افريقية مركزاً بحرياً ثالثاً اضيف الى المركزين العربيين القديمين في الشام ومصر . وأمر موسى بن نصير اسطوله بالاغارة على صقليـــة وربما على سردينيا ايضاً في عام / ٧٠٣/ م ثم قاد موسى اسطول عام/٧٠٨/ م نحو جزر البليبار ، وأغار عـــلى جزيرة مايورقة وسقطت سردينيا غنيمة للعرب عام /٧١٠/م .

وهكذا فالاسطول العربي الاموي سيطر على البحر المتوسط حيث قسم الاسطول الى خمس وحدات هي ، اسطول بلاد الشام ورئاسته في اللاذقية ، واسطول افريقية (تونس) ، واسطول مصر وقيادته في الاسكندرية واسطول النيل ومقر رئاسته في بابليون ، واسطول خاص لحراسة مداخـل النيـل من نزول الرومـان على السـواحل ، وانقسمت البحرية الاسلامية العربية الى قسمين منفصلين : اسطول البحر المتوسط ، واسطول المحيط الهندي . وفي العصر العباسي كان أعظم الاساطيل العربية الاسطول العربي بالأندلس والاسطول العربي بالشام حيث أغار الأول على مرسيليا عام / ٧٦٨ / م وهدد ايطاليا عام / ٧٧٨ / م وغزا ناربونة / ٧٩٣ / م وليس من شك في أن البلاد الاوروبية الوحيدة التي رسخت فيها أقدام العرب باستثناء اسبانيا ، هي

---

(١) و (٢) – نفس المرجع السابق ص / ٣١ / و / ٣٨ / .

جزيرة (١) صقلية فمنذ عام / ٦٥٢ / م وجه العرب عليها حملات متقطعة للاستلاء ، ولكن فتحها لم يتم حتى عام ٨٢٧ م ميلادية وغدت طية المائة والتسع والثمانين السنة التي تلت تحت سلطة حكام سيطرين جعلوها كلها او بعضها قطعة من العالم العربي وعاصمتها بَلَرم (بالرمو) ، وكان الامير ابراهيم الثاني من اغالبة تونس الذين حكموا قاد قبل موته عام (٩٠٢) م حملات عبرالمضيق الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بـ « قلورية » (كلابريا) Calabria وهو ليس اول عربي وطئت قدماه تربة ايطاليا .. ولما استنجدت نابل (نابلي) عام ٨٣٨ م بالعرب لم يترددوا في التلبية ، وبعد مضي اربع سنوات وقعت «باري» على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين واصبحت القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة ، وفي عام ٨٤٦ م هددوا روما بعد أن نزلت فيالقهم عند مرفئها البحري « اوستيا » ولم يحصر الاغالبة اعمالهم الحربية في شواطيء ايطاليا ففي عام ٨٦٩ م فتحوا جزيرة مالطة وبذلك عادت صلاتها بالساميين عن طريق احفادهم العرب المسلمين وذلك عام ٨٧٠ م وتأكدت سيطرتهم على المضايق بين صقلية وافريقية . . وجاء استرجاع الايطاليين لباري عام ٨٧١ م بدء نهاية الخطر على ايطاليا واوربا الوسطى من العرب المسلمين ، وبدأ الفتح النورماندي لجزيرة صقلية باحتلال الكونت «روجر بن تانكرد بن هوتفيل Roger Tancred de Hauteville عام ١٠٦٠ م لمدينة « مسينا » الامر الذي افضى الى سقوط « بلرم » عام ١٠٧١ م و « سرقوسة » Syracause في عام ١٠٨٥ م ، والتهى الاستيلاء على كل الجزيرة في عام ١٠٩١ م وفي عام ١٠٩٠ م احتل روجر مالطة .

واصل النورمانديون بزعامة امرة روجر جسكارد(٢) بعد استيلائهم على مالطة على كسب غربي اوربة السيطرة على المضايق الحيوية بين افريقية وبين صقلية الى جانب استحواذه على صقلية ذاتها . والخلاصة انه حول عام / ١١٠٠٠ / كانت للاوربيين الغربيين السيطرة على معظم حوض البحر المتوسط الغربي (٣).

وكانت السيطرة تامة على جزر كورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة ، وعلى جنوب ايطاليا كما زاد ضغطهم على جزر البليار ؛ وكانت اساطيلهم تغير على الشواطيء

«١» العرب تاريخ موجز للدكتور فيليب حتي ، ص / ٢٠١ / .

(٢) انظر كتاب القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، ارشيبالد . ر. لويس ، ص ٣٧٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٣٨٤ .

الاسلامية في اسبانيا وافريقيا،وبفضل الصليبين ، حصل الغرب أيضاً على سيادةمماثلة ، على سواحل سورية وفلسطين،واستطاع الغرب ممثلا في البنادقة ان يسيطر علىشواطيء بحر ايجة وعلى طول شواطيء اليونان ، والشواطيء الجنوبية لاسيا الصغرى وبهذا وقع طرفا طريق التجارة الدائرةالهامةبين شرق البحر المتوسط وغربه ، في قبضة الاوربيين الغربيين ، وبذلك سيطروا على معظم المراكز الاستراتيجية الهامة في البحر المتوسط ، التي طالما سيطر عليها البزنطيون والعرب المسلمون من قبل ، وكان هـذا بفضل تغلب النورمانيين على مالطة وصقلية وجنوب ايطاليا ، (وهذا ما يبرز لنا الدور الهام الذي تلعبه مالطة بالنسبة الى قضايا الوطن العربي المصيرية هي وامثالها من القواعد الاجنبية المحيطة بهذا البحر المتوسط) .. وظل أهل بيزا وجنوة والبندقية حتى عام ١٥٠٠ م على ما كانوا عليه في سنة ١١٠٠ م أي اصحاب النصيب الاوفر من ملاحـة البحر المتوسط وتجارته ، ولم يتأثر مركزهم هذا رغم منافسة المراكز البحرية الجديدةفيالغرب امثال : برشلونة ومونبلييهومرسيليا ولا منافسة البيزنطيين ومسلمي الاندلس ومصر ، انما تأثر مركزهم في القرن السادس عشر عندما انتقل الزمام من ايديهم الى الاسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين والانكليز والهولنديين ، وكان ذلك بعد ان امتدت طرق النقل والتجارة الاوربية الى اركان الارض الاربعة بعد الكشوف الجغرافية ..

مالطة في العصور الحديثة

أدى اكتشاف طريق الرجـاء الصالح أواخر القرن الخامس عشر الميلادي الى نضوب موارد الدولة المملوكية في مصر والشام ؛ فقد بدأ البرتغاليون يحتكرون تجارة الشرق ، وينتزعونها من ايدي العرب ويحطموا قوة العرب وتجارتهم في البحار الشرقية ويحصروهم في البحار الداخلية ، فاستولوا على قواعد حصينة عند مداخل هذه البحار ليشرفوا منها على حصر العرب وابعادهم عن ميدان التجارة الشرقية ، كجزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الاحمر مقابل مدخل مضيق باب المندب ، وجزيرة عند مضيقهرمز في مدخل الخليج العربي ، وهكذا لم يكد القرن السادس عشر الميلادي ينتهي حتى كانت هذه الرقعة المتوسطة من المعمورة التي يسكنها العرب على جانب البحر المتوسط والبحر

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠٠ .

الاحمر قد فقدت أهميتها في دنيا التجارة والسياسة وتحول النشاط العالمي الى المحيطات ، الواسعة والعوالم الجديدة ، ومما زاد في ذلك حلول الدولة العثمانية محل الدولة المملوكية واتباع العثمانيين سياسة عزل العالم العربي عن التيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية ، بينما كانت الدولة الاسبانية تقوم بالاستيلاء على ثغور الساحل الافريقي منذ القرن الثالث عشر واشتد ذلك الامر في اواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر حين تم لهم استئصال الامارات العربية الاسلامية بالاندلس واستولى الاسبانيون على أكثر ثغور طرابلس وتونس والجزائر ، بينما استولى البرتغاليون على موانئ كثيرة من المغرب الاقصى (مراكش) ، لذا اصبحت القرصنة في المتوسط مهنة المغاربة لأنها الوسيلة الوحيدة لديهم للانتقام من اعدائهم الاوروبيين، وظهر من بين القراصنة اخوان هما «عروج» وأخوه « خيرالدين» اللذان أرعبا اهل الملاحة الاوروبية من مضيق جبل طارق الى مضيق الدردنيل مما جعل سكان الجزائر اعتادوا عليها لتحرير بلادهم فكانا يدفعان بما يستوليان عليه اثناء عمليات القرصنة على سواحل ايطاليا واسبانيا الى موانئ شمال افريقية فأصبح عرب المغرب يدافعون عن السيادة البحرية في العصر العثماني وبفضل ذلك تمكنت الدولة العثمانية بعد أن برزت كقوة من الاستيلاء على بعض جزر البحر المتوسط وخضوع جزيرة «رودس»(١) لهم عام ١٥٢٢ م حيث انتقلت منذ ذلك التاريخ مركز « الاسبارتية » فرسان القديس يوحنا الى جزيرة مالطة ، حيث ظلوا ايام حملة نابليون بونابرت الذي قضى عليهم ، واتخذ من ذلك مادة لدعايته .. ومنذ احتلال مالطة من قبل نابليون اهتمت بريطانيا بها وقد نشر بعد سنوات تقرير بقلم الكولونيل سبستياني Sebastiani في جريدة Lemoniteur في ٣٠ مايو من عام ١٨٠٣ م يصف فيه حب الشرق ومودته للفرنسيين ، وسهولة اعادة فتح مصر ، مما أيد اسوأ شكوك الحكومة البريطانية في نيات فرنسا ، وقد رأت انكلترا انه اذا كان لابد من تجديد القتال في الشرق، فان مالطة بمرفئها العظيم وموقعها الاستراتيجي الهام ، واستحكاماتها الشهيرة، ستصبح نقطة هامة في خطة الدفاع الانكليزية ، ولهذا السبب وعلى الرغم من احكام معاهدة اميان ، رفضت انكلترا الجلاء عن تلك الجزيرة بعد ان

---

(١) انظر كتاب : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة للدكتور : ابراهيم علي طرخان . ص ١١٤ .

(٢) انظر كتاب : تاريخ اوروبا في العصر الحديث تأليف : هـ. أ. س. فشر ، ص ٧٤ .

احتلتها ، وكان هكذا فان بريطانيا (١) خرجت من الحروب النابليونية بنظام صناعي جديد ، وامبراطورية استعمارية جديدة ، وظفرت بـ « مالطة » ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وجزيرتي موريشوس وسيلان وغيرها من العديد من المراكز الاستراتيجية وعلى رأسها مضيق جبل طارق ...

العرب وتاريخ مالطة المعاصر :

كانت مالطة قاعدة هامة للعرب كما مر معنا في دراستنا هذه ، وكان موقف العرب من سكانها موقف الحاكم العادل الذي يترك للسكان حريتهم ودينهم ، ومن هنا كان التعاون التام بين المالطيين والعرب وقديماً مع الفينيقيين ونجد أن النقوش الفينيقية المكتشفة في الحوض الغربي من البحر المتوسط والتي بقيت بشكلها القرطجني حية حتى ظهور الاسلام ، حيث تم العثور على نقوش مزدوجة اللغة في قبرص وخاصة في مالطة(٢) ، ان النقوش مكتوبة باللغة الاغريقية والفينيقية جنباً الى جنب ، ساعدت على حل رموز الحرف الفينيقي وقراءة النصوص بينما في فينيقة ذاتها لا نعثر على أي نقش كتابي فينيقي بعد ظهور المسيحية ، وهكذا فان مالطة حفظت الفينيقيين نقوشهم التي ساعدت على حل رموز لغتهم وأهم تلك النقوش نقش فينيقي من مالطة وفيه يظهر اله صور يشتق اسمه من الكلمة الكنعانية مشتقة من الاسم « ملقارت » اختصار لكلمة « ملك قرت » أي « ملك المدينة » الذي يلقب في نقش مالطة بـ « بعل » بمعنى « سيد » صور ، وقد انتشرت عبادته من صور الى قبرص ومصر وقرطاجنة ومالطة وغيرها ، وجعله اليونان صنو إلههم «هرقل». كما ان مالطة ساهمت في حفظ التراث السامي الفينيقي كذلك ساهمت في عصر اليقظة العربية اذ احتضنت المطبعة العربية التي جلبتها اليها الارسالية الاميركية عام ١٨٢٢ م ومن ثم انتقلت (٣) المطبعة الى بيروت عام ١٨٢٤ م ، وأول عمل لها كانت ترجمة التوراة والاناجيل الى اللغة العربية الفصيحة بواسطة هذه المطبعة والمطبعة الكاثوليكية وفرت للبلاد بلاد الشام سبل التفاعل الأدبي والعلمي بين الغرب والشرق ، وممن أشرف على مطبوعاتها ومنشوراتها عندما كانت في مالطة الاديب اللغوي والشاعر «فارس

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١١٧ .

(٢) تاريخ الحضارات السامية القديمة . — . سبتينو موسكاتي . ص ١٥٣ و ٢٧٣ .

(٣) انظر كتاب لبنان في التاريخ للدكتور فيليب حتي . ص ٥٥٥ و ٥١٧ .

الشدياق » وهو الذي اصدر فيما بعد في استنبول جريدة عربية اسمها « الجوائب »وهي من أقدم الصحف العربية ، وفي مطلع العصور الحديثة كانت بيروت تفخر بأسواقها الأوربية التي كان أصحاب الحوانيت فيها من الأروام والمالطيين(١) ... ومن الكتب التي طبعت في مالطة كتاب «فصل الخطاب في لغة أصول الاعراب » للاديب واللغوي والشاعر « ناصيف اليازجي » كما غدت مالطة مأوى للزعماء العرب وحتى الترك المناوئيين للدولة العثمانية او لحلفائها أمثال الأمير بشير الشهابي الثاني الذي سافر اليها ومعه زوجته الجارية الشركسية الحسناء ، وكاتم سره وشاعره « بطرس كرامة » وثلاثة من أولاده مع عدد من أحفاده وحاشيته وأمواله. وقد نقل على ظهر سفينة حربية بريطانية عام ١٨٤٠م... وكانت مالطة(٢) ايضاً منفى استعمله الحلفاء بعد احتلالهم استانبول في الحرب العالمية الأولى حيث نفوا « رضا كوك آلب » اليها والذي كان بمحاضراته يلهب نفوس الشباب التركي بالمثل القومي الأعلى ويدعوهم الى الطورانية وتحرير بلادهم من النفوذ الأجنبي الأوربي(٣) ... ثم ان مالطة غنية بالذكريات التاريخية ، فقد قطنها الانسان القديم منذ فجر التاريخ ، فقد عثر على آثار الانسان النيندرتاني وفي متحفها نجد كثيراً من آثار العصر الحجري والبرونزي والفينيقي واليوناني والرومـاني والعربي الا انه ليس في الجزيرة من اثار العرب البنائية القائمة الى الآن سوى حصن « سنت انجلو » ، وهو المشرف على الجانب الايسر من الميناء الكبير بالنسبة الى الداخـل الى الميناء وقد تغير الحصن بشكل واسع ، ولكن الاصل العربي فيه بين ظاهر ، ولعله مما يسر العربي ان يعرف ان مالطة فيها جامعة يرجع تاريخها الى القرن السابع عشر ، وان فيها كرسي لدراسة اللغة العربيـة ، وممن شغل منصب استاذ اللغة العربيـة الاديب اللبناني الكبير الآنف الذكر « أحمد فارس الشدياق » .

لقد ترك العرب للمالطيين ما لم يتركه غيرهم من الفاتحين لهذه الجزيرة اذ أعطوهم لغة ، واذا استعرضت اللغة المالطية الحديثة استطعت ان تقول عنها اجمالا ان القسم العربي

---

(١) نفس المصدر السابق

(٢) كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية في القرن التاسع عشر – بروكلمان – ص ٩٨ وص ٩٨

(٣) انظر مقال الدكتور نقولا زيادة في مجلة الشرق الادنى العدد ٤ عام ١٩٥٢م عن مالطة ..

فيها يرجع الى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وان اللهجة المالطية متأثرة بلهجة شمال افريقيا بطبيعة اتصالها ولا سيما مع ليبيا ، فأهل مالطة يقولون « تخلص » بدل «تدفع» كما يقول الليبي ، ويقولون « لحم » بدل « لحم »على ما نعرفه من أهل طرابلس الغرب، وضم كلماتهم وألفاظهم « مط وتنغيم » يشبهون بعض أهل احياء طرابلس . والواقع فان الزائر العربي لمالطة يلفت نظره متى اجتمع بالسكان أو تحدث اليهم كثرة العربية في اللغة المالطية ولننقل اليك أيها القارىء العربي قطعة أدبية باللغـة المالطية نقلاً من أحاديث الدكتور نقولا زيادة والقطعة مأخوذة من خطاب للاستاذ المالطي « بونتشي » ألقاه في أحد الاحتفالات الوطنية ، فيعرف الوطن بما يلي : الباترية هي ديك لارت « الارض » لي « التي » فيها تولدنا ، لي فيها عشنا ، لي فيها اهنا « نحنا » بكينا وهبينا دحكنا « ضحكنا » هدمنا وسترهنا ، كبيرة يو « او » زغيرة ، عنيه « غنيه » يو فتير «فقير» صبيحه « صبيحة » يوكرها ، فرتلي « خصبة» يوشعري « شاغرة » هي ديم ديك«تلك» الام لي تطلنا « اعطتنا » العيش وربتنا ولي « والتي » جرناتا « غدا » تدفنا في افدانها « احضانها » وا « بعد » موتنا .

ومن ناحية لباس النساء فان كثير من سيداتها يرتدين « الفالدتا » التي تشبه كثيراً الطرحة العربية السوداء وتشبه ايضاً « البرنس » المغربي ... وجزيرة مالطة مكتظة بالابنية والسكان في احصاء عام ١٩٥٧ م بلغ عدد سكانها مع اربع جزر تابعة لها واشهرها جزيرة « جوزو » و « كرمينو » ٣١٩،٦٢٠ الف نسمة وفي عام ١٩٦٤ بلغ عدد سكانهـا ٣٢٩ الف نسمة ومساحتها مع جزيرة كومينو تبلغ ٣١٦ كيلومـتر مربع ، ولكن مساحتها مع الجزر الاربعة الملحقة بها تبلغ ٥٠٦٨٠ ميل مربع وان الكثافة العامـة للسكان في الميل المربع الواحد ١٣٨ نسمة ، والكثافة الانتاجية لجزيرة مالطة بمفردها ١٠٤٠ نسمة لأن في الجزيرة اراض صخرية واسعة لافائدة منها من الناحية الزراعية ، لذا غدا اعتماد السكان على التجارة والسياحة وصيد السمك ، وهنا نشأ ازدحام السكان في الاجزاء الشرقية الجنوبية من هذه الجزيرة حيث الموانىء الطبيعية الصالحة للسكنى والمعيشة والعاصمة هي « فاليتا » حيث نجد النفوذ العربي واضحاً في الفن البنائي فيها ، وهي الميناء البحري الرئيسي وان الشعب المالطي كثير الولادات شأنه في ذلك شأن الوطن العربي الا ان الوفيات فيه قليلة بالنسبة الى الوطن العربي ، وان نسبة الولادات السنوي في الالف تبلغ في مالطة ٢٣،٢ نسمة وان معدل الوفيات السنوي ٢٣،١ نسمة في الألف بينما هي في سورية ٥ بالألف ، لذا يعتبر الشعب المالطي من الشعوب الفتية في تصنيفـات علماء

الاجتماع للشعوب ؛ وهذا مما أدى بهذا الشعب الى الهجرة الخارجية .. ان دين الاغلبيةهي المسيحية الكاثوليكية ، واللغة الرسمية هي الانكليزية لغة المستعمر ، اما من الناحية المناخية فمناخها هو مناخ اقليم البحر الابيض المتوسط ، فالحرارة في شهر كانون الثاني « يناير » معدلها ٥٤ درجة فرنهايت ، وفي تموز (يوليو) معدلها ٧٦ درجة فرنهايت ، وان مقدار المطر في كانون الثاني ٣،٢ بوصة وفي تموز «٠،٧ن» بوصة ، وان المنتوج الغذائي الرئيسي هي البطاطا ، وان العملة الرسمية المستعملة هي الجنيه الاسترليني.

لقد نالت مالطة وجزيرة جوزو الاستقلال في يوم الاثنين ٢١/٩/ ١٩٦٤ وبما انها فقيرة الموارد فانها اضطرت مكرهة على ابقاء بعض القواعد البريطانية فيها مقابل مبلغ لايتناسب مع أهمية هذه القواعد بالنسبة الى بريطانيا وحلفائها في منظمة حلف شمال الاطلسي ، لذا لما فاز حزب العمال المالطي في الانتخابات الأخيرة بزعامة رئيس الدولة الحالي (دومنتوف) الذي بدأ يطالب بزيادة العوائد او بالجلاء عنها وازالتها من الوجود، ويدعمه في ذلك اقطار الوطن العربي ولاسيا الجمهورية العربية الليبية التي تقدم الدعمالمادي والمعنوي ، وخاصة ان الآلاف من العمال المالطيين يعملون ويعيشون في ليبيا ويشكلون جالية تأتي في الدرجة الثانية بعد الجالية الايطالية من حيث العدد ، لذا نشأت مواصلات جوية يومية بين مالطة وليبيا عن طريق خط جوي يصل بين لندن والقاهرة ماراً بمالطة وليبيا ، لذا كانت المساعدة المالية والفنية التي قدمتها ليبيا لها مايبررها لدعم الشعبالمالطي الصديق تلك الصداقة والصلات التي ربطت الشعب الفينيقي والشعب العربي عبر التاريخ الطويل بالشعب المالطي تاريخ شعوب البحر المتوسط ذلك البحر الذي يجب ان يبقى بحرم دون سوام ، وان تزول قواعد الحلف الاطلسي ، ذلك الحلف العدواني الذي يدعم دولة العدوان ويمدها بأسباب الحياة والقوة ، وتتزعمه الولايات المتحدة الاميركية التي سيطرت عليه منذ تأسيسه وتوقيع ميثاقه في الرابع من نيسان عام ١٩٤٩ م وقيام منظمة معاهدة شمال الاطلسي المعروفة باسمها الاجنبي :OrganisationduTraite'de: L' Atlantigue Nord (O. T. A. N) وبالانكليزية North Atlantic Treaty Organisation.

---

(١) انظر الدليل الجغرافي للعالم — عبد الوهاب سليمان البدوي .. و Oxford Schod Atlas

(٢) انظر كتاب : التاريخ الدبلوماسي — ج . ب — دروزيل ص ٥٠٥

تطوّر الجامعات وأفرقة الثقافة في أفريقيا

نعيم قدّاح

طرحت الجامعات الافريقية في العام الماضي كثيراً من القضايا الشعبية التي تهم الجماهير ورفعت شعارات أفرقة الثقافة والعودة الى مفاهيم الحضارة الافريقية الاصيلة ، الى أمجاد الحضارة الافريقية الاسلامية التي انبعثت من افريقية الغربية في طومبوكتو (مالي) أبان القرون الوسطى .

لقد كانت جامعة طومبوكتو الافريقية ثورة مشعة للثقافة العربية الاسلامية في وقت كانت فيه اوربا تشكو من عصور الظلمة .

ان جامعات اليوم تتوق الى العودة الى أمجادها التاريخية وهي سائرة في هذا الطريق.

لابد قبل البحث في الجامعات في افريقيا من أن نذكر أن هذه الجامعات حديثة العهد يشرف عليها أساتذة في معظمهم من الأجانب وتسيطر على اداراتها النزعة الغربية عن عادات وتقاليد الشعوب الافريقية ورغباتها وتطلعاتها السياسية .

ان أول جامعة أنشئت في القارة السوداء هي جامعة دكار وقد بدىء بتأسيسها عقب الحرب العالمية الثانية وعلى وجه التحديد عام ١٩٤٧ أي خلال الاستعمار الفرنسي للسنغال وبعد اعلان الاتحاد الافرنسي الذي منح المستعمرات نوعاً من الحكم الذاتي أزيل آخر قيد في وجه المواطنين بمواصلة تعليمهم العالي، ولكن ظلت هناك مشكلة قائمة يصعب ايجاد حل سريع لها وبخاصة في دول فتية تتمخض عن تطور كبير سواء بالنسبة للحياة الاجتماعية فيها أو للاتجاهات السياسية المختلفة ، فالأجهزة الادارية والفنية في جامعة دكار تتسم بطابع الثقافة الافرنسية وهي بيد مجموعة من المعلمين والاساتذة يستمدون أفكارهم من وطنهم الأم ويتقيدون بتوجيهات حكومتهم وبما يتفق ومصالح بلدهم . ان هذه المشكلة هي القاسم المشترك لكافة الجامعات الافريقية .

في عام ١٩٤٧ وفور الاعلان عن انشاء جامعة دكار تدفق من كافة أنحاء القارة مئات من الشباب من حملة الشهادة الثانوية للالتحاق بالجامعة المحدثة ولكن اندفاع وحماس هؤلاء الشباب اصطدم بالشروط السياسية القاسية التي وضعت لقبولهم ويكفي أن نقول انه بعد أربعة أعوام من افتتاح الجامعة لم يتجاوز عدد طلابها ١٤٠ طالباً ، وكان مرد ذلك الى خشية المسؤولين من تسرب عناصر ثورية وتقدمية الى رحاب الجامعة وما قد يتبع ذلك من ازدياد في نمو الفكرة الاشتراكية وتوسع في القاعدة الشعبية المزودة بالعلم والمعارف الحديثة .

وفي عام ١٩٥٠ وهو عام المأساة كما أراد البعض أن يسميه قامت الادارات والأجهزة الحكومية المختصة بحركة قمع دموية تناولت الأعضاء البارزين في أحزاب التحرير الافريقي وقد شملت هذه المذابح مناطق عدة في كل من شاطىء العاج وغينيا .

وقد كان لسياسة الحذر التي اتبعتها الحكومة الافرنسية تجاه القارة الافريقية أثرها العميق في تعثر تشكيل الاطر المثقفة وانعكست آثار هذه السياسة في البداية على جامعة دكار بالذات والمعاهد التعليمية الاخرى ، وقررت السلطة أن تحد من عدد المنتسبين للجامعة فعهدت الى اتباع خطة محكمة في سبيل تحديد عدد المتقدمين الى فحوص شهادة البكالوريا القسم الأول ووضعت للتقدم لفحوص القسم الثاني شروطاً جعلت من المستحيل اجتيازها وتخطيها وأمام هذه الاوضاع المحافظة الشاذة اضطر عدد كبير من الافريقيين السفر الى

فرنسا لمتابعة دراساتهم سواء أكان ذلك عن طريق المنح الدراسية أو على نفقاتهم الخاصة وقد شجعت الحكومة الافرنسية الاتجاه الجديد لتتجنب جمع الطلاب في جامعة افريقية واحدة وبذلك تكون قد درأت الاخطار التي سوف تهدد مصالحها، مستقبلا ، كما تقول جون افريك الصادرة في ١٩٧١/١١/٢٨ .

ولكن بالرغم من كل هذه التدابير الشديدة فقد تمكن طلاب جامعة دكار من ايجاد نواة تؤمن بالحرية وضرورة ايجاد سبيل التحرر والانطلاق نحو وحدة افريقية ، هذه الطليعة الثورية أخذت تتجمع في حلقات وتنظيمات مستقلة وتقوم باجراء دراسات خاصة حول أفضل السبل لتحقيق أهدافها ، وذلك بخلق مجتمع أفريقي متجانس موحد وبالفعل فقد أصدرت هذه التنظيمات نشرات دورية تستعرض فيها تطلعاتها وأهدافها القومية والتحررية ومن هذه النشرات : (نحو ايديولوجية افريقية) و (الوحدة الثقافية الافريقية) و (الاسس الثقافية والفنية للوحدة الافريقية) و (النظام التربوي في أفريقيا) .

ان هذه الطلائع مهدت الطريق امام الشباب الافريقي للانطلاق نحو الغايات التي رسمت له، وفي عام ١٩٥٤ بلغ عدد الطلاب في جامعة دكار ٣٩٢ طالباً وتميز هذا العام بانعتاق الجامعة من بعض القيود التي وضعها المستعمرون والمحافظون . وفي هذا الوقت بالذات وفي الطرف المقابل للقارة اخذت مصر تشق طريقها بتحطيم آخر قيد استعماري بتأميمها قناة السويس وفي الجزائر اشتعلت الثورة التي اخذ لهيبها يمتد الى الجماهير فلم ير المسؤولون في الدول الافريقية امامهم من خيار لاتقاء المثل الجزائري ولاحتواء الموجة العارمة التي بدأت تغمر القارة سوى اطلاق بعض الحريات الا ان هؤلاء القادة لم يتمكنوا من ايجاد سياسة موحدة ثابتة في مجال التعليم العالي فكان بامكانهم مثلا انشاء مجلس مشترك أعلى تناط به صلاحية وضع الحلول للمشاكل التي تعاني منها جامعة دكار على ان يجري تمويلها من صناديق الدول المعنية وقد ادت اختلافات وجهات النظر والنزعات الاقليمية الى ارتماء الحكومات في احضان فرنسا التي سارعت الى تلبية هذه المطالب وانشىء عام ١٩٥٨ معهد عال في ابيجان ما لبث ان تحول الى جامعة عام ١٩٦٤ كما توالى انشاء الجامعات في كل من الكونغو والكاميرون وفولتا العليا والداهومي وتوغو وساهمت فرنسا بـ ٧٠٪ من موازنات هذه الجامعات الحدثة وقد ادت هذه السياسة الى فقدان جامعة دكار من اهميتها كمركز اشعاع للقارة وكان الانخفاض في عدد طلابها اثر كبير في اضعاف امكانياتها المادية مما دعا الحكومة السنغالية الى تأميمها ومن ثم اضطرارها الى طلب مساعدات عاجلة من فرنسا لتأمين حاجاتها من الاساتذة والأجهزة الادارية والفنية

لقد كان لهذا التطور السريع انعكاسات خطيرة على الحركة القومية الوحدوية في افريقيا فوقف الرعيل الاول من المثقفين الثوريين عاجزاً أمام التيار الجديد الذي اخذ يستلهم افكاره ومبادئه من الثقافة والحضارة الافرنسية وقد عبر عن هذا الواقع المحزن وزير التعليم السنغالي حين قال: «لقد بلغنا مرحلة اصبحنا فيها عاجزين عن ادخال اي اصلاح او تعديل في البرامج والخطط التعليمية دون الدخول في مفاوضات مع فرنسا للوصول معها الى اتفاق».

وقد لفت المندوبون الافارقة الى مؤتمر نيروبي حول التعليم الجامعي ١٩٦٨ نظر المسؤولين الافريقيين الى الفوضى التي تعم المؤسسات التعليمية العليا والتبذير الكبير في مواردها المالية وأوصى المؤتمر بضرورة استخدام الأساليب الحديثة في معالجة النواقص الفنية الكثيرة ولزوم توحيد الجهود في سبيل دعم وتحسين وسائل التدريس كما أصر على وجوب التخلي عن الارتباطات الثقافية مع الدول الاجنبية وايجاد ثقافة افريقية عريقة تعيد للقارة روحها الحضارية الاصيلة.

ووقف المسؤولون الافريقيون من هذه التوصيات موقف المتردد الحائر، فثار الطلاب مطالبين بالاسراع بتنفيذ مقررات المؤتمر فاضطرت السلطات في ابيجان عاصمة ساحل العاج الى حل منظمة الطلاب الافريقيين وزجت بعدد من زعمائهم في أحد المعسكرات ولم ييأس الجامعيون فأنشأوا من جديد منظمة أخرى انبثق عنها اتحاد الطلاب الافريقيين الذي ضم عدة آلاف.

وقد نظم الاتحاد الجديد المذكور مسيرة كبرى عشية العدوان البرتغالي على غينيا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ١٩٧٠ وسارت في شوارع ابيجان مبدية استنكارها وغضبها معلنة ان هجوم المرتزقة البرتغاليين على كوناكري هو عدوان صارخ على الشعوب الافريقية جمعاء وانه اهانة تتناول سائر دول القارة لقد كانت هذه المسيرة نقطة انطلاق لتعبئة عامة لفكرة وحدة المصير ودلالة واضحة على مايعتمل في صدور الشباب الافريقيين من آمال متشابهة ورغبة جياشة في القضاء على الاستعمار بجميع اشكاله ووضع نهاية للنفوذ الاجنبي فلم تمض ساعات قليلة الا وآتت هذه الواقعة ثمارها اذ اعلنت الحكومة في منتصف ليلة الثاني والعشرين من تشرين الثاني قرارها بابعاد كافة الاجانب من اراضي شاطىء العاج وفي آذار عام ١٩٧١ الغيت

سائر العقود الموقعة مع الاساتذة الافرنسيين وحل مكانهم اساتذة وطنيون .

ونبعت هذه الاحداث قرارات تقضي بدعوة الاساتذة الى ندوة خاصة تهدف الى تحديد الأطر التي يجب أن تسير في هداهـا برامج التعليم وانتهت هذه الندوة الى اصدار توصيات بوجوب ابتعـاد المدرسين عن كل مامن شأنه ان يثير النفوس والاحقاد ويحدث بلبلة في الافكار وقد عبرعن ذلك أحدأعضاء المكتب السياسي للحزب الحـاكم في ساحل العاج حين قال :

« يجب ان يبعد التعليم عن الخوض في الامور الفكرية الصرفة التي تدفع بالطلاب نحو الارتماء في أحضان الافـكار الفلسفية المثالية واضاعة الوقت في مناقشة النظريات المختلفة وعلى الاساتذة صرف اهتمامهم الى النواحي العلمية الواقعية والابحاث الاجتماعية التي تتوافق مع حاجات بلادنا وبذلك فقط يمكن أن تنشأ أوثق الصلات بين المواطنين والحزب » .

وجرى الشيء ذاته في السنغـال حيث أطلق سراح عدد كبير من الطلاب المجندين وسمح لهم بمتابعة دراساتهم العالية ونرى أنه لأول مرة يجري تعيين أحد الرعايا السنغاليين عميداً للجامعة واعتبرت اللغة « الاولوفية » لغة أولية للتدريس كما صدر قرار يقضي بوجوب دفع مرتباب الاساتذة من خزينة الدولة واعتبرت الشهادات المعطاة من جامعة دكار معادلة لمثيلاتها في الجامعات الافرنسية باستثناء شهادة الطب ، وبكلمة موجزة فقد قرر المسؤولون ادخال اصلاحات جـذرية للنظم الجامعية بحيث تصبح جامعـة دكار جامعة وطنية بعد ان كانت جامعة سنغالية « بالاسم » كما أراد البعض ان يصفها .

ولكن وبالرغم من كل هـذه الآمال العريضة فلا تزال هناك مشاكل يتعذر ايجاد الحلول السريعة لهـا اذ كيف يتسنى تأمين نفقات الجامعة وموازنة الدولة تعتمد أساساً على المساعدات الاجنبيـة وان الاعتمادات المرصدة للمشاريع المختلفة المدرجة في الخطة الرباعية لايمكن الاستغناء عن واحد منها لانفاق مخصصاته على الجامعة ؟

ثم ما هي امكانيات الجامعة لتوفير الاطر الضرورية لتأمـين حاجات الانتـاج من المختصين في وقت لا يزال يتشبث فيه القطاع الخاص بالخبرة الاجنبية والسياسة الاجنبية ومنـذ عام ١٩٦٨ ، والمسؤولون في وزارة التخطيط السنغالية يعلنون عن زيادة عدد العاطلين ورفض المؤسـسات الخاصة توظيف الوطنيين بحجة نقصان الخـبرة وانه لا بد كيما يتطور الانتاج من الاستعانة بالخبراء والفنيين

الأجانب وخاصة الفرنسيين ويكفي ان نقول ان مئات من الافرنسيين المهاجرين يعملون في مختلف القطاعات حتى ان نسبتهم تبلغ في بعض الشركات ١٠٪ من مجموع العاملين في المشروع عدا عن ان هناك مؤسسات معينــــة هي حكر الأجانب لارتباطها الوثيق بأصحاب رؤوس الأموال (جون افريك ١٩٧١/١١/٢٨).

ان مشكلة ارتباط الاطارات المثقفــة المختصة بمواقف القطـــاعات الاقتصادية والاجتماعية المختلفــة اشكال تحاول بعض الحكومات الافريقية المحافظة ايجاد حــل عملي له .

اما بالنسبة الى غينيا الجارة الجنوبية للسنغال فقد توافر الحل بالتخطيط الافريقي الذي وضعته الحكومة الثورية هناك في انشاء جامعة افريقية تقوم على مفاهيم الثورة الافريقيــة ووحـــدة القارة على اسس اشتراكية وقد ركزت مناهج الجامعة الفنية على ضرورة احترام الثقافة الافريقية الاصيلة .

اما بالنسبة لزائيري «الكونغو كينشاسا» سابقاً فانها ماتزال تعمل بالمبدأ الاستعماري القائل « اذا خلت الساحة من المثقفين فانه لا مشاكل » .

واذا اردنا تلخيص الوضع التعليمي على الصعيد الجامعي في زائير التي تعادل مساحة اوربا الغربية ، يمكننا ان نقول انه حتى عام ١٩٧٠ ليس في زائير سوى طبيبين وطنيين فقط وان المجازين الجامعيين لا يتجاوزون ٤٥٧ مجازاً ٣٪ منهم في العلوم و ٦٠٪ آداب وحقوق ، الباقي اختصاصات مختلفة وان العالم لا ينسى ماحدث للطلاب الذين اضربوا في جامعة لوفانيوم في كينشاسا عام ١٩٧١ مطالبين بافرقة الثقافة و الاعتماد على الاطارات المثقفة الافريقية في القطاعات الحكومية وقد انتهى الاضراب باغلاق الجامعة وسوق طلابها الى الجندية وقتل عدد منهم ، وما زال مستقبل الجامعة هناك محفوفاً بالمخاطر والغموض .

أما في مدغشقر فقد طالبت الجماهير الطلابية في حركتها السياسية المعروفة باسم (أيار الملغاشي) في ايار ١٩٧٢ بأفرقة التعليم والاعتماد على الاطارات الوطنية في هذا المجال وقد ادى ذلك الى انقلاب شامل في حياة البــلاد . حيث استقال شيرانانا بعد حكم دام أكثر

من عشر سنوات واقع المجال لاصلاحات كبيرة في الاستفتاء الشعبي الذي جرى في شهر تشرين الاول من عام ١٩٧٢ . مما تقدم نستطيع ان نقول :

ان اوضاع الجامعات الافريقيه صورة صادقة للمخاض السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي تعيش فيه الدول الافريقية ومرآة تمثل مطالب الجماهير الافريقية في التغيير الجذري للارث الاستعماري .

* * *

إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

شعر: محمود السيّد

– ١ –

ذلك السيف الذي فجّك غدراً ، فجّ ظهري . قتلوني
– الحمد للقتل الذي كنت به مخترقاً
صخرة الموت اليك –
قتلوني باسمك
– الحمد لقتلي – فتواريت كما أنت تواريت قديماً ، ثمّ ..

ها ، عدت فصولاً تتوالى في شتاء النـار ، في صيف
الجسد :

« قل هو الله أحدٌ
قل هو الحبُّ
وكفواً ليس للحبِّ أحدٌ »

– ٢ –

قتلوني ..
أصبحوا عوسج دمع فوق تابوتي ، ولبلاب
نواح ، فرأيت (الشمر) نصلاً راعف الحدَّينْ
في كف الحسينْ
.. ورأيت
وجهك – يا إمام – رأيت خلفك جمعهم متناهشاً
مثل الضباع ، وخلف ظهرك لا أحدْ
إلا كما ذُلَّ الوتـدْ
بالناجذين يعضّ دنياه ويفتنه الجلوس وآية الكرسي :
– ضع في الحذاء الرأس واستغفر مسامير الحذاء وقلْ
– يارب أشكر نعمة أنعمتها يارب أشكر (١) .
.. وتحزبوا ، فتناوبوا
ظهر الجياع ، تناوبوا (هند) الغواية ، واشتهاء القتل
في أحداق (وحشي) .
لاجبهة إلا ودون ترجرج الردفين تنخرها
هموم العهر ، لاعين تشيع ، وفرجها في كل عين مثل

(١) لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم فان عذابي لشديد .
« قرآن كريم »

(خضراء الدمَنْ) .

يتجاذبون به المطية فوق خارطة الإماء ، وفوق

أرض تستباحْ

ياليل .. من قتل الصباحْ

من فجّ ظهرك يا إمام وفجّني ويكى بعاشوراءَ (عائشة)

ونام ،

متيمماً بسكونه الحجري عاماً بعد عامْ .

متوغلاً في قشرة الكلماتِ

(حافظة) السلامهْ ،

[كن أرنباً في قصر خاقان القباء تصر غضنفرْ]

(والأمر شورى بينكمْ)

الأمر شورى يا علي وكلهم فأر يلاصق كشحة سنوْر

محظية و (قاروق) يقولْ ،

لكل فرد من — رعيتنا — الخيارْ

والأمر واحدْ !!

الأمر :

أننا في صحارى القهر قافلة تنقّ غضوبة ، فيفجّها

طيش الملوكْ .

— نحن الرعية والإماء ، هم الملوكْ ==

نسل من الزبد الخاطيّ

المدملج بالمقولات الطبولْ ...

نسل (ابن ملجم) والحؤلات التي احترفت معاقرة الوصاية ،

خنجراً ، افكاً ، وتسييس العقولْ ،

لتظل قافلة مجرجرة تقولْ

أبداً تقول ولا تصولْ !

— ٣ —

ما أنت بالأول والأخير
ففي سلالتي الشمر الذي يصير
شمراً يبيع القدس بالبعير
« ابن ملجم »

— ٤ —

« اسمي الشمر ، الشر ، المر ،
أسمائي يعرفها الحر ،
والنصل القاتل والجمر .
مازلت أغير أسمائي
وأغير وجهي – ووجوهي حرباء
الطقس ، فلن تحصى –
حيناً ألبس ثوب التقوى
حيناً أبدو (شاهاً) لصاً
حيناً يلبسني الجهر حيناً يلبسني السر
لكني الشمر
أنا الشمر
أذبح مغبوطاً بالذبح
مطراً
حرفاً
طفلاً
صبح »

– ٥ –

يا أميرَ المؤمنين

وجهك اليوم كوجهي ، وجهي اليوم

وجوه المتعبين .

نحن مازلنا نقاء يبتليه الملكُ ،

فيسوّيه حذاء وقناعاً لسياسه

أسمها السرّي في المبغى (نخاسه)

واسمنا فيها « جموع الكادحين »

يا أمير المؤمنين

★ ★ ★

مقابلة مع :

خليل حاوي

محيي الدين صبحي

ــ ماذا ترون في قصيدة النثر ــ وأبدأ بها لأصل الى تعريف للشعر والشاعر ــ؟

• حين يقترب النثر بحال ناشطة في النفس ، يقرب بإيقاعه من ايقاع الشعر ، ويمكن ان نكتشف فيه ما يقارب أوزان العروض . فاذا حرر العروض القديم من قيوده كان الصيغة الصحيحة الصالحة للتعبير ؛ فهو لا يفرض على القصيدة من الخارج . القصيدة هي التي تكتشف ايقاعها ، والايقاع يتحول الى وزن .

أما القصيدة النثرية فقد أخطأ من اخذها بدون فهم لبنانها . ويعد سان جون بيرس افضل من كتب اليوم قصيدة نثرية . غير ان نثره مرتبط بالوزن الاسكندري . فما من نثر يمكن ان يتوهج ويتحلل من الوزن . هناك نثر هو تعبير عن الذهن المجرد التقريري ، وهناك النثر الذي يعبر عن تجربة وشعور ، وهو غالباً يرتفع بالايقاع الى درجة الوزن .

ما يمكن أن يعد قيداً في الشعر — الوزن — او الايقاع الموزون ، هو السبيل الوحيد للتحرر ؛ يشبه فاليري النثر بالمشي والشعر بالرقص . فالماشي مقيد بالسير الى غرض . والخطوة في المشي غير متحررة ، فتتحرر الخطوة حين يتحول المشي الى رقص . ولكن الراقص بايقاعه يوحي بأمداء لامتناهية ، وهكذا ، في الشعر كما في الرقص.

يقول ارسطو : يجب ان يتصف الشاعر بغريزتين . غريزة الاستعارة والقدرة على الايحاء بالايقاع . فهما غريزتان لاتنعانان . متى يوحي النثر بالايقاع ؟ عندما يكون منضبطاً ، وحين ينضبط بوزن . ومن هنا تأتي كل اخطاء من كتبوا قصيدة النثر ، ولم يعرفوا انها يجب ان تكون منضبطة لاتنساح انسياحاً . الشعر تنوع ووحدة . اما عند شعراء النثر الصغار ، فهو تنوع بدون وحدة . الوزن يتولد من الانطلاق والمحاولة للانضباط ، هذا التوتر يخلق الجمال الموحي .

يرى هولدرلن — واوافقه في الرأي — انه اذا كان الوجود في اصله وحقيقته فوضى ، فلايحق للشاعر ان يعطي الوجود في فوضاه الاصلية . القصيدة تشف عن الفوضى ، لكنها ذات بناء غير فوضوي . في الفوضى المطلقة ينتفي الفن ، يجب ان تفرض على الشعر صيغة فنية مستمدة من طبيعة الشيء . فاذا غلبت الصياغات الفنية على موضوع التعبير استقلت الصياغات بذاتها وقربت من مدرسة البديع . فمدرسة الوسط هي التي تقف بين التعبير عن الفوضى بذاتها وبين البديع . هذا هو الخط الدقيق الذي يلامسه كل شاعر اصيل باصالة حدسه الفني التعبير عن الحقيقة الفجة كما هي ليس فناً . الحضارة المتفسخة تهتم بالصيغة وتقصدها لذاتها فتصبح نوعاً من المعايشة كما عند الحريري والشعر الغربي . في نهاية الحضارة يموت حدس الشاعر بحقيقة الوجود، ويتحول الفن الى نوع من اللعب .

في هذه الايام اقرأ مجنون الزا لاراغون . انني ارى فيها تغنياً بفتح العرب للاندلس . المجنون رجل واحد عبر العصور . مجنون ليلى عند العرب هو مجنون المتصوفة

وهو اراغون المجنون بالزا . ان الشاعر الحديث يعجز عن خلق ملاحمه ، ولذلك نجد ان فيها شعراً وفيها نثر لتصاغر الانسان وتقزمه .

— ماذا ترون في العلاقة بين التجديد والتراث ؟

• حين أعيد النظر في نهضة الشعر العربي الحديث التي أطلقناها نحن الرواد عبر الخمسينات ، أرى اننا كنا نحاول واعين ان نحدث ثورة تجعل الشعر الحديث ينفصل عن التراث الشعري العربي بقدر مايتصل به .. وكان كل منا يحاول الانطلاق مما يراه عناصر حية في التراث ، واعتقد ان كل نهضة شعرية في أمة تحمل تراثاً شعرياً عريقاً متراكماً لابد لها من العودة الى الينابيع الاصيلة التي كانت مصدر كل نهضة في الماضي وهذه العودة تختلف عما يدعى بالسلفية الشعرية . ذلك انها ليست عودة لاحياء الانماط والنماذج التي استقرت في قوالب جامدة ، بل الى الينابيع التي تفجرت منها روح حيوية تولد انماطاً ونماذج . لهذا كان في شعري مايشبه الاستلهام لروح الفطرة في الشعر الجاهلي والثورة في الشعر العباسي التي انتهت الى غايتها من التطور في نتاج المتنبي . ولاشك انه يلمع في الشعر الحديث غضبة وثورة ونفار من واقع الحياة العربية الحاضرة ، وهذه تكاد تكون شبيهة بما عاناه المتنبي الذي عاش في عصر كانت فيه الحضارة العربية تشارف على الافول ، وكان المتنبي يحاول ان يبعثها من جديد ، كما حاول الاصيلون من الشعراء المحدثين في هذا العصر .

— الى أي حد عبر الشاعر العربي القديم عن المأساة الانسانية ؟

• المأساة في أساسها تقوم حول بطل يجسد أمة او حضارة . دون وجود مثل هذا الفرد او وجود الايمان به لايمكن ان توجد المأساة . هذا اصلا مع وجود الجوقة : عامة الناس يتحدثون ليخلقوا مأساة موت المأساة.

المتنبي تأمل عن امة ، وتألم من أمة ، وتفجع عن أمة ، لانه كان هو ضمير أمة من دون امراء عصره وحكامه ،

ذل من يغبط الذليل بعيش
رب عيش أخف منه الحمام

هذا القول المكتنز تكثيف لتجربة ، حدس شعري ينفذ الى اعماق النفس الانسانية

ليس هناك من فهم الناس في كل مضاعفاتها واحوالها من منتهى العزة والكرامة كما فهمها المتنبي . تجد عنده سلم القيم الذي تجده عند غوته . لقد تخطى القصيدة الغنائية الى التوتر المأساوي والملحمي . اقرأ قوله :

اذا زلقت مشيتها ببطونها
كما تتمشى في الصعيد الاراقم

تجد الصور سريالية . هناك سريالية مزيفة صادرة عن افتعال الفعل الواعي ، تأتي عن صور مصطنعة لتحدث تشوشاً مصطنعاً ، وهناك السريالية الاصيلة كما تراها في الملك لير لشكسبير ، عندما يختلط الوجود ومافوقه ومادونه . السريالية عند المتنبي اصيلة تنزلق على الوجدان العميق . نصف ألم المتنبي صادر عن عدم تلاؤمه مع تفاهة عصره . كان يجب ان يخلق المتنبي في عصر الفتوحات ، ذاك العصر الذي لم يجد شاعراً يتغنى بعظمته . ومن هنا كان تحسر المتنبي على عصر الفتوحات وقد اختصر المتنبي في بيتين مانعانيه حتى اليوم من شعور بسخف الحياة العربية وتجوفها :

وقت يضيع ، وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم ... وأتيناه على هرم

هذا الشعور بهرم الحضارة العربية حدس جعله يشعر انه جاء في عهد انحلالها . وهو شعور يسيطر على كل من تمثل في نفسه القيم العربية من عهد المتنبي الى اليوم .

ـ ماذا كان سبيلكم الى الابداع حين حاولتم شق طريق جديد يسير فيه الشعر العربي ؟

● لم يكن غرضي من الشعر تحقيق الابداع الشخصي بقدر ما كان احداث نهضة عامة ولهذا حاولت ان انطلق بمايدعى عادة بالمبادىء البديهية التي تنطلق منها النهضات الشعرية في عصور مختلفة وامم مختلفة . لهذا ، كنت احاول جاهداً ان اتخطى المذهبية الضيقة وأرسي الشعر على قواعد رحبة تستطيع الاجيال اللاحقة ان تبني عليها مذاهب متعددة متباينة . لهذا كله ، حاولت ان اجدد بالايقاع دون ان الغيه كما فعل السرياليون واجدد بالصورة واجعلها عنصراً معادلا في القيمة للايقاع فأكون قد تحاميت تطرف

المذهب الرمزي الذي حاول دعاته ان يغلبوا الايقاع على الصورة تغليباً يكاد ينفي فاعليتها في البناء الشعري . ذلك اني رأيت خير الشعر السريالي والرمزي ماتخطى الحدود المذهبية وأفاد من الصورة والايقاع معاً ، كما نشاهد ذلك في الناتج من محاولات مالارميه الرمزي وايلوار السريالي . واخطر من هذا كله اني لم ادع الايقاع او الصورة يصبحان غايتين يقصدان لذاتها ، بل اعتبرتها وسيلتين هامتين في تجسيد التجربة التي حاولت كذلك ان اجعلها تجربة كلية تتحد فيها الذات بالموضوع والمجرد بالمحسوس ومافوق الواقع بالواقع . وتجربة مثل هذه لايجدي في تجسيدها التقصد الواعي وحده ، وعبثاً يستهدفها الشاعر مالم يتصف بقدرة الحدس اللاواعي الذي يجعله يتحسد بمايعد لاوعي امته ولا وعي الانسانية في تاريخها الطويل وحاضرها والتفاتها الى مستقبلها .

ويكون مدى التجربة وعمقها مرتبطين بفوران اللاوعي فوراناً تلقائياً يوجهه ويضيئه الوعي ، وهو اشبه بقانون داخلي ينمو مع نمو التجربة فينظمها انتظاماً داخلياً يحررها من اسر الاشكال الخارجية والقوالب الجامدة .

غير ان الايقاع وحده والصورة الجزئية وحدها يعجزان عن تجسيد التجربة الكلية التي وصفتها . وهنا تبرز قيمة الرمز في البناء الشعري فهو صورة كلية تشيع في مفاصل القصيدة واجزائها دون ان تبرز معالمها واضحة سافرة .

ولاينهض الرمز بهذه المهمة الكبرى في البناء مالم يكن اسطورة تراثية شعبية قائمة في ضمير الأمة ، هذا القيام يولي الشاعر قدرة على الاشارة السريعة الى الاحداث في الاسطورة دون سرد لها او تقرير . وللرمز المستمد من الاساطير التراثية الشعبية وظيفة اخرى هي الايصال واشراك الآخرين بتجارب الشاعر وادخالهم الى عالمه بيسر وألفة .

وهذه الصفة في شعري جعلته يفترق افتراقاً حاسماً عما سبقه من تجارب شعرية حاول اصحابها ان يفيدوا من الاساطير . ان بعض هؤلاء انجذب الى اساطير غريبة غير عربية فجاء شعرهم غريباً عن طبيعة امتهم كما فعل سعيد عقل في (بنت يفتاح) حيث تجد يفتاح بطلاً اسطورياً . وبعضهم فاته الاستخدام الصحيح للاسطورة فكان ان وردت في شعره حكاية مطولة تفتقر في بعض اجزائها للتوهج الشعري كما كانت عادة تنتهي الى عبرة اخلاقية خارجة عن طبيعة الشعر ، والمثل على ذلك قصيدة (شمشون) لأبي شبكة التي تنتهي بالبيت الاستعباري التالي :

« ان تكن زجت الخيانة شعري في ضلالي فقوتي في شعوري »

اما الرمز في شعري فالامثلة عليه وفيرة ومنها رمز السندباد الذي قام برحلات سبع في دنيا الواقع فأهملت هذه الرحلات وابدعت له رحلة ثامنة . والسندباد في رحلته هذه مبحر في عالم ذاته يحاول ان يصفيه من رموز عصر الانحطاط وان يعود به الى حال البراءة الاولى التي تجعل السندباد نفسه قد عاد طفلا بريئاً صافياً .

ــ يلوح من كلامكم انكم تتبينون طرق التعبير الاصيل معزولة عن المدارس الادبية . فترون في المتنبي مثلا ملامح سريالية .. فماذا ترون في السرياليين العرب ؟

• تجتاح غالبية المحاولات الجديدة امراض مثل التشتت في الصور والفراط المضمون . ويعود ذلك الى ان بعض الذين فتنوا بالسريالية اخذوا بخارجياتها فقط ، وفاتهم فهم النظرة السريالية الى طبيعة النفس وطبيعة الوجود . ولم ار بينهم من تنبه الى اعتقاد السرياليين مذهب هيرقليط في الصيرورة المستمرة ، ومذهب فرويد في اعلائه الغرائز على ملكات النفس العليا . وكان الجيل الذي سبقنا نحن رواد الشعر الحديث قد حاول ان يكون رومنطيقياً من الخارج فجاءت رومنطيقيته شاحبة زائفة . هكذا تبدو لنا الان باستثناء المحاولات الاصيلة التي حققها جبران ، واخشى ان يكون مصير النتاج السريالي الشائع اليوم مصيراً مشابهاً لمصير تلك الرومنطيقية .

ــ ان اكباركم لعبقرية المتنبي يفسر لي ملاحظة نقدية وضعتها حول شعركم وهي أن شعركم هو الوحيد الذي يخلو من الحشو .

• كلما كانت النار قوية تلاشى الحشو . فالنار التي تحرق الشاعر تحرق التوافه . هذه ليست براعة صناعية . الحدس المتوهج ينصب على المادة التي يعبر عنها فيحرق كل عالقها من زوائد وتوافه . وهذا مايجلو النموذج الانساني ويبرزه وليس سرد التفاصيل والأحداث . ولولا أنني أعالج نفسي كما يعالج المريض نفسه بعد كل قصيدة لأتلفني الشعر وانطويت من زمن بعيد .

بين القصيدة المنداحة المهلهلة والقصيدة المكتنزة المتوهجة بجوهر سقطت عنه الزوائد ، مسافة غير متناهية ومعاناة للخلق لا يعرف صعوبتها المرهقة المتلفة الا من عاناها ، من هنا ينطوي كل شاعر على ناقد بالفطرة والحدس ، فهو يحدس أن هذه اللفظة في غير موضعها ، وأن هذا المعنى جاء عن طريق التداعي غير المبرر : وساقته الالفاظ التي تتداعى تداعياً روتينياً في الكلام العادي . ان الشاعر يجب أن يرفض التداعي اللفظي المكرر القائم في طبيعة اللغة . من هنا يصح رأي فاليري حين يقول ان الشعر هو خلق لغة في قلب اللغة . وكل شاعر أصيل يعرف عادة من أصالة قاموسه الشعري ، بحيث يأتي بعده من يفيد من قاموسه الشعري ، فان كان المستفيد شاعراً كبيراً أفاد ممن وفر له الحجارة الصالحة للبناء ، وان كان قزماً كان أخذه بالقاموس ضرباً من الاتباع والانسحاق الذي ينفي شخصيته نفياً تاماً .

ولو عدنا الى تاريخنا الادبي القريب لوجدنا أن لغة الشعر قبل نهضته كانت تستمد من قاموس مصطنع منقول بأكمله . ومن هنا وجب أن يتصف الشاعر بضربين من الحدس النافذ ، حدس ينفذ الى أعماق الوجود . وحدس ينفذ الى أعماق اللغة وعبقريتها .

ان أصالة الشاعر عميقة الجذور والتواشج بالروح القومية واللغة القومية ، فالثقافة تتصل باللغة اتصالاً عضوياً . وكل لغة ترتبط بعبقرية مبدعة ، فلم نجد الانكليزية أصالتها الا على يدي شكسبير ، والالمانية على يدي غوته ، والعربية تأصلت في الشعر الجاهلي والقرآن والمتنبي .

ـ أثار الانتباه صمتك بعد قصيدة « العازر » . فعزاه البعض الى صدمة شخصية ، وعزاه البعض إلى موقف سياسي وقومي !

● يرجع صمتي الذي استمر سنوات الى أزمة حضارية والى موقفي منها ، وليس الى انطفاء لبضة الشعر في نفسي أو عدم قدرتي على تطويره في مجال التعبير والبناء . والواقع ، اني كنت قد عانيت في تطويري مرحلة من الرفض الجارف أدت الى اكتشاف قيم الحضارة من جديد . وكانت تجربة شبيهة بالاشراق الصوفي تجلى فيها الحاضر ماضياً والانبعاث المقبل حاضراً يقوم بمسح الحاضر .

غير أن التجربة التي عانيتها فيما بعد تكشفت عن رؤيا مفجعة تنفي ما أكدته قبل . وتشير الى أننا لسنا في زمن يشارف الانبعاث الأصيل . وكان بعض النقاد قد نعتني

« بشاعر الانبعاث الأول » . فلم يمنعني ذلك من الاخلاص ليقين التجربة والرؤياواعلان ماتكشف لي ، ان مايدعى بالانبعاث لم يكن سوى تكرار لترسبات عصر الانحطاط وليست عودة الى ينابيع الحيوية في الفطرة الأصلية .

ثم كانت قصيدة « العازر عام ١٩٦٢ » التي عدها بعض النقاد تعبيرا شموليا عن مرحلة بدأت قبل الهزيمة وما برحت تمتد الى اليوم .

ولما كانت القصيدة عطاء كبيرا مرهقا ، كان أمرا بديهيا أن تتلوها مرحلة صمت تسترجع فيها نفسي حيويتها .

وكان أخطر أسباب الصمت أن القصيدة أنذرت بأحداث وحذرت منها ثم راحت تلك الأحداث تقع تباعاً فكان انفعالي بها معاناة لمأساة تتكرر طالما كتمتها ، وأبيت أن ينتقل التكرار من المعاناة الى الشعر ، كما أبيت أن أعبر عن حالات شعرية تتخطى المأساة ولكنها لاتقوم في نفسي قياما يقينيا مبرماً .

كنت لاأرى مصيرا وخلاصا لي لايكون في الوقت نفسه مصير أمتي وخلاص أمتي وكان كلاهما يوجب تفجير طاقة الأمة من مكامنها — هذا مع الشك الموجع في وجود تلك الطاقة الواجبة الوجود .

ثم قام في نفسي يقين غريب هو يقين اليأس متى تحول الى مناعة رواقية لايحتاج في مجال البذل والتضحية الى تفاؤل يغذيه أو رجاء . فكان أن انشق الصمت وعبرت عن تلك الحالة بالقصائد التي اشتملت عليها أمسيتي الشعرية الأخيرة .

وربما كان للصمت الذي تعمدته واعتصمت به لسنوات من حرمة الكلمة وأصالة الموقف ما لم يكن يتوفر للافصاح مهما اتسم بالصراحة والجرأة .

ويجب الاعتراف أن الحس بالمأساة مازال ينسحب على قصائدي الأخيرة ، وهذا أمر حتمي ، ذلك أن المأساة مازال التجربة المحورية التي تنجذب اليها وتنصهر فيها الثمار الجزئية المتعددة المتنوعة . وقد هالني أن أرى جماعات كثيرة في الوطن العربي تقف من المأساة موقف من يلقي المسؤولية على الظروف والقدر فيتخدر فيه الحس ويعمى الوعي وينغمس في حال من الرضى الغبي والاستسلام المطلق . لذلك كان الشرط الاول للتغلب على المأساة تعميق الحس بما تنطوي عليه من هول وفجيعة ، وهذه حال لايعيها ويعانيها سوى قلة من الافراد يتخطون الهزيمة من حيث هي حدث مباشر الى أسبابها الحضارية

المتشابكة المعقدة من فكرية واجتماعية وسياسية وغيرها . وهذا ماعبرت عنه في قصيدة « بروق وضباب » فجاءت ، كما اعتقد ، تعبيرا شموليا عن مأساة جيل ومرحلة وقد انصبت عليها الرؤيا المتوهجة فأحرقت مابداخلها من أحداث عرضية ولم تبق الا على المأساة في جوهرها الانساني . ومما يؤسف له أن يكون بعض الشعراء الذين أصبحت أسماؤهم رموزا تتحد بالمأساة لم يتخطوا مرحلة الضرب على الوتر الذاتي ندباً ونواحا ومراثي يتجهون بها الى الجماعات المهزومة ، ففاتهم الكشف عن الأسباب الخفية للمأساة والتعبير عن نموذج انساني تنصهر في كيانه وتتصفى في ملامحه ماهية تلك الجماعات وحقيقة حياتها المأسوية .

ـ ألا ترون أن موقفكم المعتزلي يكاد يشبه اعتزال المعري ؟ إني ألمح مشابهات كبيرة بينكما ؛ فقد كان شاعراً سلم بعبقريته عصره ، وها أنتم تنالون جائزة الدولة على مجموع انتاجكم الشعري . وكان المعري معتزلاً في أدلب ، وأنتم لا تغادرون الشوير إلا بما يشبه الكره . وهناك سبب عظيم يجمع بينكما ، هو حبكما للمتنبي . لقد درس المعري ديوان البحتري ودعاه « عبث الوليد » لكنه حين شرح ديوان المتنبي أسماه « معجز أحمد » ، وهـذا موقف نقدي . وأنتم ترفضون عصرنا مثلما كان يرفض عصره .

● لقد أدرك المعري بأن الشاعر قـد يداني بحدسه حدس النبوة . كان عصر المعري عصراً غلب فيه النقد على الشعر كما هو الشأن في الحضارات المعمرة . لهذا السبب نجد نقد المعري أفضل من شعره باستثناء قصيدته « غير مجد في ملتي واعتقادي . . » . والعبث الذي تحدث عنه الوجوديون كامن في رسالة الغفران ، فنهاية الحضارات تثير الشعور بالعبثية المطلقة . فهنري ميشو الشاعر المتعابث الذي يحول الامرأة الى حيوان أو ملاك لم يأت بأكثر مما أورده المعري في رسالة الغفران .

هناك معنيان للرفض يجب ان يفرق بينهما كل شاعر حديث ،

المعنى الايجابي ؛ ويتضمن رفض كل ما هو علة او مظهر من مظاهر الانحطاط والانطلاق من العناصر الحية في الحضارة . على الشاعر أن يفيد من الشعر الجاهلي وشعر المتنبي ، ففي بدء الحضارة تكون الحيوية متفجرة . وقد بدأ التفجر منذ الجاهلية ، وكان التفجر الأخير عند المتنبي .

المعنى الثاني هو المعنى السلبي . فهناك الرفض الذي هو نزق صبياني كرفض الحضارة العربية كلها من قبل شاعر ناشيء. هذا الموقف ينطوي على جهل بالقيم الاصيلة التي تجسدت في هؤلاء الشعراء . وشعر هؤلاء الرافضين نسخ مشوه لمذهب غربي في الشعر ، أو انضواء تحت ظل شاعر غربي ورفعه الى مستوى المعصومين ، على أساس أن العصمة تأتيه من أنه غربي . ان جهل هؤلاء الأغرار بالحضارة الغربيـة لا يعادله الا جهلهم بالحضارة العربية . فهم يكتفون من الحضارة بمذهب أو بشاعر ، علماً بأن المفكر العربي لا يستطيع أن يفيد من الحضارة الغربية إلا إذا قبض عليها بكليتها ، وكان يحمل في نفسه معياراً أصيلاً للحكم على الحضارات في تطورها . وبفضل هذا المعيار يستطيع أن يفرق بـين المذاهب التي أتت باضافات اصيلة الى تراث الشعر الغربي وبين الصرعات والموضات والأزياء الشعرية العـابرة . ومن المؤسف أن يكون التأثر بالموضة الأخـيرة هو الأيسر .

على كل ، هناك الشاعر الغنائي الجيد ضمن اطار ضيق كالشعراء العذريين ،وهناك الشاعر الحضاري الذي يعبر عن ذاته وأمته وحضارته وتطلعات الانسان في كل عصر . وهذه مهمة لا ينهض بها الشاعر الا اذا اتصف بقدرة على التمثل والصهر لما يفيده من حضارات الانسانية ، بقدر اتصافه بالقدرة على الخلق . والصهر ضرب من الخلق . وأفضل مثل على هذا النوع من الشعراء هو غوته في مأساة فاوست . لقد كان غوته من العلماء والفلاسفة ، مثلما كان من كبار علماء عصره . ولهذا استطاع في مسرحيته أن يعبر عن مأساة الانسان الجرماني بطموحه اللامحدود ، كما عبر عن حقيقة الانسان في كل عصر وكل حضارة وأمة .

ـ وهذا هو ، في رأيي ، الشاعر العظيم . إنه أصيل .

• ان لقب شاعر عظيم له تعريفه بهذا المعنى ، هذا الشاعر يستوعب ويتمثل ما يستوعب ليطبع الأشياء بطابعه الخاص ، وهذا الطابع هو طابع عالم متكامل تكاملاً عضوياً ، تغلب فيه قيمة البناء على قيمة الحجارة التي دخلت في تكوينه . وهنا يبدو لنا سوء فهم بعض النقاد العرب للشعر عندما غلبوا قضية السرقات على الكثير من قضايا النقد . ولهذا السبب يجب التأكيد على ان كل ما استمده شاعر عظيم كالمتنبي — ولا بد أن نعود في كل مرة اليه — من التراث العربي واليوناني والهندي أصبح ملكاً له ، يحق له

أن يدعي ملكيته ادعاء شرعياً ومن هنا يكون قد أصل في التراث العربي كل ما أخذه من كل تراث .

فكل كلام عن سرقات المتنبي من أفلاطون وأرسطو والشعراء العرب «كلام باطل» ربما انطوى على ما تتسم به النفس العربية في بعض مراحلها من نزعة فردية تدفعها الى أن ترى في هذا الشاعر العظيم ، وفي كل عظيم ، تحدياً لما لم تستطع أن تقابله بتحد مماثل ، ولم تقبل أن تسلم له بهذه المكانة السامية في رفعتها . هذا الموقف من بعض النقاد العرب يملؤني بالأسى كلما رأيت الألمان يرفعون غوته الى مرتبة العصمة ، وكذلك يفعل الانكليز بشكسبير ، بل إنك إذا أردت ان تثير العداء في نفس الألماني أو الانكليزي ، فما عليك الا ان تنقد غوته أو شكسبير ، بينما ترى أن ما كتب في سقطات المتنبي يفوق ما كتب عن تفرده وعظمته .

ــ وهل ترون أن النقد الحديث مازال يقوم بدور سلبي؛ وبخاصة في إقامة الصلة بين الشعر والقراء ؟

• يجب الحديث عن قيمة النقد بذاته قبل الحديث عن اهميته في ايصال الشعر الى القارىء . ذلك ان الشرط الاول ان يكون النقد قادراً على النفاذ الى خفايا الشعر واسراره ودقائقه من حيث التجربة والصياغة . وفي هذا المجال لايجوز التعميم ، فبينما ترى بعض النقاد أمثال الدكتور انطون كرم والاستاذ ايليا حاوي يحاولون جاهدين الاحاطة بالشعر الحديث من حيث ارتباطه بالتراث الشعري العربي والواقع العربي والشعر الغربي ثم الانطلاق من هذه الثقافة المكتملة ، نجد ان الغالب على معظم النقاد التقصير في هذه المجالات جميعاً . وكان ان شاع الاعتقاد بان النقاد قد قصروا في مجالهم وفاتهم التذوق الصحيح والتقييم الصادق لما انجزه الشعراء في مجال الخلق . واقبح ما ابتلي به الشعر الحديث وأفدح ما نزل به هو النقد السوقي الصحفي في بعض الصفحات والملاحق الأدبية من الصحف ، هذا النقد قد اقام سوراً من الضجة المفتعلة بين الشعر والقراء . فالقيمون عليه هم غالباً من انصاف المثقفين الذين يحاولون بنقدهم كسب وجاهة اجتماعية لايستحقونها . وكان خيراً للشعر ولهم ان يقتصروا على سرد اخبار الشعراء في طرفاتهم ومباذلهم . وفي هذا المجال يستثنى ما ظهر من مقالات قليلة نادرة لشعراء ونقاد اصيلين .

ــ اسمحوا لي أن أعود الى مشكلة الأصالة والتراث : فهل تتجلى الأصالة

في الشمول أم في الخروج على المألوف أم في تكوين شخصية تدفع الآخرين الى تقليدها ؟ وهل هي في التعبير عن قضايا العصر أم نراها في التبشير بعصر جديد ؟

• كانت مهمة الشاعر العربي الحديث مهمة الشاعر الأصيل في كل عصر وامة يحاول ان ينفذ بحدسه وتجربته الى اعماق قضايا العصر ، وهي محاولة عسيرة تقتضي القدرة الفائقة على معاناة الحياة بقدر ما تقتضي القدرة على التعبير عن تلك المعاناة . فالشاعر العربي الحديث لم يرث قاموساً شعرياً حياً جاهزاً يصلح أداة للتعبير عن واقع العصر الحديث . ولهذا كان من مهماته الأساسية الصعبة ان يبدع قاموساً صالحاً للتعبير عن ذلك الواقع ، فكان عليه ان يتحرر من القاموس الشعري الشائع على الأقلام الذي فقد القدرة على الايحاء لكثرة الاستخدام ، وكان بطبيعته قاموساً مستمداً من المعاجم منفصلاً عن الحياة ، فأبدع الشاعر الحديث قاموساً جديداً مستمداً من مصادر بكر هي اللغة العربية الحيسة القريبة من اللغة المحلية ، ولم يحاول التفريق بين لفظة شعرية بذاتها ولفظة غير شعرية كما فعل اسلافه الجاهليون ، غير انه كان متى استعمل تعبيراً نثرياً شحنه بتجربة متوهجة تسقط عنه صفة النثرية فيصفو ويتوهج بالشعر ، وقد اولاه اتساع قاموسه القدرة على التعبير عن واقع الحياة اليومية وما فوق الواقع وما دونه . ومن الأمثلة على التعبير عن الواقع البيت التالي :

« إبني ، وقاه الله ، كنز أبيه ، جسر البيت ، يحمل همنا هماً ثقيل »

فهذا التعبير كان محرماً عليه دخول نطاق الشعر قبل الحداثة .

وأعتقد اني وفقت في التعبير عن المظاهر المستجدة في حياة العصر واحداثها المعينة في حيز الزمان والمكان كما يتمثل ذلك في قصيدة « وجوه السندباد » التي تنزع منزع السيرة الذاتية لما اشتملت عليه من تجارب عانيتها خلال رحلتي الى كامبردج والسنوات التي امضيتها هناك . وشبيه بها قصيدة « المجوس في اوروبا » التي تعبر عن موت الايمان في ذات الانسان الحديث وتحول الشاعر الى ما يشبه الكاهن الوثني الذي يقوم بطقوس سحرية تموه الواقع وتلونه بزخارف تخفي فجائعه . وكنت قبل ذلك قد عبرت عن حياة الوحدة والفراغ والضياع في شوارع بيروت من حيث هي رمز لكل مدينة في العالم العربي . كذلك حاولت ان استوعب الآلة ، رمز الثورة العلمية الحديثة ، واسبغ عليها من الصفات ما يجعلها أداة مألوفة في عالم الشعر ألفة الادوات القديمة التي اصبحت شعرية بذاتها كالسيف والمحراث وغيرهما .

أما في السؤال عن أصالة التجربة فيجب ان نبدأ بالجواب مما يعد مهمة اولى للشعر وتلخص بأصالة التجربة وأصالة التعبير عنها، ثم تليها في الاهمية مسألة الايصال. واعتقد ان الشاعر الحديث قد قطع المسافة المطلوبة منه نحو القارىء في هذا المجال. ويبدو ان الشعر الحديث قد اصبح في الفعل شعر الطبقة المثقفة حيث لاينازعه منازع، وقد عبر عن قضايا تهم الطبقات جميعاً واصبح على الطبقات التي لم تنل حظاً ملحوظاً من الثقافة ان تعمل بدورها على الارتفاع الى المستوى الذي يخولها تذوق الشعر الحديث وادراك مضامينه وصياغاته الاصية.

ـ ما الذي يحول بين شعر روادنا العظماء وبين الانتشار العالمي الى جانب كبار الشعراء المعاصرين في الوقت الذي يتألق فيه ابداع شعرائنا العظام ويخفت فيه صوت الشعر في الغرب؟

أن مايطلب من الشعر ليكون عالمياً هو تعبيره عن قضايا انسانية عامة من خلال التعبير عن قضايا ذاتية محلية قومية. ان ماهو عام ومطلق يجب ألا يدخل الشعر الا بعد أن يتحدد بالمحسوس ويتجسد في الواقع. واعتقد اعتقاداً مبرماً ان الكثير من نتاج الرواد يتصف بهذه الصفات. أما اذا قصد من العالمية ان يرتفع الشعرالعربي الحديث الى مستوى الشعر الغربي الحديث فأرى ان هذا الأخير هو في حال انكماش بالحيوية المبدعة ويتجه كما تتجه الحضارة الغربية بمقوماتها الاساسية في طريق الانحطاط والانحلال. ولهذا كان شعرنا الحديث أرفع من الشعر الغربي الذي يعاصره. وآخر المبدعين في الشعر الغربي جيل سابق لجيلنا هو جيل آراغون وسان جون بيرس والبرتي وغيرهم. وهذا جيل قد امتنع عن العطاء الخصب الأصيل منذ زمن غير قصير.

أما شعبية شعرنا الحديث أو عدم شعبيته خارج العالم العربي فتستند الى عوامل عديدة غير مرتبطة بطبيعة الابداع الشعري. وهذه العوامل لم تتوفر جميعاً لشعرنا، ومنها الترجمة. وقد ترجم بعض شعرنا الى لغات غربية عدة في مجاميع قلية ومجلات يغلب عليها الطابع الاكاديمي الصرف. كما ترجم بعض شعرنا وكتبت فيه أبحاث عديدة. غير انها كانت ترجمات وأبحاث تقدم بها طلاب متقدمون لنيل شهادات عليا، وقد تم ذلك في كل من اوكسفورد وهارفرد وبرنستون وشيكاغو وبعض الجامعات الفرنسية.

أما أخطر العوائق التي تحول دون انتشار الشعر العربي الحديث فهي عوائق خارجة عن طبيعة الشعر مرتبطة بوسائل الدعاوة الثقافية التي تقوم بها الدول الغنية

المتقدمة وتفتقر اليها الدول العربية . ونحن نعلم من واقع التاريخ ان الدولة الكبرى التي تطبع الحضارة العالمية بطابعها في عصر ما وتكون محوراً لها يغدو شعراؤها عالميين أحياناً دون أن يكون شعرهم متصفاً ضرورة بصفات انسانية تبرر انتشاره خارج حدود الأمة التي يصدر عنها . ويتبع ذلك عالمية اللغة التي تستخدمها تلك الأمة ، ان من يكتب باللغة الفرنسية او الانكليزية مثلا يضمن لشعره انتشاراً يبلغ مستوى عالمياً بفعل عالمية اللغة . أضف الى ذلك الاحتفال البالغ الذي توليه المؤسسات الثقافية في البلدان الاوربية والاميركية للترجمة والتوزيع .

ومن المعلوم ان انتشار اللغة العربية خارج العالم العربي اقتصر على بعض البلدان الافريقية التي ماتزال تغلب على أهلها الأمية ، وان مؤسساتنا الثقافية لم تحاول ان تقوم بعمل جدي في مجال النشر والتعريف بالأدب العربي .

ـ ماهي الأخطار التي تكتنف شعراءنا الناشئين ؟

• لقد نقدت في الجواب عن سؤال سالف الزي الشائع والصرعة الأخيرة التي وسمتها بسمة التقليد الكسيح لآخر الصرعات في الشعر الغربي . ومتى أدركنا أنها في الشعر الغربي نفسه لم تستطع ان تكون محاولات قابلة للنمو والتطور أدركنا ماسوف يكون مصيرها المحتوم في شعرنا ، فهذا غينسبرغ ، الشاعر الاميركي ، لم يستطع ان يكتب سوى قصيدة واحدة صالحة عنوانها : النباح . وكل ماكتبه بعدها جاء أدنى مستوى وأقل قيمة . وهناك خطر آخر يهدد الشعر العربي الحديث لم يفلت منه بعض رواده هو طلب التطور المفتعل بالانتقال من مذهب الى مذهب قد يعارضه ، انتقالاً يجعل نتاج الشاعر ركاماً من طبقات ملونة وكل طبقة بلون . وشرط التطور ان يكون نمواً من الداخل وانطلاقاً من طبيعة التجربة الاولى . هكذا كان تطور شاعر كبير مثل ، فاليري .. تطوراً لم يفقده أصالته . ومثله كان تطور سان جون بيرس . أما عندنا فالتطور الذي طلبه بعض الرواد كان أشبه بتحول فاليري الى سان جون بيرس او سان جون بيرس الى فاليري وبعد ذلك الى اراغون. فاذا تيسر لهذا البعض الاطلاع على او تغارتي أو البرتي أو مارينتي لانجد بأساً من ان يتقمص هؤلاء واحداً بعد واحد . وتجدر الاشارة الى ان رواداً آخرين سلموا من هذه الآفة الخطيرة ، اذكر منهم على سبيل المثال ، عبد الوهاب البياتي الذي حافظ على أصالته وطور شعره من خلالها كما يبدو ذلك صريحاً في مجموعته الاخيرة : « قصائد حب على بوابات العالم السبع » ، وبلند الحيدري الذي لمست اتساع

تجربته وعمقها وما اقتضته من تعديل وتوسيع في قاموسه الشعري وذلك في قصيدته الأخيرة : « حوار عبر الابعاد الثلاثة » ، التي تعددت فيها الاصوات – غير ان تلك الاصوات جميعاً تحمل نبرة الأصالة التي تملأ بها صوت الشاعر .

والشاعر الاصيل لاتفح وراء نتاجه شبحاً من أشباح أسلافه أو معاصريه سواء أكانوا شعراء عرباً أم غربيين .

وبكلمة ، يجب ان يتصف الشاعر بالقدرة الهائلة على صهر كل مايستمده من نتاج الآخرين وطبعه واذابته في شخصيته ونظرته الخاصة الى الوجود وطريقته الخاصة في التعبير . أضف الى ذلك ان الصهر شرط حتمي لتحقيق الوحدة العضوية والتطور العضوي في كل قصيدة من قصائد الشاعر وفي نتاجه بأكمله .

– هل ترى أن للشعر الحديث تأثيراً – ولو في المستقبل – على الواقع العربي؟

● لم يكن من طبيعة التجربة الحضارية التي عاناها الشاعر الحديث ان يجعله يقنع باجادة التعبير عما هو واقع ، لأنه كان وما زال واقعاً فاسداً لايسع المواطن المسؤول ألا يفكر تفكيراً ثورياً ويعمل عملاً ثورياً على تغييره اساساً وجوهراً . غير ان الشاعر يفترق ويمتاز عن المواطن العادي برؤياه النافذة عبر ما هو كائن الى ما يجب ان يكون . وكان الشاعر الحديث يحاول ، ما حاوله من قبل كبار الشعراء في عصورهم وامهم ، أن تكون رؤياه فاتحة عصر حضاري جديد . وهذا ما استطاع بعض الرواد ان يحققوه على مستوى الرؤيا والكلمة . ولا شك ان من المثقفين من كان يعد الشعر الحديث مصدر استلهام يستضيء باشراقه في الأزمات المدلهمة الكبرى ، وكان امراً طبيعياً ان يتغير تفكير هؤلاء تغيراً جذرياً بفعل تأثرهم تأثراً كيانياً شاملا بنتاج بعض الرواد . ولعل الأجيال التالية سوف تفيد من نتاج هؤلاء ما يجعلها تهدم في نفوسها الموروث الفاسد وتولد ولادة جديدة في رؤى الشعر الحديث وعوالمها البكر واجوائها الصافية .

وربما صح التأكيد انه كان للشعر الحديث من الأثر في تغيير التفكير العربي ما لم تملك القدرة على انجازه المعتقدات السياسية .

عذراء بيروت ١٩٧٣

قصة : غادة السمان

أمام المرآة الكبيرة في جناح « العرسان » بالفندق البيروتي الكبير . اجلس الحلاق الشهير الذي كنت اقرأ عن فضائحه في الصحف وسيدات المجتمع يلسق شعري .. انه وسيم وسيكون لي معه قصة بعد ان انتهى من شهر العسل الممل السمج . لم لا ، وأنا سأصير سيدة مجتمع مثلهن . لا . بل أجمل وأفق وزوجي أكثر ثراء من ازواجهن ؟

(لماذا ناديتني تلك الليلة ياعلياء ؟ ... لماذا أردتني ان أشهد مصرعك المروع ؟ اسرتك حولك مثل أكلة لحوم البشر ، والخنجر في يد والدك ، وزجاجة الديمول في يد أخيك يدفع بها الى فمك لتشربي وأمك سارعت الى نافذة الشرفة لتغلقها كي لا يسمع الجيران.

(*) من مجموعة « رحيل المرافىء القديمة » تصدر هذا الشهر عن « دار الآداب ».

المهم ألا يسمع الجيران او يدري الناس ، واما اختبأت في ظلمة الشرفة التي كنت قد قفزت اليها من شرفة غرفتي الملاصقة لغرفتك ، حين سمعت صوتك يناديني ، وعبر ثقوب الخص الخشبي شاهدت ذلك البريق في عينيك حين شربت السم بملء ارادتك ، ذلك البريق الذي أكد لي انك اخترت السم لأنك أردته ... وشربت الزجاجة كلها ... لماذا كانت الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والاعصاب وتذكرني كم هو بارد تراب المقبرة حيث ستكونين في الغد ؟... بعدها بدقائق ، قرع الباب والدك وأمك وشقيقك، وظننتهم قد ندموا لما فعلوا ، وجاءوا يطلبون النجدة ، جاءوا لاستعمال هاتفنا لطلب سيارة اسعاف لإنقاذ حياتك ... لكنهم دخلوا كعادتهم ... وقالت أمك لأمي كعادتها : جئنا نرى برنامج « ..... » في التلفزيون . ولم يكن في وجه أي من أفراد اسرتك تعبير ألم واحد ، بل بالعكس ، كان في وجوههم راحة من أدى واجبه ، وكان في عيني أبيك البريق نفسه الذي شاهدته فيها يوم عاد من أداء فريضة الحج ... وكان اسم الحلقة .. « شرف البنت » او شيء من هذا القبيل وعلى الشاشة ظهر المذيع « وسيم » يتحدث بهدوء ويبتسم بثقة دون ان يدري انه في هذه اللحظة بالذات تحتضر امرأة لأنها أحبته ... ولانها رفضت ان تبوح باسمه ...

لماذا ناديتني تلك الليلة المروعة يا علياء ؟ .. صرخة واحدة حادة مزقت صوت الريح والعاصفة .. جلست اسرتك ترقب التلفزيون ، وجلست أنا متحجرة عن الحركة .. أتأمل وجه وسيم واكتم سرنا المشترك ، حبنا المشترك . [رغم زعيق التلفزيون وتعليقات أمي وامك ، كان يخيل اليّ انني اسمعك وانت في غرفتك تحتضرين ، وربما تقرعين الجدار المشترك بين غرفتي وغرفتك ، وتحاولين نقل رسالة الي كما يفعل السجناء عبر جدران زنزاناتهم .. وفهمت الرسالة ..

لا ادري كيف لم اصرخ .. كيف لم اركض لانقاذك . كيف شاركت في جريمة التستر . كيف استطعت ان اظل صامتة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت ابخرة سود كأنما انفتح في دماغي شق من شقوق الجحيم ، وها هي الغيمة السوداء تحتلني الى الابد .. كنت اعرف ان جسدك يختلج وينتفض كجسد طير سقط في الجليد بعد أن اصيب بطلقة صياد لن يبالي حتى بلم جثته ..

بدلاً من ان اهرع لانقاذك ، هرعت الى المطبخ واعددت القهوة لاسرتك كأية فتاة فاضلة تعرف كيف تعتني بزوار امها .. واضفت كثيراً من السكر .. كثيراً من السكر ...

لم اجرؤ على الانسلال الى غرفتي.. لم اجرؤ على ان اقفز من شرفتي الى شرفتك ثانية . لم اجرؤ على ان اراك باردة وهامدة . لم اجرؤ على ان اسمع كلماتك الاخيرة . ففي تلك اللحظة شعرت انني ارى ملايين السكاكين التي يحملها رجال بلادي ، وملايين من زجاجات الديمول في المستودعات ، المعدة لقتل النساء والفئران .. ووعيت للمرة الاولى موقعي من كل ماحولي ومن حولي .. وسكنتني الغيمة السوداء] ..

هـا هي تدعك « بالكريم » ساقي وهي تزغرد وتعدني وليمـة شهية للرجل الذي سيحتلني ويحل في جسدي على الرحب والسعة .. اتأمل يديها واعرف انه كان من الممكن لها أن تحمل بها زجاجة ديمول لترغمني ذات ليلة على شربها.. وابي الذي يهرول في ردهات جناحي بالفندق يفتح الهدايا بسكينه الصغيرة ويطلق من آن الى آخر شهقات ارتياح واعجاب بالهدايا الثمينة ، كان يمكن له ان يوجه السكين نفسها الى صدري .. لو لم ..

لو لم افهم اللعبة بسرعة .. واتعلم ..

لو لم تحتلني الغيمة السوداء ..

لو لم اخف عنهم الحقيقة ..

الحقيقة ؟..

من يأبه بالحقيقة ؟

ثم ، ماالحقيقة ؟...

هل احببنا « وسيم » حقاً ؟ ... هل كان حبنا حقيقة ؟ ... ام اننا ذهبنا الى شقته تحت تأثير نداءات تلك الكاتبة التي تجاوبنا مع صرختها بأن نمنح كل شيء للحب، وان نتمرد ، وان نعيش بصدق ؟...

هل أحببنا وسيم ، ام احببنا التمرد ، ام احببنا العـالم الذي كانت تنادي به الكاتبة لين ؟...

(اشترينا كتابها خلسة . اخفيناه عن أهلنا بين كتبنا . فقد شاهدتها امرتانا في مقابلة تلفزيونية ، بشعرها الغجري ، وأثارها انها اصرت على التدخين ، وانها تحدثت عن الحرية والثورة الجنسية وضرورة تحرر المرأة ، وقال ابي ان الرقابة يجب ان تمنع مثل هذا الافساد ودهش أبو علياء كيف يلقبونها بأديبة مع انها « قليلة الأدب » بدليل انها تدخن ولم يناما الا بعد ان كتبا رسالة احتجاج الى التلفزيون بعثا بصورة عنها الى

المقتي وصورة اخرى الى احدى الصحف ، وحذرانا من قراءة كتبها ، او أي حرف تنشره في المجلات ، تحت طائلة العقاب الشديد ، اي اخراجنا من الجامعة ... وكنا قد نجحنا في الدخول الى الجامعة بعد معركة عنيفة دامت طوال الصيف ، ولم يكن قد انقضى على العام الدراسي اكثر من ستة أشهر ، ولم تكن لدينا القدرة على مواجهة زوبعة جديدة .

وتناوبنا قراءة كتاب لين .

كانت الشمس تشرق من صفحاته... كل سطر فيه دعوة الى الحياة والى التجربة والى الحب ، والى التخلص من خدرنا الاجتماعي الذي نتوهم انه حياة ... كان دعوة الحياة الحقيقية والا فالموت أفضل ....

وكان وسيم ... شاهدناه على شرفة « بناية البستان » المواجهة للجامعة ... صرنا نتعمد اختيار مقاعدنا في الصف بحيث نكون قادرتين على رصد نوافذه ، وستائره البنفسجية التي تسدل عادة بعد ظهور احدى الجميلات على شرفته وشربها كأساً من الويسكي « كنا نظنها ليموناده يومئذ » ثم يتبع ذلك دائماً اسدال الستائر اكثر من ساعة، وكنا ننسى ما يدور في الصف ، ونطلق خيالنا الى ماوراء تلك الستائر الليلكية لتتخيل ما يدور ... نتخيل شفتي وسيم اللتين نعرفها جيداً حين تتكوران في التلفزيون امامنا بينما هو يتحدث ، ونتخيله وهو يطبق بها على شفتي الزائرة المجهولة... وكانت الستائر تخفق وانفاسنا تتسارع وتضطرب ، والستائر ترتجف ، تهيج، تجن ، ونحن عبثاً نطفىء النار التي انبثقت في مسامنا كلها ... واخيراً تبدأ الستائر حين يرفعها ، ونسمع صوت انزلاقها - او يخيل الينا ذلك - حاداً وقاطعاً مثل سكين تمزق خيمة ، وتنتهي مسرحيتها التي كنا نشارك فيها دون ان يدريا ... بل ربما كنا نرتجف ونتمزق اكثر من تلك التي يضمها خلف الستائر ... كنا المتفرجين الذين يعيشون المسرحية اكثر مما يعيشها ممثلوها ...

لذا لما كنا نلتقي به امام مدخل البناء صدفة ، كنا نبتسم له بخجل ودود خائف كأننا شركاء في سر شهواني واحد . .

وكان يطل من عينيه حين نحدق به تواضع مصطنع ولطف مسرحي مثل تلك النظرة التي تطل عادة من عيون المشاهير امام الناس العاديين حين يحدقون بهم كأنما يقولون لهم : لقد عرفناكم ..

ولذا لما تجرأ ودعانا الى بيته لشرب الشاي ريثما يحل موعد الصف – وكان موعد الصف بعد ثلاث دقائق – كان صوته مستريحاً ، بل وفيه بعض الضجر والتعالي.. وصعدنا معه دون تردد .. كنا نموت شوقاً لرؤية ماوراء الستائر البنفسجية .. لرؤية المكان .. الذي نتعرى به ونقبل ونستلم ونحيا ونمنح ونشهق ونلهث ونرتعش بينما نحن في الصف ..

دخلنا ..

ولم يخيب المكان احلامنا ..

كان صدفة بنفسجية ..

الجدران .. الارائك .. الاضواء .. مزيج مسحور من الاسود والبنفسجي والموسيقى كالاضاءة لاتدري من اين تنبعث .. وغرفة النوم ، الستائر بنفسجية والجدران ، والسقف اسود ، وملاءة السرير سوداء والوسائد الحريرية بنفسجية ..

كان حلماً عجيباً . .

حلما اشتركنا فيه علياء وانا بكل براءة .. ببراءة لاتعرف الرغبة في الامتلاك او الاحتكار .. ببراءة لاترفض المشاركة .. وكما ان الطفل لايبكي لان الشمس تشرق لسواه ، كذلك لم يضايق علياء ان تذهب الى الصف وابقى انا مع وسيم على ان نتبادل الادوار في اليوم التالي .

سألني : هل انت عذراء ؟

قلت بدهشة : طبعاً ، لماذا ؟ بدا عليه الضيق ، وتأفف ، ثم قال ، هذا لايهم . سنحتاط للامر . لاتخافي ، سأكون حذراً.

قالت لي علياء في الاسبوع التالي انه سألها السؤال نفسه ، وابدى الضيق نفسه.

صدر كتاب جديد من تأليف لين .. اشتريناه . قرأناه . بعد اسبوع قالت لي علياء ، مريم لم اعد عذراء . قلت لها : وانا ايضاً ، ولكن الامر لايهم ..

كل مافي الأمر انني لاحظت بعد ذلك ، وللمرة الاولى ، ان السرير البنفسجي الذي كان يحتويني كحلم ، كنجمة تطير بي ، صرت الحظ صريره الحاد تحتي ، وبدأت أعي انه مجرد سرير حديدي .

بعد شهر قالت لي علياء : وسيم لايريد ان يراني . يريد مني ان التفت لدروسي فقد اقترب موعد الامتحان .

قلت لها : وانا ايضاً .. لاحظت فتوره .

انقضى اسبوع ، وعادت الفتيات يظهرن على شرفته والستائر تستبدل .. وترتعش .. حتى جاءته هي ، الممثلة المشهورة .

كنا في الصف حين شاهدناها للمرة الأولى على الشرفة .. خيل الينا اننا نعرفها ، فقد كنا نراها تمثل في احد برامج التلفزيون ،. تلك الليلة عرفنا للمرة الأولى الغيرة . كل الناس كانوا يبدون لنا غير حقيقيين وبالتالي لايمكن ان يثيروا حبنا او غيرتنا الا اشخاص التلفزيون والروايات والقصص .. وحدهم كنا نحس بهم حقيقيين وبالتالي نغار .. كل النساء اللواتي شاهدناهن على شرفته لم يثرن غيرتنا .. كنا نحس انهن مجرد وهم . .

اما هذه الفتاة التي شاهدناها تمثل فقد كانت من طينة بطلات الروايات مثل بطلات قصص لين .. كانت حقيقية بالنسبة الينا ..

وا كلتنا الغيرة ..

وتعذبنا ..

لاادري كيف خطرت لي الفكرة . كنا ببساطة نتعذب ، وكان لابد لأحد من ان يكون مسؤولا عن عذابنا — أي « احد » ماعدانا — وقلت لعلياء ، سنذهب الى لين هي مسؤولة عما حدث . .

وقالت علياء وقد غرقت في تفكير عميق..لايامريم . لاأظن ان لين هي المسؤولة ولكن فلنذهب اليها على أية حال .. اريد ان اراها وأتحدث اليها .

بيتها كان صغيراً . بسيطاً . يكاد يكون فقيراً لولا جمال مشهد البحر خلف النوافذ . لااثاث فيه سوى اوراق وكتب واسطوانات متناثرة فوق (موكيت)زيتي، وفراش صغير على الارض مغطى بفرو الارنب في ركن الستود يكمل لوحة الفوضى حولها ...

كانت جميلة ، ولا تبدو اكبر سناً منا بكثير ... دخلنا ، ارتبكنا ، لم نقل شيئاً. صرنا نتهامس . قالت لين بفظاظة ، آسفة ولكن ، لدي عمل انهيه للمجلة التي اعمل بها . لاوقت لدي اضيعه ربما تنتهيان من همساتكما . ماذا تريدان مني .

قلت لها فجأة ، انت مسؤولة عما فقدنا !.. هذه علياء وانا مريم ولم اعد عذراء ولا هي . وقد فعلنا ذلك كله تحت تأثير حروفك وتعاليمك .. ماذا تملكين لنا الآن . ماذا نفعل !

انفجرت لين تضحك . تضحك . ثم انصتت بهدوء بينما رويت لها الحكاية .

قالت : اذن القضية انكما فقدتما الرجل الذي تحبان لانكما منحتماه نفسيكما ؟ هذه مشكلة طبيعية لابد وان تمر بها كل فتاة متحررة في مجتمعنا الانتقالي هذا ، فالرجل الشرقي مازال يخاف المرأة التي تمنح ... انه ما يزال يتوهم الحب والعطاء تهتكا وهو لذلك لايتزوج المرأة التي تحبه وتمنحه ذاتها ، وانما يفضل التي يشتريها ، فذلك يمنحه حساً بالامتلاك والامان اكثر ... الحل ؟ لاحل لجيلنـا .. لامفر للمرأة من ان تعيش هذه التجربة المروعة مراراً وتكراراً ريثما ينضج الرجل .. وتستعيد عواطفه انسانيتها ..

قالت علياء بنفاذ صبر ، لم اعد عذراء . هل تفهمين معنى ذلك ؟ سيقتلني اهلي لو علموا !..

فبكيت بدوري : لقد فقدنا عذريتنا . هل تفهمين معنى ذلك بالنسبة لنا ؟..

وانفجرت لين تضحك وتضحك. ملأت كأساً من الويسكي وبدا في عينيها حزن حقيقي ما .. قالت باستخفاف : و اذن هذه هي كل المشكلة .. بسيطة .. كنت اظنكما تتألمـان بشكل احق .. اذن كل المشكلة هي عذريتكما . أي لو عدتما عذراوتين لانتهت مسؤوليتي ، وانتهى عذابكما ..

صرخت علياء : طبعاً .

قالت لين : يا للغباء . ألا تعلمان ان التكنولوجيا حلت مشكلة البكارة ؟ وان أية مومس من « حي المتنبي » تستطيع ان تعود عذراء بـ ٣٠٠ ليرة لبنانية ؟.. الطب الحديث حل هذه المشكلة .. يستطيع الطبيب ان يخيط لكن ماتمزق، اذا كان كل ماتمزق ، هو اغشية جسدية .. كنت اظنكن تبكين تمزقـاً اعمق . تمزقاً في لحم الروح .. تمزقاً في اعصاب النفس. . بسيطة . . وتناولت الهاتف وهي تقول : لدي طبيب صديـق ، سيجري لكما العملية « على حسابي » وبسرية تامـة . (سألت مذهولة ، ألن يعرف احد ؟

بسخرية ردت : طبعاً لا . حتى لو جاء الرجل الذي سيشتريك فيما بعد بطبيب مع الكاهن ليتأكد من انك (صاغ سليم) . لا .. ربما يقدر الطبيب الماهر اذا زود بالمعدات الكافية ان يلحظ آثار العملية . . ولكن ربما ينكشف الامر للجميع ويشيع خبر هـذه العمليات ، لن تواجها هذه الورطة ، لذا سارعا باتمام صفقة زواج . . اجل ! اعتقد ان

الرجــل العربي سيتزوج من الآن فصاعــداً على يدي كاهن وطبيب خبير يفحص له « البضاعة » !.. ولكن يوم يتقن الطب اجراء هذه العملية ، وهو يوم قريب جداً ، سيكون على الرجل العربي ان يعيد النظر في مقاييسه الاخلاقية كلهــا التي يقيم بها المرأة « الشريفة » وغير « الشريفة » .

وبعد حديث هاتفي سريع ، كتبت لنا على ورقة عنوان الطبيب ورقمه الهاتفي قالت لنا : قولوا له « متى تستطيع اصلاح الجوارب المثقوبة » وسيفهم . هذه هي كلمة السر . التكاليف سأدفعها انا مقابل شيء واحد : ان تخبراني بعد العمليــة ، هل انتهت المشكلة حقاً بالنسبة اليكما ؟

— لمــاذا ؟

— لانني اريد ان اعرف لمن اكتب ، وعلى من اتلو مزاميري !..

- لانه اذا كان وجودكن كله ومشاعركن كلهــا هي مشاعر اليهودي البخيل الذي يملك بضاعة واحدة ، تتوقف حياته على حسن الاتجار بها ، واذا كنتن راضيات بذلك ، فسوف امزق هذه الصفحات التي كتبتها قبل ان ادفع بها الى المطبعة . من الواضح انكم فهمتم كل ماقلته في كتبي خطأ .. وظننتم انني احرضكم على المغامرة « برأسكم » .. انني احرضكم على ان تحفظوا انسانيتكم (عذراً لكنني اكره نون النسوة) ..

وخرجنا من عندها . وبرت بوعدها . وبر الطبيب بوعده . ولكن شيئاً لم يعد كما كان ..

علياء بدت مريضة بعــد العملية . ظننت ان ذلك بتأثير « البنج » والخجل ، والممرضة التي كانت تنظر الينا باحتقار ، والطبيب الذي اختبأت خلف صمته قهقهةساخرة. ولكن الامر تزايد يوماً بعد يوم ..

كانت تبدو كمن اضحى ذليلاً .. قالت لي ذات مرة فجأة : « لم اعد احتمل هذا العار . لقد بدأ العار يوم رضيت باجراء العملية ، لا قبل ذلك كما توهمنا . (ثم تغيبت عن الصف ذات يوم ، وشاهدت من النافذة الستائر البنفسجية تخفق في شقة وسيم بعــد أن تسدل ..

ولمع في خاطري شيء رهيب ..

وليلاً جاءت مغسولة بالمطر والدمع .. قالت : لقد انتهى الكابوس وتخلصت من آثار العملية . عدت الى وسيم !..

وشعرت انني احسدها ، وانني لا اجرؤ على ان افعل الشيء ذاته.. كنت مريضة الروح مثلها ، مجلودة بالاحتقار الداخلي المقهور .. ولم اكن اعرف كم يمكنني ان اقاوم خوفي من السكاكين والخناجر ..

وكي لاأذهب مثلها الى وسيم ...

كنت كل صباح اسارع الى الصحف لاقرأ صفحة الجرائم ، واختار جرائم الشرف بالذات ، واستغرق في قراءة تفاصيل كيف ذبح أخ اخته (من الوريد الى الوريد) ، وأتأمل صور الذبيحة فأرى صورة وجهي في كل صورة لجسد مذبوح ، أو كيف طعنها ابن عمها بالسكاكين ثم رشف رشفة من دمها ثم ذهب الى الشرطة مزهواً ،أو كيف شاركت الأم في قطع رأس فتاة وجزه عن جسدها وكيف حملوا رأسها في الكيس الى القرية ليعرضوه على كبارها شهادة لهم في حسن السلوك الاجتماعي .. وكنت أتخيل انني أنا التي تقتل وتذبح ويحز رأسها ويمزق جسدها ، واحس بان الثقوب النازفة تنفتح في جسمي كله .. وامضي يومي نازفة ممزقة وخوفي على علياء يتزايد .. وحرصي على (عذريتي) الجديدة يتصاعد ..

وخيل إلي ذات يوم انني لاحظت بطنها يتكور ، وقلت لها ضاحكة : انت بحاجة الى ريجيم ..

وليلتها سمعت صرختها من الشرفة ... [لماذا ناديتني تلك الليلة ياعلياء ؟ لماذا اردتني ان أشهد مصرعك المروع ؟ امرتك حولك يشدونك في الصحراء ، ثم تفور عاصفة من الرمل وتدخل في عيوني ، واراك عبر سحابة الرمل والدموع تجرعين كأس الديمول ، وأمك سارعت الى النافذة تغلقها كي لايرى الناس ، كان من الضروري ان تموتي كي لاتعيش « الفضيحة » . لماذا كانت الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والأعصاب ، باردة كنظرات أهل العريس الحذرة الى العروس ريثما يخرج اليهم العريس بقطعة من القماش ملطخة بالدم فتدق طبول أهل القرية ويبدأ الرقص البدائي حول الذبيحة المضمخة بالدم والغربة ؟..

لماذا ظللت صامدة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت أبخرة سود كأنما انفتح في دماغي شق من شقوق الجحيم ؟..

« البسي الفستان ياعروسة .. العريس يريد ان يراك» تقول أمه ، ارتدي الثوب الابيض المزين بالدانتيل الذي كلف خطيبي المغترب الثري مايفوق راتب أبي الموظف المستور طول حياته مع رواتبه التقاعدية بعد موته أيضاً ! .. فستان العرس الابيض.. يدهشني كيف تقف الفتيات أمام واجهات المحلات يتأملنه بشهية ولهفـة وتلتمع في عيونهن بالونات العيد المضيئة ، دون ان يدرين انهن يتأملن كفنهن .. لـين .. يجب ان أرى لين ، وان احرضها على كتابة مقال تطالب فيه البنات بالاضراب عن ارتداء ثوب العرس الابيض مادام في الحقيقة ليس أكثر من صرة تلف بها البضاعة ، أوكفن أبيض . أما بالنسبة الي فهذا الثوب الابيض ليس كفني ، انه ثوب الجلاد الذي يرتديه حين ينفذ حكم الأعدام بشخص ما .. وانا سأنفذ أحكاماً كثيرة على طريقتي .. اذا كانت عليـاء قد استساغت دور الضحية فانا أفضل دور الجلاد .. واذا كانت قد هربت قرفاً ،فها انا اغطس بكليتي في المستنقع واقبل اللعبة ضمن شروطهـا القذرة ، شروطهم ، وانتصر أيضاً .. منذ احتلتني تلك الغيمة السوداء تاركة في فمي طعم الرماد ، صرت أفهم لغة عالمهم ، واعرف كيف اخاطبهم بها .. أجل .. سأكون سيدة مجتمع من الطراز الأول.. ستتحدث الصحف عن ثوب زفافي واناقتي وستجيؤني المحررات فأحاضر عن السعادة الزوجية ، واملأ أعمدة الصحف عن فضائل الوفاء الزوجي .. وقد امارس رسم لطخ بالدهان وأصير رسامة تجريدية مشهورة (آه .. اهلاً عريسي .. البضاعة جاهزة) ..

أمي توشوش في أذني اسمعي يابنت . اطلبي منه الليلة ان يكتب لك « بناية ». الليلة قبل الغد . والغد قبل بعد غـد . اسحبي منه كل ماتستطيعين قبل ان يمل . فالرجال يملون بسرعة ، والأغنياء يملون قبل الفقراء . والمرأة جانحهـا مكـسور ... والفرصة تأتي في العمر مرة ...

أزيحها عني ، أخرجها من الغرفـة . خطيبي واقف على العتبة يتأملني . منذ احتلتني الغيمة السوداء وأنا أفهم هذا كله ، بل واكثر منه بكثير . مسكينة أمي ، كم هي ساذجة ومبتذلة . أنا جامعيـة ، وبتفكيري الأكثر نضجاً أستطيع أن اكون اكثر شراً ما دام لا أحد يسمح لي بأن اكون شيئاً آخر ...

ثم انني جميلة ... وشابة ... تعال ياسعادة المغترب شهال بك ... أجل انظر الي هكذا... أجل ... تأمل السذاجة في وجـه خطيبتك مريم العذراء ..لا. أرجوك . لا تقبلني . في خدي فقط . أجل هكذا . لاحظ كيف أتورد خجـلا كالعذارى . يلذ لك

ذلك . أعرف . يثير شهيتك الى الاغتصاب . منذ انتحار علياء – لن أقول مقتلها لان البنت المهذبة لا تسمي الأشياء بأسمائها – عرفت ستائر كثيرة في شقق كثيرة .. ستائر حمراء زرقاء خضراء صفراء .. ورجال كثيرون كانوا رجلاً واحداً هو تارة أخضر أو أحمر أو أزرق أو أصفر .. كانت عذريتي تثيرهم اكثر مما أثار عطائي وسيم ذات يوم .. كانت تذكي فيهم شهوة امتلاك سلعة مختومة . فض رسالة مغلقة .. أجل ! لقد تعمدت ان أجعل بطاقات الدعوة الى عرسي مختومة بالشمع الأحمر . « صرعة » تحدث عنها بيروت باعجاب وبدأت العائلات الثرية تنقلها عني .. نعم . نعم . بطاقة الدعوة مختومة بالشمع الأحمر ، والختم لغة سرية مبهمة عتيقة .. كنت أدعوهم لحضور عرسي ، أنا عذراء التكنولوجيا ، وهم قبيلة البدائيين الذين ما يزالون يقفون أمام الأبواب يتسولون خرقة تلطخت بالدم يخرج بها العريس عند الفجر وتطمئنهم الى ان الدنيا بخير ... آه كم سخرت ... كم ضحكت وأنا أكتب عناوين بطاقات الدعوة بنفسي ... بطاقة بطاقة .. آه كم سأسخر !

شهال بك ، عيب . لا تمد يدك الى صدري . أعرف انني قد أبرزته من الفستان، ولكن ذلك جزء من طريقة عرض البضاعة على طريقة دكاكين شارع الحمراء .. ولمس البضاعة ممنوع في البلدان الراقية .. وانت طبعاً تعرف ذلك ما دمت تصطاف في لندن وتشتي في مونت كارلو .. نعم . لمس البضاعة ممنوع ، والصفقة لم تتم بعد ولكل شيء أصول .. آه .. انك تلهث ، ستلهث كثيراً فوفر أنفاسك ، أخشى ان تموت الآن قبل ان تتم الصفقة .. أرجوك لا تمت الآن ، انتظر ريثما نوقع الأوراق كي أقبض ولو جزءاً من أجري عن اداء دوري في المسرحية .. أجل ! انني أتدلع عليك يا شهال بك .. أعرف انك تحب ذلك .. اتدلع واتظاهر بالخوف منك، ما رأيك بنظرة الشوق المشبوب بالخوف التي الصقتها على عيني بين الرموش المستعارة والكحل؟.. عظيمة اليس كذلك؟ والدليل ، انك اخرجت منديلك وبدأت تمسح عرقك ... لا ... هدوءاً يا ابن الستين .. اشحذ سكينك بصبر واناة .. يبدو انك تفقد صبرك بأسرع مما توقعت . كنت أعرف كم أنا جيدة لكنني لم أكن ادري أهمية لنظرة البراءة والسذاجة حينما تكسو وجهاً جيلاً وكم تجرد الرجل العربي من مقاومته ..

تسألني ، ماذا أريد هدية للعرس ..

آه .. الخاتم الماسي كان مدهشاً ولكن لي رغبة اخجل من الافصاح عنها .. لا .

لاتلع . اني اخجل يبدو انك تصدق اني سأموت خجلاً .. حسناً لالفظ رغبتي مع (القاسي الأخيرة !) .. هناك بناء تجاه الجامعة اسمه « بناء البستان » فيه شقق مفروشة للايجار ، اريد ان تشتريه لي .. البناء كله ..

ولو (تكرم عينك) . هدية بسيطة . بناية فقط . كل هذا الجمال وبناية فقط...

تدخل امي التي كانت تسترق السمع طبعاً (وتزلغط) . يسألني شهال بك ،ولكن لماذا هذه البناية بالذات؟أقول : لانني كنت دوماً جالسة في الصف ، زهقانة من الدروس، فالبنت ياشهال بك خلقت للبيت لا للجامعة مع الرجال ..

يقول : برافو ، عظيم .. تابعي

اتابع ، وكنت أقول لصديقتي المرحومة علياء ... ياعلياء .. يا ليتني بدل هذه الجارة الواقفة على الشرفة تدلل اولادها وتطبخ لزوجها .. لقد كانت المشاهد(العائلية) في تلك « البناية » هي اول ما فتح عيني على عظمة وضرورة السعادة الزوجية ..ولولا ذلك لما قبلت الزواج ولما تزوجنا ولكنت تابعت دراستي الجامعية ..

شهال بك يهتف : البناية لك . يخاطب امي وجارتنا ام علياء ، تربية عظيمة . البنت « جوهرة » .. سأهبط لاستقبال المدعوين . اسرعي ياحبيبتي .

انا جوهرة . اجل .. انا جوهرة العتمة السوداء ، انا العين المقتلعة من وجه له مليء بالقسوة تفوح منه رائحة الدم والسخرية .

أقول لأمي : اخرجي انت وجارتنا أريد أن أبقى وحدي قليلا ..

اسمع صوتي ، قاسياً ، حيادياً وآمراً . . . للمرة الاولى اسمع صوتي الجديد ،

أمي أيضاً ، تدهشها اللهجة ، ولكنها تغادر الغرفة فابنتها صارت ثرية وهامة .

اركض الى الهاتف ، الفندق فخم لحسن الحظ . ذلك يوفر سماع صوت«السنترال» أدير رقم هاتف وسيم . يرد صوته الكسول . وسيم . أهلا . أنا مريم . هل تذكرني .؟

يقول باحترام لم أسمعه قط في صوته : مريم ، طبعاً طبعاً . اهلا مدام شهال . ألف مبروك . ألف مبروك . . .

قبل أن يتابع معزوفته أقول له : أنا مسافرة غداًصباحاً الى شهر العسل وسأعود بعد اسبوعين . أحب أن نلتقي بعد ذلك .. كما كنا من زمان . . . فالمشاكل العذرية ومخاطر الحمل تكون قد انتهت ، وزوجي كثير الاشغال والترحال . . .

يقول : طبعاً ... أمهي ذلك ... أين نلتقي ؟

أقول : في شقتي .

ــ شقتك ؟

ــ أعني في شقتك . البناية كلها صارت ملكاً لي . اشتراها لي زوجي هدية للعرس بالمناسبة ، سأحضر لك معي من أوروبا ربطات عنق ثمينة ، وسترتديها لي على التلفزيون. بذل ناعم الصوت يقول : أمرك ياسيدتي . .

ــ بالمناسبة ، أرجو أن تبحث عن شقة أخرى . أريد أن أستعمل هذه الشقة البنفسجية بالذات لاموري الخاصة .

ــ أمرك ياسيدتي .

ــ أمرك ياسيدتي ... كم سأسمع هذه الكلمة بعد الليلة . كم ستنحني رؤوس لتقبل يدي . بيروت كلها ستأتي الى عرسي ... بيروت المال والوجاهات ستركع أعواماً طويلة عند أقدامي ربما يذوي جمالي ، وحتى بعد أن يذوي جمالي ستظل راكعة مادام مالي لم يذوي ... كنت دوماً أرى في الصحف صوراً لنساء كأنهن المومياءات الخارجات من قبورهن ، يرتدين الجواهر ويلففن حولهن الفراء ، ويظهرن في المجتمعات ويحوم حولهن شبان صغار مساكين ... أجل ، ستظل بيروت راكعة عند أقدامي مادمت أراعي قواعد اللعبة القائمة ، وأفهم اشارات المرور الحمر والخضر التي تعارفوا عليها ، وأعرف كيف أشتري الضوء الاخضر حين أريد . ولكن من يدمر اللعبة القائمة التي تدمرنا ؟

ولكن لين ...

سأهتف لها ... لاأدري لماذا أحس بحاجة لاخبارها بخاتمة القصة . ثم انها هي طلبت مني ذلك . سأحدثها عن انتصاري ... وعن هرب علياء . .

اهتف اليها . . أقول لها أشياء كثيرة ... أمي تقرع الباب ... وأنا أتحدث. وأمي تناديني من الخارج ... وأنا أروي كل شيء للين . أمي تدفع الباب وتدخل غاضبة ولين ترد علي بعبارة واحدة :

تافهتان . أنت وعلياء تافهتان ... وأنت تافهة وحقيرة .

ها أنا أهبط الدرج ملكة اسطورية الى جميع المدعوين .

ها أنا أضيء . . ها عدسات المصورين تلتمع . . . كلمات لن تعذبني . . . غداً بعد شهر العسل اشتري دار النشر التي تنشر كتبها والمجلة التي تكتب فيها . . واطردها .

أجل . . . صفقوا لي . . ألا ترون كم أنا ساحرة ومشعة . . . أنا عذراء بيروت ١٩٧٣ (آه . . . يجب ألا أنسى الاتصال بالحلاق الوسيم قبل سفري لاضرب له موعداً ولأعطيه عنوان شقتي البنفسجية) .

الساعة ٢ يوم ٢٩/١/١٩٧٣ – بيروت

* * *



قصة قصيرة

الغيبوبة

عبد العزيز هلال

لقد اتخذ قراره بطرق الباب أخيراً .

وانفتح الباب على سيحة . وبدورها انفتحت عيناها عن دهشة وهي تهتف باسمه . فقال لها مضطرباً :

— أظنك مندهشة .

فابتسمت له :

ـ فعلا . كيف أتيت ؟

ـ الأحرى بك أن تسألي : لمـــاذا أتيت ؟ فليس عسيراً أن يصعد الانسان سلماً طويلا ما دام سيصل في النهاية الى القمر . أليس كذلك ؟

ضحكا معاً ، هي ضحكت بالأخص . وتفتحت خلاياه جميعاً للتناول من ضحكهـا ـ الصورة والصوت . شعر حينئذ بأهمية أن يكون الرجل مرحاً ، ليكسب من المرأة صداقتها على الأقل .

أما هي فانها أفسحت له الطريق الى الداخل بجذلها الحلو ، داعيـة اياه للدخول الى حرمها الذي تهيب قصده سنة من الزمان .

وتنبه الى أنه وإياها داخل الغرفة معاً ، وحدهما ، والبـــاب مغلق ، وهي تدعوه للجلوس دون أي حرج ، بل بهذه البساطة التي سحرته بها دائماً ، وتاه في فردوسها الآن. رددت هي بنبرة ملحة :

ـ هل اجلس وخذ راحتك ، ما بالك !

فجلس منصاعاً ، دون كلمة ، على المقعد الوحيد في الغرفة ، بينما استأذنت هي لعذر لم يستوعبه ، وغابت خلف باب داخلي ، أعاد اليه تنبهه . وقلت يستطلع غرفتها .

بدت له أضيق مما رآها من الخارج . لا بد أن يكون السبب في اقتطاع جزء منها لمطبخ أو حمام صغير . انه يكره الحجرات الضيقة . مع ذلك رآها افضل من أي بيت عرفه . ففيها ، غير البساطة والنظافة ، هذا الأثر الذي يقول له بنعومة ، وأيضاً بخيلاء : هاهنا امرأة . وامرأة غير عادية ، على الخصوص .

أكد لنفسه : « نعم . سميحة ليست بالمرأة العادية قطعاً ، ان ماجذبني اليها منذ البدية هو أنها فتاة جادة ونشطة ، وطموح . إنها تلك طموح رجل جـــدي لا طموح المرأة الشرقية ، الذي يتوقف عند الزواج والشقة الفخمة والسيارة والحلي والأزياء » .

فتح الباب الداخلي واندفعت منه سميحة ، مشرقة بضحكتها تلك ، مرتـــدية ثوباً آخر غير الذي دخلت به :

ـ أنت تقول لنفسك : كم هي قليــلة ذوق ، لتترك ضيفها وحده على مقعــد غير مريح .

حسناً ، انها تساعده على أن يكون مرحاً . تبرز بلهجة مسرحية ،
– قلة الذوق في الضيف الذي جاء دون دعوة ودون موعد مسبق .
أضافت ضاحكة :
– ودون حرص على سمعة امرأة تعيش وحدها .
فاعترض ماهنا قائلاً :
– لا . حدثيني دائماً عن أمك وأخيك اللذين يعيشان معك . أم انني واهم ؟
جلست على كرسي ، تطوح بساقيها تحته بحركة طفلة حيوية :
– لست واهماً بالطبع . ولكنهما استغلا عطلة أخي الصيفية ليقضيا بعض الوقت عند الأهل في حلب .
– أنت إذن تعيشين وحدك ، فوق هذا السطح،في هذا الحي الذي تغلب على سكانه الأفكار القديمة ، رغم حداثة البناء .
– لا أهتم لكثير مما له اعتبار في نظر الآخرين . انت تعرفني .
ابتسم لها مسلماً . وفكر في الوقت نفسه بصعوبة أن يعيش الانسان ما يؤمن بـه ويخالف موروث بيئته .

سألته :
– ما بك ؟
– أفكر .
– بماذا تفكر ؟
– بك أنت .
– لماذا ، خاصة وأنا موجودة أمامك ؟
فضحك ، وقال :
– أفكر بروعة أن يعيش الانسان مايؤمن به دون خوف .
ابتسمت موافقة . وتابع هو يفصح عن لوعة :
– اننا، في هذا البلد، أعني بصورة عامة.. نعيش غير مانؤمن.افكارنا المناقشات، للصحف ، للتباهي .. مثل الملابس الخاصة بالحفلات والأعياد ، مثـل أيام العطل .. مثل شوارب الرجال بالاحرى .
فضحكت ، وهتفت مسرورة :

ـ عظيم . عبرت عن الواقع بصورة رائعة . بالمناسبة، ستشرب القهوة ، أم لعلك تفضل الشاي في هذا القيظ ؟

اقترح بحماسة ،

ـ لماذا لا نشربه في الربوة ، او في اي مكان رطب تختارينه ؟

ـ لا والله يا عمر ، لا استطيع .. أعني ..

اضطربت لأول مرة ، بدت محرجة ، وهي تحاول الاعتذار :

ـ أعني انني اريـــد التحضير لامتحان الدورة الثانيـــة .. تعرف انني أ كملت في مادتين ..

قاطعها دون ان يخفي انزعاجه ،

ـ أعرف هذا ، وأنا لا ألح .

ثم طامن صوته ولهجته :

ـ حسبي بضع دقائق أحاول فيها أن أتحدث اليك .

نظرت اليه بكلتا عينيها ، نظرة مستبطنة ، فيها مودة أو عطف ، ربما شيء آخر ، لم يع تماماً .. لكنه أحس بمدى ضعفه إزاءها. إزاء عينيها العسليتين الواسعتين ، هو مثله إزاء ضحكتها ، ازاء بساطتها ، وشخصيتها جميعاً .

انتفضت ميحة فجأة ، بحركة سريعة ، مندفعة الى ذلك الباب ،

ـ اذن ستشرب الشاي هنا .

لم تغلق الباب خلفها ، هذه المرة . فظهر جانب من المطبخ كما خمنه . في هذا الحيز الضيق بدت حركتها أنشط وأسرع . وفكر بنظرتها . . أهي تتجاوز المودة الى ماهو اعمق ؟ أيمكن أن تحبني كما احببتها ؟

ثم قادته الفكرة الى ما بدا عليها من اضطراب وهو يقترح عليـــا شرب الشاي في الخارج . كان اعتذارها ملفقاً بعد ذلك التردد والاضطراب . أليس كذلك ؟

لـــماذا ؟

وفجأة خطرت له فكرة كان يرفض خطورها : « لماذا لا يكون لرغبتها في بقائنا هنا ، وحدنا ، دافع معين ؟ انها اول خلوة لنا ، فهل هي تريد أن ... »

« لا . يجب ألا افكر على هـــذا النحو . لا بد من الحـــذر في تفسير الأمور .

صبيحة صريحة ومتحررة ، اذا ارادت شيئاً تحدثت عنه مباشرة ، دون مناورة النساء الشرقيات » .

انها تعرف بانه يحبها ، فلم تحاول حتى أن تسأله عن سبب زيارته المفاجئة هـذه ، ولأول مرة منذ تعارفهما . « ولكن ألا يجوز أنها تتحاشى تشجيعه على التصريح ؟ »

لـماذا ؟

ان حديث الحب ليس بالحديث الذي يحرجها . في مقصف الجامعة وفي حدائقهـا تدور احاديث الحب صريحة بالقدر نفسه الذي تشغل حيزه احـاديث السياسة والحرب والفدائيين والازياء .

وقفت صبيحة الآن الى المغسلة المثبتة على الجدار المقابل للباب ، تشطف الاقداح .
كيف يتمكن من معرفة مايدور في خلدها حقاً . « من أنا عندها ؟ ماهو شأني ؟ »

غلبته هذه الرغبة في المعرفة غلبة مأزق وقع فيه . ولكي يخرج منه وجد أنـه لا بد من القيام بخطوة عملية وحاسمة . هب مندفعاً باتجـاه الباب المفتوح ، يشجع نفسه بسؤال منطقي : « لماذا أتيت اليهـا إذن ؟ » وعندما توقف على عتبة الباب كانت خطوة واحدة ، خطوة واحدة قصيرة ، قد بقيت دون اجتياز . لم يمنعه الجبن ولا وهنت عزيمته . انما هو الحياء الطبقي . الحياء من مباغتة امرأة وثقت به لدرجة أن استقبلته في بيتها على خلوة . انه ، أيضاً ، الاحترام العميق لهذه المرأة التي بلغت ثقتها بنفسها الى هذا الحد . وكذلك هو الحب . عندما يحب الرجل امرأة ، يحتقر كل اسلوب بدائي لامتلاكها . أليس هذا صحيحاً ؟

استدارت نحوه ، تنفض يديها من الماء ، وحملقت به مبتسمة ، ثم تناولت المنشفة دون أن تحول عينيها عن وجهه . ومرة أخرى وجد نفسه ضعيفاً ازاءها . ازاء هـذه النظرة التي تحوله الى طفل لم ينضج بعد . لكنه شعر بالحزن اذ سألته ببساطة :

ـ ما بالك ؟

حول عينيه عنها ، يستطلع جوانب المضيق الذي رحوه مطبخاً . وقال :

ـ انه مطبخ ضيق .

ـ نعم . البيت عموماً يلائم عازباً ، لا اسرة تتألف من ثلاثة اشخاص .

وانصرفت الى ابريق الشاي تعنى بـه . وأراد عمر أن يستمر في الكلام . أشار الى نهاية المضيق في الداخل مستفسراً :

ـ أهذا هو الحمام ؟

ـ هكذا يسمونه . .

وضحكت :

ـ تصوره في الشتاء ، دون مرجل ولا أية وسيلة للتدفئة .

أحس ببعض الارتياح . هذه الثرثرة تبعده عن الموضوع . فليثرثر :

ـ كنا ، في الصغر ، نذهب الى الحمامات العمومية . وعندما لا نفعل هذا لسبب ما، نستحم في حوض عتبة الحجرة الوحيدة التي كنا نقيم فيها .

ضحكت تقول :

ـ تتحدث كما لو كنت شيخاً .

وهاجمه في الحال واحدة من نظراتها المباشرة تلك ، مصحوبة بابتسامة .

ـ صبيحة . . هل تعرفين كم أحبك ؟

انطلق السؤال بسرعة أدهشته وفي الحال ، تجمدت ابتسامتها وهربت عيناهـا الى الموقد ، وتوقفت حركتها عند اطفائها النار .

ظلت عيناها مختفيتين عن بصره . توقفتا هما أيضاً على الأبريق الذي يبخر برائحة الشاي الطازج .

تقضت لحظات مديدة ، كأنها العمر كله ، وهما واقفـان هكذا ... هو في باب المطبخ منحرفاً باتجاه نهاية المضيق ، وهي منحرفـة عنه نحو الموقد ، باسطة كفها على حافتيه . هو ينظر اليها ، ينتظر منها حركة . وهي تنظر الى شيء آخر لا يمت اليه ولا لسؤال المطروح بأية صلة . وسكون الكون صلد أصم ، بازلتي .

وفكر : « كم يكون موقفي مبتذلا لو أعدت السؤال أو حثثتها على الجواب . » ثم قال لنفسه : « ولكن ، بحق ربك ، هل كان لسؤالك أي معنى ؟ »

تعرف ؟!

بلى . انها تعرف بكل تأكيد .

عندئذ تراجع الى المقعد في الغرفة ، محاولا إزالة الحرج بقوله :

ـ حسناً . اظن الشاي اختمر ، آن لنا أن نشربه .

وجلس مستنداً الى ظهر المقعـد بكل ثقله . واشعل سيكارته الأولى في بيتها .

نفث الدخان باتجاه السقف ، فعلق به لحظة كغيمة رقيقة ، ثم تموج ودوم حول نفسه ، وهو يهبط قليلا ويتلاشى في الحجرة غير مرئي بعد .

« أتراني أخطأت ؟ »

« هل أسأت الى الثقة التي منحتني ؟ »

وباغته حنق اتجه الى نفسه ملامة مشحونة بالموجدة .

« كيف اذن ؟ كيف يتحدث محب الى محبوبه ؟ »

هو لم يحب امرأة قبل هذه . كان مشغولاً على الدوام ، ينضد الحروف الرصاصية في المطبعة الشطر الاعظم من يومه ، ينهمك في هذا العمل وفي استيعاب ما ينضده مما يكتبه الأدباء والصحفيون ويصرح به السياسيون ، وبقية اليوم يقضيها بين العمل النقابي وبين الصحبة الطيبة في المقاهي وغيرها .

لم يتعلم الغزل ، رغم قراءته قصص الحب وأشعاره . فقد شغلته مشاغل الانسان الملتزم واستغرقته تماماً ، لأنها اللذة الوحيدة التي فضل طعمها على طعم كل لذة . كان زملاؤه يروون دائما مغامرات جنسية يسمعها بحمية ، ثم ينساها في الحال .. فلم تكن الا مغامرات تافهة ، مع الرخيصات من المومسات .

أقبلت تحمل الشاي ، متحاشية النظر اليه . أحس بأن وجهها يعاند بصلابة كي يظهر طبيعياً . ولكن أنى له ذلك ؟ دون ابتسام ؟ دون عينين تتلألأ فيهما الحياة بهيجة كالشمس ؟ تلك هي الأهداب الكثيفة الطوال ، لا تترك أي منفذ الى عينيها !

مضحكة صارت .. خاصة وهي تنحني أمامه لتقدم له الشاي ، مثل أمة يابانية بكل خضوعها وتهذيبها ، ثم تتراجع الى الوراء خطوتين ، تجلس على الكرسي محتشمة ساكنة ، تمعن النظر — هكذا بدت — في أنامل يديها كأنها جديدة عليها !

سألها :

— أهناك شخص آخر ؟

هزت رأسها بالايجاب ، بالهدوء نفسه .

قال لها ،

— هذا أفضل .

وغمغم مكرراً !

— نعم ، هذا أفضل! يا سميحة .

نظرت اليه بعينين مكدرتين . أكانت تبكي هناك ، امام الموقد ؟ وتساءلت :

— ما الذي تعنيه ؟

« حقاً . ما الذي أعنيه ؟ » وقال لها :

— أعني ... أن تكوني ...

ثم واتته فكرة :

— أنا لا يؤلمني مطلقاً أن تكوني عالقة برجل غيري ، فلا ريب في انه يلائمك أكثر مني ، انت فتاة ناضجة ، ولا بد انك تحسنين الاختيار . المهم . هكذا أطمئن الى أنني لم أكن مرفوضاً .. وإنما رجلا لا يلائمك كزوج .

قالت بسرعة :

— لا لا ، أبداً يا عمر . انت عزيز الى نفسي ، لا تدري الى أي مدى ، هذا هو ما يجعلني تعيسة في هذه الساعة التي خشيت قدومها دائماً .

أفضت له بذلك بهدوء وبساطة أيضاً . لم يكن في لهجتها اعتذار ، بل تقرير .

احس بحنقه على نفسه يشتد . وأحس بحبه لها يتحول الى عشق ، الى وله . وبما أنه لا يملك الحق في مس وجهها هذا ، في معانقتها ومسح الأسى عن وجهها ، فانه لبث مشدوها ، يعاني ، أعمق من أي وقت مضى ، وأشد ، رغبة في الالتصاق بها .

لكنه نهض في النهاية قائلاً :

— لا أدري كيف اعتذر . ماكنت أعرف ان بوحي لك سيجعلك تتكدرين هكذا . كان يتوجب علي ان أمسك نفسي ، فلا أندفع بعيداً .

وخرج متعجلاً ، هابطاً السلم الاسمنتي الذي لم يبلط حتى الآن ، قفزاً مثلما صعد . أحس بالأسف ، إنه اسف أشد الأسف . لكنه لم يحس بالتعاسة .

وحين كاد ان يغادر باب المبنى ، التقى به . حالما وقع بصره عليه عرف إنه هو . علي الشيخ علي . الصحفي البارز . وقد وقف متعجباً :

— ما الذي جاء بك الى هنا ؟

قال عمر ، مدققاً النظر في عينيه :

— سميحة .

هتف عليّ بمرحه وصخبه المعهودين به :

– آ ... حقاً كان سيخطر لي هذا الخاطر ، لولا معرفتي بأنك لاتميل الى معاشرة النساء .

بل ان مرحه وهو يقول ذلك بلغ حد المجون في اللهجة والحركات .

« معاشرة النساء » ؟!

قال عمر ، ينبهه الى حرمة الموقف :

– سميحة صديقتي ، كما هي صديقتك – حسب علمي .

– طبعاً ، ولكن لم أعرف ان صداقتك لها تصل الى حد الاجتماع بها ..هنا .

مرة ثانية يؤكد موقفه الماجن من سميحه ، في الطريقة التي لفظ بها عبارة « الاجتماع بها .. هنا » . قال عمر منصرفاً :

– حسناً ، لن أؤخرك إذن ، انها تنتظرك .

هذا هو إذن !

كان عليه أن يدرك هذه الحقيقة منذ البداية

مشى في شوارع ضيقة وقذرة ، رغم حداثتها ، تعج بالأطفال المنهمكين .

علي الشيخ علي ، الصحفي النشيط ، الذكي ، الذي يكتب بجرأة غريبة على صحافة البلد ، فيستقطب اعجاب القراء الذين يعانون من الكبت ويتوقون الى التحرر ، ومنهم عمر نفسه ، الذي يعمل في مطبعة الجريدة .

كان عمر يقوم بزيارة عليّ في الجريدة كلما سنحت له الفرصة ، للحديث في الشؤون النقابية والسياسية ، وقد رأى فيه ماكان يتمنى في الآخرين ، من الكتاب ومن النقابيين على السواء ، ثم سرعان ما أدرك السر ، كان عليّ ذا علاقة حميمة بشخصيات ذات نفوذ ، من السلطة ومن حواشيها ، لكن هذه الحقيقة وراء جرأة عليّ لم تؤثر على المودة التي ملأت قلب عمر نحوه ، لقد أصبحا صديقين ، وكان عليّ نفسه يهبط أحياناً الى المطبعة يتفقد نسخة التجربة النهائية لطبع تحقيق له أو مقابلة أو مقالة ، فيسأل عمر عن رأيه فيما يكتب ويتناقشان .

عن طريق كتابات عليّ أيضاً ، عرف عمر هذه المرأة سميحة .

في تحقيق لعلي عن أحد المعامل ، لفت نظر عمر الى فقرة منه ،

– اقرأ ، لن تصدق ان هذا حديث عاملة في مثل بلدنا .

وصعد عليّ الى الجريدة ، تاركاً في عمر أعظم الفضول ، بل الرغبة في لقاء هذه العاملة ، خلب لبه حديثها ، رغم أنه تساءل متشككاً فيما ان كان حديثها حقاً أم ديباجة المحرر . كما هي الحال دائماً ، وقال لنفسه : « إن صح انه كلامها دون تزويق ، فانني سأسعى الى معرفتها .» طمع دائماً في أن تكون زوجته من هذا الطرز من النساء . ولقد أكد له عليّ ، حين زاره عمر ، في مكتبه :

— لا بشرفي ، لا يوجد أي تزويق ، إنه كلامها الحرفيّ .

ثم أضاف :

— لا تعجب ، فهي تجدّ في تثقيف نفسها ، وما لم أذكره في المقابلة انها جامعية ، انتسبت الى كلية الحقوق في مطلع هذا العام .

— ألم يكن لذكر هذا الأمر أهميته ؟

ضحك عليّ ، وقال :

— يا ذكي ... باغفاله تدهش الناس أكثر ، يهتفون باعجاب : شيء رائع ، العمال في بلادنا مثقفون .

— لن يكون اعجابهم أقل اذا عرفوا ان بين العمال جامعيين .

— يقولون عندئذ ، حالة شاذة ، انها عاملة مؤقتة ، ريثما تنهي الدراسة الجامعية فتلتحق بسلك الموظفين . أرأيت إذن ؟ إنه سر من أسرار الصحافة الناجحة أبيحه لك .

وضحكا ، في حين دخلت المكتب فتاة أنيقة ولطيفة ، هب عليّ يرحب بها بحرارة ودون كلفة ، فقام عمر يهم بالانصراف خشية مضايقتها ، إلا ان علياً هتف بصخبه الذي يزداد في حضور النساء :

— الى أين ؟ ألا تريد التعرف بسميحه ؟

ذلك كان أول لقاء ، وقد نظر اليها عمر بدهشة بالغة : أهذه الفتاة الانيقة هي العاملة سميحة ؟

وقد اكتفت بابتسامة خفيفة رداً لتحيته لها ، وشجعه عليّ على معاودة الجلوس ، وقال لها :

— كنا نتحدث عنك الآن ، هو أيضاً عامل مثقف ، وهو نقابي ممتاز .

وهكذا أصبح موضع اهتمامها قليلاً :

– ماذا تقرأ ؟

– كل ما أطبعه .

– فقط ؟

– أهتم بكتب ومطبوعات أخرى قليلة ، بسبب ضيق الوقت لديّ .

– هذا جميل على كل حال . من يقرأ قليلاً أفضل ممن لايقرأ إطلاقاً .

وعلق عليّ !

– وأفضل ممن يقرأ كثيراً دون وعي .

قالت لعلي ، متذكرة :

– حضرت ، على وعدك لي ، ان تريني تلك الصور أو تعطيني نسخاً عنها .

كانت تعني الصور التي التقطت في المعمل من اجل التحقيق .

في اليوم التالي سعى الى لقائها في الجامعة . لقد علم في لقائه الاول لها انها تداوم على الجامعة يومياً بعد فراغها من العمل . التقاها في المقصف . وسألته ان كان طالباً جامعياً ايضاً ، فأخبرها مبتسماً :

– بل طالب مودة يا آنسة .

– من هي ؟ فلعل ان تكون بيني وبينها معرفة .

قال ، وهو يشك في أنها لم تعرف قصده :

– لاتتعجلي هكذا .. ستعرفينها في الوقت المناسب .

وحدثها عن نفسه باختصار ، يحرضها على الحديث عن نفسها . تحدثت باسهاب . عرف عنها كل ما أراد معرفته . وعرف انها طموح اكثر مما ظن . اكثر مما ارادها هو في الحقيقة . تريد ان تترك العمل وتصير صحفية . سألته :

– هل تظن انني استطيع تحقيق امنيتي هذه ؟

قال :

– ليست عسيرة عليك إذا اردتها .

– ولكني لا أحسن الكتابة . عندي أفكار . إلا انني أجد صعوبة كبيرة في التعبير عنها .

– هذه مشكلة فعلا .

– لكني اريد التغلب عليها .

– تستطيعين . بالمران الجدي المواظب الطويل الأمد .

– ليس عندي الجلد على الانتظار طويلاً . اريد الخروج من هذا المعمل الذي يستهلك قواي حالاً .

ثم قالت له مستدركة :

– علي الشيخ أخبرني بأن الاهمية للافكار . أما التعبير ، فيمكنه مساعدتي ريثما أتمكن منه بالتجربة .

– ها هنا الخطورة .

– ماذا تعني .

تأملها طويلاً ... امرأة جميلة ، وهذا يكفي لنجاحها ان كانت عابثة . وسألها :

– أأنت جادة ام عابثة ؟

– ما الذي تعنيه ؟

– اعني انك ستنجحين .. يمكنك أن تري اسمك في أفضل الزوايا من الصحف والمجلات في بلدنا ، جميع الصحف والمجلات ، مادمت جميلة هذا الجمال ، وتملكين عينين ساحرتين وابتسامة اكثر سحراً .

– أسألك عن شيء ، فتتغزل بي ؟

وضحكت . فقال برصانة ألجمت ضحكتها :

– انني لم أتغزل بك . قلت لك ما أعرفه . ان كنت عابثة ، لديك سلاح قوي للنجاح . أما إن كنت جادة في طموحك وتريدين أن تكوني شيئاً مجيداً ، لامجرد شيء للتباهي ، فلن تنجحي مالم تملكي القدرة على التعبير بصورة حسنة .

– حتى لو ساعدني علي .

– دون ثمن ؟

– ما الذي تعنيه ؟

– ترجعين الى السؤال نفسه . كأنك لاتعرفين شيئاً عن هذه الدنيا البراقة المغرية التي تتشوقين الدخول اليها . إنني أعرفها ، وأقول لك ما أعرفه .

نظرت اليه مقطبة .

ولكنهما افترقا صديقين . وحل من هذا اللقاء سعادة ناعمة إلا انه لم يدرك – في الوقت نفسه – أنه أبعد قلبها عنه

« دونما حساب ولا حذر ، رسمت لها الطريق الذي يفترق عن طريقي ، دفعتها الى ذراعي رجل آخر ، لايحتاج اليها قدر ذرة من حاجتي اليها . »

– ... لولا معرفتي بأنك لاتميل الى معاشرة النساء .

هل ينظر الى سميحة هذه النظرة الرخيصة ؟

أتراها – في سبيل ان يصنع منها صحفية – قد تبذلت وارخصت نفسها ؟

اذن هي كاذبة في سبب رفضها له هو . علي الشيخ علي وسيلة ، وليس حبيباً لها . وتوقف : « يا إلهي ! ما الذي يجري الآن هناك ، في الملحق الذي يتوسط دمشق؟ » .

« هل أرجع اليه؟هل اناضل في حماية سميحة وابقائها لي ؟ أم إن الأوان قدفات؟»

استعرض في ذاكرته اسماء الفتيات اللواتي نضد حروف كتاباتهن .. الحروف التي تحمل طابع وهوية كتاب ومحررين يعرف خطوطهم واساليبهم ويتبينها حتى حينماتعشى عيناه احياناً من الارهاق ومن بخار الرصاص . وتذكر ضاحكا انه نضد مراراً حروف كتابات موقعة بحرفين هما حرفا اسمها : « س . ج » ! نعم . كيف غاب عنه هذا ؟تلك الركاكة ، التي اضطر الى معاناتها عشرات المرات ، خلال عام مضى ، إذن كانت من صنعها !

وهي كانت تخفي عنه ذلك . كانت تدعي ، كلما سألها ، بأنها أخذت بنصحه ، وتعمل جادة على اتقان الكتابة قبل أن تقتحم باب النشر .

واذن .. لاجدوى من التدخل الآن . أليس كذلك ؟

غير ان قلبه نُهش نهشاً وحشياً . ماذا يجري هناك الآن ، في ذلك الملحق الذي يتوسط دمشق ؟

أيحضنها علي الآن ، كواحدة من أولاء « النساء » اللواتي ألمح اليهن في حديثه معه ، على مدخل ذلك المبنى ، الذي يقوم بيتها على سطحه ؟

أيزري بها الى حضيض الابتذال ، وهو يتلمس جسدها ، في حين تتوهم هي انها تتخذ منه سلماً تتسلق عليه قاصدة الارتفاع الى ما تعتقده مجداً ورفعة ؟

كان قد وقف على موقف الباص سادراً ، يريد الركوب الى المقهى الصيفي على سفح قاسيون .. غافلا عما حوله ، الا أنه أفاق على احساس غامض بأنه موضع مراقبة او اهتمام من شخص ما . تلفت حوله ، كان موقف الباص مزدحماً بالناس ، وقاده احساسه تلقائياً الى مصدر المراقبة .

حملق ذاهلا ، انها سميحة ، تقف على الطرف الآخر من الموقف ، ترمقه بنظرة ودود ، ويشع وجهها بهجة وعافية .

ولكن لا ، فسرعان ما زالت غشاوة الذهول عن عينيه ، ورأى فتاة اخرى ، انها تشبه سميحة . ورأى الفتاة تخفض عينيها خفرة مضطربة .

حسنا. انها جميلة ، مثل سميحة ، وتشبهها الى حد ما . ولكنها لاتملك طموح سميحة بالتأكيد ، انها فتاة خفرة بالاحرى .

واندفع الواقفون نحو الباص ، تزاحموا على بابه ، وركبوا ، وتحرك الباص ، صاعداً الى سفوح قاسيون العليا .

كانت الفتاة قد جلست مع فتى صغير يرافقها على مقعد واحد . انه اخوها ، وجلس عمر على المقعد المحاذي ، بجانب سيدة مكتهلة ، هي امها . وحين التفتت الفتاة نحوه ورأته يجلس بجانب امها ، افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة ورجعت الى وضعها .. ورأى عمر تورد وجنتها واذنها . وهو يدمن النظر اليها ، ويحس بخيوط حريرية خفية ، تتشابك بين المقعدين جميعاً ، كما تتشابك اوردة الدم وشرايينه بين اعضاء الجسم .

دمشق — ١٩٦٩ / ١٩٧٢

نظرية الأدب بين الفلسفة والنقد

الدكتور حسام الخطيب

- ١ -

يتعرض الفلاسفة وعلماء الجمال والمنظرون الأدبيون منذ القديم حتى اليوم لنظرية الأدب ويحاول كل منهم أن يضع فهماً معيناً للأدب وظيفته وطبيعته وحدوده انطلاقاً من الأيديولوجية أو مجموعة الأفكار التي يدين بها

على أن هذا الهم يظل في رأينا هماً تقدياً ، ولو لسبب واحد على الأقل هو أن انعكاساته العملية تقع على عاتق النقاد دون غيرهم ، فهم الفئة التي يقع على عاتقها نوعياً تطبيق المفهومات النظرية للأدب والتمييز بين ماهو أدب وما هو غير أدب .

إن أية ممارسة نقدية متماسكة لابد من أن تكون جزءاً من موقف نظري شامل للناقد ، والناقد الذي يلقي أحكامه جزافاً ومن زوايا نقدية متفاوتة يقع في التناقض والاضطراب ولا يستطيع أن يتوصل إلى نتائج ذات قيمة أو أن يضمن لاتجاه التقدم والاستمرار . على أن المسألة ليست مسألة التطبيق العملي فقط ، واذا كانت ظروف التطورات التاريخية للمعرفة قد جعلت البحث النظري في الادب حتى مطالع العصور الحديثة أقرب الى مهمة الفيلسوف منها الى مهمة الناقد ، فان العصر الحديث — الذي يشهد تبلور النقد باعتباره فعالية فكرية تتجه نحو توكيد استقلالها — يكشف عن محاولات مستمرة من قبل النقاد للاسهام في طرح المسائل النظرية المتعلقة بالأدب ومناقشتها وبلورة اتجاهات عامة على أساسها وربما كان هذا الاقبال ناجماً عن شعور بقصور كل من نظريتي الأدب الأساسيتين القائمتين حالياً ، وهما النظرية الاخلاقية والنظرية الشكلية ، وعجزهما عن اعطاء الناقد عناصر كافية لتبني موقف نقدي يرضيه داخلياً ويساعده على تحقيق درجة مقبولة من الفاعلية .

— ٢ —

ظل البحث في نظرية الأدب يرتكز دائماً على سؤالين أساسيين هما : ماطبيعة الأدب؟ وما وظيفته ؟ . وهما سؤالان قديمان ضاربا الجذور في التاريخ ، وقد طرحها مفكرو اليونان وما زالا حتى الآن محورين رئيسيين يستقطبان الخلاف الدائر بين التيارات الأدبية المعاصرة ، والتركيز على المسألة الأولى (طبيعة الأدب) يقود الى (النظرية الشكلية) في حين أن التركيز على الثانية (وظيفة الأدب) يقود الى (النظرية الاخلاقية) . ومن الواضح أن التركيز على واحدة من المسألتين لايعني امكانية الفصل بين وظيفة الأدب وطبيعته ، وإن كان هذا النوع من الفصل غير الطبيعي موجوداً في الحالات المتطرفة . ذلك أنه :

« في أية مناقشة متماسكة لا بد ان تكون طبيعة الادب ووظيفته متلازمتين . فاستعمال الشعر ينتج من طبيعته . وكل موضوع او صنف من الموضوعات يستعمل كأحسن مايكون الاستعمال واعقله حين يستعمل لما وضع له في الأساس ، ويكتسب استعمالاً ثانوياً حين تضمر وظيفته الرئيسية فقط . فدولاب الغزل يغدو زخرفاً او عينة في متحف ، والبيانو المربع الذي لم يعد صالحاً للعزف يصير مكتباً مفيداً . كذلك فان طبيعة

الشيء تنتج من استعماله ، فهو مايفعله . ان للنتاج المصنوع بنية ملائمة لتنفيذ وظيفته ، مع مايمكن أن يضيف اليه الزمان والمواد من ملحقات وما يراه الذوق مناسباً . وقد نجد في اي عمل ادبي الكثير مما هو غير ضروري لوظيفته الادبية ، ولو أنه هام ويمكن تبريره على اسس اخرى » .(١)

وعلى أي حال تكتسي المناقشات المنصبة حول العلاقة بين طبيعة الادب ووظيفته طابع المماحكات الجدالية التي يصعب أن توصل الى أية نتيجة اذا اقتصرت على الحاجة النظرية ومن هنا يقوم البحث الحالي على تجاوز هذه المناقشات وتناول الموضوع من خلال نظرة تاريخية واقعية (٢) .

ومنذ البدء يلاحظ المرء أن تركيز اليونان على وظيفة الأدب كان أقوى من تركيزهم على طبيعته ، مما يشير الى اتجاههم الاخلاقي في فهمه . وقد تساءل أفلاطون عن مكانة الادب في جملة التجارب الانسانية وعن وظيفة الشعراء في (المدينة الفاضلة) ، وانتهى الى استبعادهم من جمهوريته لانهم لايتحملون مسؤولية مايقولون ولان فنهم ضئيل القيمة باعتبار أنه نسخة من الدرجة الثالثة أو صورة الحقيقة تبعد ثلاث مراحل عن الاصل ، والاصل عند أفلاطون هو عالم المثل العلوي ، والعالم الواقعي ليس إلا ظلاً لعالم المثل ، والفن محاكاة للعالم الواقعي أي لعالم الظل الزائل ، وإذاً لايستحق أن يؤخذ بجد . وهكذا نرى أن منطلق أفلاطون كان أخلاقياً على أنه لم يهمل السؤال المتعلق بطبيعة الادب وبنى موقفه الاخلاقي على تحليله لطبيعة الادب (المحاكاة) .

وعند ارسطو ايضاً يختلط السؤالان معاً ، فالأدب عنده ايضاً محاكاة او تقليد ، وهو تسجيل لضرب من الالهام مقدس ولكنه يجنح الى الجنون ، وقد انصب اهتمامه على تأثير الادب وعلى شخصيات ممارسيه وانفعالاتهم ، واتضح ارسطو الاخلاقي من خلال دراسته لتأثير المأساة (التراجيديا) في نفوس النظارة وانتهى الى نظرية التطهير Catharsis ومفادها ان المأساة تثير في

René Wellek and Austin Warren : Theory of Literature, (١) Penguin Books, 1968 , P2q .

(٢) انظر مثلاً الفصول الاربعة الاولى من المصدر السابق . وقد صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب عن المجلس الاعلى للآداب في دمشق بعنوان « نظرية الادب » ، ١٩٧٢ . ترجمة : محي الدين صبحي

المشاهد مشاعر الخوف والشفقة وتروي ظمأه الى هذه الانفعالات فيمارس نوعاً من الخبرة تؤدي الى تطهير نفسه وتمكنه من مواجهة الواقع بقوة وشجاعة .

وفي العصور الوسطى سيطر المفهوم الديني على الادب في اوربا وكان الادب ، شأنه شأن الفلسفة ، يقف من اللاهوت موقف الخادم من سيده ، وعاش معظم النشاط الادبي في ظل الاديرة وكان شديد التأثر بالنظرة الاخلاقية المسيحية .

اما عند العرب فلم يتخذ التمييز بين المسألتين شكلا نظريا حاداً .

ومن الناحية النظرية لم يكن الموقف الاسلامي ايجابياً بالنسبة للشعراء بل كان موقف ادانة واضحة :

« والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون مالا يفعلون »

وقد نُزّه القرآن الكريم عن ان يكون شعراً ونفيت صفة الشاعرية عن النبي محمد بانكار شديد . ولكن هذا الموقف من الشعراء ظل نظرياً وتبين من التطبيق العملي ان المقصودين بالادانة هم نوع خاص من الشعراء الوثنيين ، وجرت في الفترة الاولى استعانة بالشعراء الصالحين مثل كعب بن زهير . وهذا الموقف النظري لا يخرج بجمله عن الموقف الذي اتخذه افلاطون اذ استبعد الشعراء اللااخلاقيين ولكنه افسح مجالا للشعراء الحكماء .

وعلى اي حال لم يستمر الموقف الديني النظري طويلا وسرعان مااستعاد الشعراء المكانة التي كانت لهم قبل الاسلام بل تجاوزوها . ولكن النقاد العرب كان لهم رأي آخر في المسألة من زاوية النقد التطبيقي ومعظمهم مالوا الى التمييز بين اتجاهات المضمون وجمالية الشكل ، فالاصمعي مثلا :

« كان يقيم حداً فاصلا بين الشعر والدين ، ويراهما عالمين منفصلين لايتصل احدهما بالآخر ، وفي اتصالهما حيف على الشعر نفسه ، لان طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان .. » (١)

والواقع ان نقاد العرب في الغالب مالوا الى اعفاء الادب من الالتزامات الاخلاقية وكان تشديدهم منصباً على الناحية الشكلية وحتى النقاد ذوو الاتجاه الديني والاخلاقي الذين استبعدوا بعض انواع الشعر او ادانوا بعض الشعر ادانة اخلاقية (الباقلاني ، ابن شرف ، ابن بسام) لم يقللوا من أهمية المقاييس الشكلية في نقدهم التطبيقي .

(١) عباس ، د . احسان ، تاريخ النقد الادبي عند العرب بيروت ١٩٧١ ، ص٥

والواقع ان التمييز الدقيق بين (طبيعة الادب) و (وظيفته) لم يبدأ الا في مطلع العصور الحديثة وعلى وجه التحديد نتيجة لاسهام فلاسفة مثل « كنت » و« باومجارتن» في نظريات النقد الادبي ، اذ اوضح الفلاسفة والمنظرون الفرق بين السؤالين ومالوا باتجاه البحث عن طبيعة الادب ، ولم يتبلور هذا الامر تماماً الا باستواء النظرية الشكلية واشتداد الخلاف بين انصار « الفن للفن » و « الفن في سبيل الحياة » .

وفي عصرنا الحالي تتعايش النظرتان وتتصارعان ، ويتخذ صراعها احياناً طابعاً حاداً تبعاً لتقلبات الاجواء الفكرية والسياسية ذلك لان النظرتين كلتيها اصبحتا وثيقتي العلاقة بالعقيدة والسياسة ، ويجدر التنبيه هنا الى ان كلمة اخلاقي تستعمل بمعناها العام ولاتنحصر بأي مفهوم اخلاقي معين ويراد بها ان تشمل كل اتجاه لاستخدام الادب في سبيل الاخلاق او العقيدة او المذهب أي اعطاء الادب وظيفة خارجة عن كونه ادباً ، وهي بذلك تشمل نظرات ارسطو الاخلاقية ،واغراض دانتي الدينية، وتطلعات ابن الفارض والبوصيري الروحية، واستهداف الاصلاح الاجتماعي عند الواقعيين وتوجيه الادب لخدمة الطبقات الكادحة عند الواقعيين الاشتراكيين . وعلى النحو نفسه يشمل مصطلح « الشكلية» كل من كان منطلقه الاساسي شكلياً مها تفاوت موقفه من حيث الاتقان الشكلي ، فالشاعر ازرا باوند مثلا يعبر عن نظرة شكلية في دعوته الى تحطيم الاوزان والبنى التقليدية ، ومع انه ثائر على الشكل يمكن اعتبار منطلقه شكلياً، فالمسألة ليست مسألة كون الاديب مع الاخلاق او ضدها او مع الشكل او ضده بل هي مسألة المنطلق الاساسي لموقف الاديب(١)

- ٣ -

كانت النظرية الاخلاقية سابقة للنظرية الشكلية ، فأفلاطون اراد ان يستخدم الادب لتثقيف الحرس ، وشلي حمل الادب عبئاً ضخماً في اعادة خلق الانسانية والواقعية الاشتراكية في عصرنا هذا تعتبر الادب سلاحاً طبقياً يسهم في تطوير الحياة وتوجيها نحو تحقيق المجتمع الاشتراكي كغيره من النشاطات الاجتماعية والوجودية تطرح مفهوم الالتزام الذاتي النابع من داخل الفنان وتعتبر الكلمة موقفاً ومسؤولية ، وهكذا فان الموقف الاخلاقي في الادب قد يكون فردياً وقد يكون اجتماعياً وقد يكون دينياً وقد يكون فلسفياً .

---

(١) للتفصيل في هذه النقطة راجع :

Hongh Graham : An Essay on Criticism London, 1966 , P 11

والمفهوم الأساسي الذي تقوم عليه النظرية الاخلاقية هي ان قانون الكمال في الادب هو نفسه قانون الكمال في الحياة الاجتماعية ، والأدب خاضع للمبادىء نفسها التي تحكم سائر الخبرات الانسانية ، ومن الصواب ان نحكم عليه بمقدار مايسهم في كمال النشاط الانساني . ولكن كيف يسهم الادب في النشاط الانساني ومن خلال اية معايير ؟ هنا تختلف الاجوبة باختلاف المذاهب الاخلاقية . فالادباء القدامى آثروا تصوير القدوة الحسنة وابرازها بشكل يدعو الى تقليدها وقادهم ذلك الى تجنب النماذج السيئة والشريرة ، ومن الواضح ان هذا الموقف يتضمن مجانبة لواقع الحياة ويقدم نظرة ذات بعد واحد . ثم ان المعايير الاخلاقية متطورة بتطور الحياة ، ومفاهيم الخير تتغير من زمن الى زمن ، فالاحسان مثلا قيمة اساسية في سلم الاخلاق التقليدي أما في سلم الاخلاق الاشتراكي فلا مكان له ، ثم ان المقاييس الاخلاقية للمجتمع الحديث بوجه عام تختلف عن القديم ، وربط الادب بالأخلاق يعني ربطه بقيم غير ثابتة وحرمانه من فرصة الخلود التي تعتبر من أهم مميزات الأدب الجيد . واليوم تتخذ هذه المسألة طابعاً اشد تعقيداً ، فالنظرية الاخلاقية جزء من ايديولوجية أشمل فكرية اوسياسية — اجتماعية ، وهي تستمد معاييرها الاخلاقية « والفنية تبعاً لذلك » من قيم خارجة عن العملية الادبية ذاتها ، وبسبب من ازدياد تغلغل السياسة في الحياة اليومية للانسان المعاصر يزداد خضوع الادب لتفسيرات السلطة للمفهومات الاخلاقية والاجتماعية مما يعرض الانتاج الادبي لموجات من النقمة او التمجيد غير نابعه من خواصه الذاتية . يضاف الى ذلك كله انه لاتوجد ضمانة لاستمرار فعالية النموذج الاخلاقي . فما يكون قدوة في عصر قد يكون العكس في عصر آخر . فالبطل الجاهلي مثلا قد لايكون مقبولا من خلال المفهوم الاسلامي والفرسان المتعطشون لسفك الدماء في عصر الفروسية مرفوضون في منطق العصر الحديث ، ثم انه ما من احد يضمن ان يستمر الاعجاب بالبطل المنشور والاجيال الناشئة احيانا تقف موقف المستخف بالبطل التقليدي واحياناً تبحث عن النماذج السلبية .

على ان هذه الاعتراضات ليست الا امثلة في طريق النظرية الاخلاقية التي اثبتت وجودها منذ اقدم الازمنة حتى اليوم بأشكال مختلفة . والنظريات الاجتماعية الحديثة « الماركسية بالدرجة الاولى » أعطت الموقف الاخلاقي في الادب بعداً جديداً له منطقه ومسوغاته القوية ، فالأدب ظاهرة اجتماعية وانتاج الأدب عملية اجتماعية والاديب يكتب ليوصل افكاره الى الناس اما اذا كانت العملية محصورة في نفس الاديب فلماذا يكتب ولماذا ينشر انتاجه ؟ ان الاديب يعبر عن الواقع الاجتماعي بالطبقة في عصر معين وهو بالضرورة يتجه الى مخاطبة قطاع اجتماعي معين قد

يكون طبقة ذات حدود اقتصادية . ان وضوح هذا المفهوم عند الماركسيين يعطي النقد الماركسي مقياساً عينياً «ولو خارجياً» لايتوافر لغيره من النقاد ويتيح الادب المتأثر بهذا الاتجاه فرصة التطور الدائم لتحقيق ذاته . وينطلق النقد الماركسي من مقولات أساسية تقوده الى مواقف عينية فالمادة سابقة للفكر ، والوجود سابق للوعي ، والوجود الاجتماعي هو الذي يقرر الوجود الفكري . ويترتب على ذلك تأكيد اسبقية المحتوى على الشكل دون ان يمنع ذلك من التأكيد على وحدتهما الديالكتيكية ، والجمال الشكلي موضوعي ونسبي ، موضوعي لأنه يتعلق بالشيء لا بالمتذوق ، ونسبي لانه مرتبط بالشروط الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة ويختلف بالنسبة الى كل عصر وطبقة ويتحدد بفعل حركة التاريخ ، اذ لاوجود لجمال منسلخ عن حركة التاريخ . وعلى هذا يكون الجمال متغيراً وتابعاً للمحتوى المتغير باستمرار ويغدو الشكل وسيلة لاظهار المحتوى بالظهور المقبول اجتماعياً ويستمد مقوماته من متطلبات مضمونة لامن قواعد جمالية ثابتة .

ان طبيعة البحث لاتسمح بالخوض في التفصيلات المتعلقة بكل من الموقفين الاخلاقي والشكلي ، وخلاصة مايمكن ان يقال هنا هو ان النظرية الاخلاقية تجددت في هذا العصر بسبب المنحى الاجتماعي الحديث الذي اتخذته وعلى الرغم من جميع الاعتراضات التي توجه اليها فمن الواضح انها مستمرة بشكل او بآخر ، ولعل التفسير التالي لوظيفة الأدب يوضح سر القوة في هذه النظرية .

« يقدم لنا الادب المادة الخام للمحاكمة الاخلاقية ، ويقدم منها اكثر بكثير مما تقدمه حياة أي فرد .. انه يقدم لنا امتداداً للخبرة الاخلاقية .. ذلك ان خبرة الفرد محدودة بظروفه الشخصية ، بعصره وقوميته وطبقته . وهو يستطيع توسيع هذه الخبرة بأسلوب نظري تجريدي عن طريق عدد من الدراسات كالتاريخ والانثروبولوجيا والفلسفة . ولكن من خلال الادب يستطيع الانسان فعلا ان يمارس خبرة طرز اخرى من الوجود وذلك عن طريق التطابق الخيالي . والادب هو الطريقة الاساسية التي تمكننا من هذه الممارسة » (١).

ان قائل هذه الكلمات البروفسور غراهام هان ، رئيس قسم اللغة الانكليزية في جامعة كامبردج ، ينطلق من منطلقات غير اجتماعية

(١) المصدر السابق ص ٢٨.

في فهمه للادب ، ومع ذلك يبيح لنا هذا القول ان نؤكد ان الوظيفة الاجتماعية الاخلاقية للادب قائمة في طبيعة ذاتها .

— ٤ —

تأخرت النظرية الشكلية في الظهور ولم تكن متبلورة في الآداب القديمة ؛ ودعاتها هم الفلاسفة وعلماء الجمال او الادباء في المجتمعات المتطورة ، وهي غير مقبولة بين عامة الناس والنظرية الاخلاقية أعرق منها واكثر رواجاً وترجع بداءتها الى القرن الثالث عشر .

تقول النظرية الشكلية، ان الأدب فعالية انسانية خاصة قائمة بذاتها ولها قوانينها الخاصة التي تحكمها والتي يمكن ارجاعها الى مبدأ واحد هو الاتقان الصحيح للعمل الأدبي ولكل فن أداته الخاصة ولعل أداة الفن الأدبي ، وهي اللغة ، اعقد الأدوات جميعاً لأنها حصيلة لمختلف الفعاليات الانسانية . ويصر دعاة النظرية الشكلية على التفريق بين مقاييس هذه الفعاليات الانسانية المختلفة وبين المقاييس الأدبية الخالصة في حين يقول دعاة النظرية الأخلاقية بعدم امكان التفريق بين النوعين لأنها متصلان ومتشابكان .

ان الادب عند الشكليين نوع من التأمل المحايد الخالص وقيمته الجمالية متميزة تماماً عن القانون الاخلاقي والاجتماعي لأنها نابعة من ذاته . ويعتبر الفيلسوف الالماني « كنت » الرائد الاول للنظرية الشكلية فهو اول من وضع قواعد محددة لفلسفة جمالية، وقد ألح على أن شكل العمل الفني بقوانينه الداخلية الخالصة هو العامل الوحيد في الحكم عليه بالجمال او القبح . وعرّف الجمال بأنه الشكل الخالي من الغرض ، وعنده أن الجميل هو الذي يكون ممتعاً بالضرورة وبصورة كلية شاملة دون مفهوم ما ، وهذه المتعة مقطوعة الصلة بأية فائدة مهما كانت . وعند « كنت » أن الجمال نوعان : نوع حر منعدم الغرض وهو الشكل المثالي للجمال، ونوع تابع يداخله الغرض وهو اقل مرتبة في السلم الجمالي . وبعد « كنت » أتى شيلر واتخذ من افكاره منطلقاً لتفسير العمل الفني وحاول أن يوضح علاقة العمل الفني بالجمال وانتهى الى ان غاية العمل الفني هي خلق الجمال وعنده ان العمل الفني هو بالضرورة ضرب من النشاط التلقائي الخالي من الغرض . وبعد « شيلر » أتى « سبنسر »وطور افكاره بنظرية «الفن لعب» اي انه نشاط تلقائي يحدث لنا لذة لانه ومتعة لانه انفاق للفائض من قوانا المدخرة ، وبذلك التفت « سبنسر » الى الناحية النفسية في عملية الخلق الادبي . وعنده ان مايميز اللذة الفنية كونها غير مرتبطة بالوظائف الحيوية كالاكل والشرب وانها لا تهيء لنا اية منفعة محددة ، فالانسان لا يستغني بالفن عن الاكل والفن نطاقه الخاص الذي لاعلاقة له بالوظائف الحيوية. وقد ايد « دور كهايم» هذا الاتجاه ثم خطا به الفيلسوف« هربرت »خطوة باتجاه المفهومات

الشكلية الحديثة وانتهى الى الفصل التام بين الشكل والمضمون وعنده ان المحتوى متغير ونسبي والصورة مطلقة وحرة وهي التي نبحث فيها موضوعياً عن الجمال. وبالتدريج اخذت تنتقل هذه النظرية من عالم الفلسفة الى عالم الادب على يد النقاد المتأثرين بها، وكان « تيوفيل غوتييه » اول من وضع هذه الافكار في الصيغة الفنية فنادى بدعوة «الفن للفن» وكان شديد التطرف في هذه الدعوة وتمثل ذلك في قوله: ان حبي للاشياء والناس يتناسب عكساً مع مايمكن ان يقدموه من فائدة، واعتبر المضمون النافع ضاراً بالشكل. وهكذا قامت النظرية الشكلية للجمال على ثلاثة منطلقات اساسية:

١ ـ التأكيد على الطبيعة الذاتية للجمال.

٢ ـ الفصل بين الشكل والمضمون.

٣ ـ الفصل بين الجميل وبين النافع والمفيد.

والنظرية الشكلية ـ بخلاف ما هو شائع عنها ـ ليست بطبيعتها ضد الأخلاق. وإن كانت تفصل بين الجمال والأخلاق، ولكن الشكليين الأوائل ولا سيا بودلير ورامبو قدموا لمجتمعاتهم أسوأ مثال للخروج على العرف الأخلاقي وبذلك تم نوع من الاقتران غير الدقيق بين الشكلية واللا أخلاقية. وقد زاد من حدة الوصمات التي توصم بها النظرية الشكلية الهجوم المركز الذي يشنه النقد الأيديولوجي والاجتماعي على الشكليين وأبراجهم العاجية التي تعتبر عند الأيديولوجيين هرباً من مواجهة الواقع وانسحاباً من المسؤولية الطبقية أو القومية أو الانسانية.

ولكن ما هو هذا القانون الادبي الخاص الذي يتحدث عنه الشكليون وما كنهه؟

تتضارب الآراء هنا تضارباً عجيباً، واذا صنفنا هذه الآراء تصنيفاً تاريخياً نستطيع أن نقول إنها تلخص تاريخ تطور الذوق الأدبي منذ أيام أرسطو حتى يومنا هذا. وليس من شأن هذا البحث الموجز أن يتفحص سلسلة الآراء المختلفة بهذا الشأن، على أنه من الممكن إرجاع العناصر المشتركة في النظريات الشكلية المختلفة الى ثلاث خصائص رئيسية؛ وهي الوحدة والتماسك والتألق.

ا ـ الوحدة:

هناك اتفاق ضارب الجذور في تاريخ النقد الأدبي الأوربي على أن العمل الأدبي يجب أن يكون كلاً متكاملاً لا أجزاء متفرقة أو شذرات من هنا وهناك، ويتراوح تصور هذا الكل بين مفهوم أرسطو المنطقي للتكامل (بداءة ووسط ونهاية) وبين مفهوم كولردج

للوحدة العضوية الذي يرى أن القصيدة مجموعة من المجازات تتضافر لتجعل العمل الفني ينمو من الداخل باتجاه شكل متكامل وكأنه النبتة الحية ... على أن مفهوم الوحدة غير مقتصر على المسألة المنطقية وحدها أو مسألة الشكل الخارجي ؛ فهناك وحدة الموضوع أو الحالة الداخلية – كما نجد في الأعمال الابتداعية والرمزية . وهناك نماذج ادبية ممتعة تتجاوز المفهومات المتفق عليها لمبدأ الوحدة وتفسح المجال للاستطرادات والتضارب والاطالة في الاحداث الجزئية ومع ذلك يشعر الانسان انها توفر نوعاً من الوحدة ولا تتساقط كسفاً. مثال ذلك الرواية الخيالية في العصور الوسطى وعصر النهضة وبعض اعمال تشارلز ديكنز (اوراق بيكوين) ؛ بل ان شكسبير نفسه أشبه بغابة لا بحديقة منسقة ومع ذلك توفر اعماله دائماً انطباعاً بالوحدة العضوية والوحدة الشكلية في آن معاً. وربما كان سر هذا الانطباع ان مثل هذه الأعمال الفنية خاضعة لنوع معين من الانسجام يوحي بالتكامل والوحدة فهي قد تتعلق بطابع معين من المغامرات او العواطف وقد يكون الرابط فيها هو الاهتمام بالشخص ذاته ، وهي لا تقودنا الى نهايات محددة ولكنها تثير شغفنا باستمرار ويتوافر فيها نوع من الكل المتكامل الذي يصعب تغييره من خلال اجزائه .

ومقابل هذا الفهم المطاط للوحدة شهد الادب الأوربي شكلاً متزمتاً جداً من اشكال الوحدة مثاله الأول ادغار ألن بو الذي أصر على ان القصيدة الطويلة لا وجود لها وانها تتألف من مجموعة قصائد قصار ، وحدد العمل الأدبي بامكان استيعابه في جلسة واحدة ويعتبر هذا التحديد هرطقة ارسطوطالية فأرسطو لم يقصد بالوحدة هذا التضييق وكان مفهومه لحجم العمل الأدبي هو أنه « حجم يمكن ان تستوعبه الذاكرة بسهولة». وان تحديد العمل الادبي بلحظة انطباع واحدة يناقض وجود العمل الادبي ذاته .

ب – الانسجام :

ويعني الانسجام ترابط أجزاء العمل الفني وتناسبها وفق متطلبات الموضوع ومنطقه الذاتي ؛ فعلى العمل الفني ، كما يقول كولردج ، أن يتضمن في ذاته السبب الذي جعله على هذا النحو دون أي نحو آخر » . وهذا يعني التناسب من الناحية المنطقية أي أن يتوافر حسن توزيع الأجزاء وأن يجري التطور الداخلي ضمن توقيت مناسب، ويعني أيضاً التناسب من الناحية الكيفية أي أن يجري التأكيد المناسب على أجزاء العمل الفني حسب أهميتها (كما يجري تحديد درجة الألوان في الرسم) . والتناسب ضروري لأن العمل الفني قد يكون كلاً واحداً ولكنه يفتقر الى التناسب والتوازن فمسرحية « تاجر البندقية » مثلاً تعبر عن كل واحد

ولكن تطغى عليها عواطف وانفعالات شيلوك بحيث تكاد تطمس الآخرين .

وليس يعني الانسجام نوعاً من التوافق السلبي القائم على استبعاد العناصر المغايرة وانما يعني القدرة على توفير توافق ايجابي بين العناصر المتباينة .

جـ ـ التألق :

ويعني التألق ذلك الاشعاع الجمالي الذي ينبع من الاستعمال الأدبي الخاص للغة والذي يفرق هذا الاستعمال عن سائر الاستعمالات العملية لها ، وهو تألق نابع من الفطورارز على السطح وقد يفتقد اعند الترجمة ، وهو بالذات مايسمى أحياناً بسحر البيان . وأي عمل أدبي لابد أن يحتوي قسطاً من هذه الخاصية الجمالية . وتتفاوت الأعمال الأدبية تفاوتاً كبيراً في هذا المجال ، وتأتي في القمة أشعار الرمزيين ولا سيما مالارميه ، وربما وردت في أسفل السلم الروايات الدارجة والعامية (١) .

ومن الواضح ان الخصائص الثلاث السابقة (الوحدة ، الانسجام ، التماسك) ذات طابع أرسطوطالي مدرسي وأنها وضعت على هذا الشكل لتسهيل التمييز وأنها لاتستطيع أن تستوعب جميع العناصر المتباينة للنظرية الشكلية ولذلك كان على الانسان ان يتناولها بحذر شديد وأن يعتبرها مجرد مؤشرات . والناقد الواعي يدرك تماماً أن هذه الخصائص لاتتوافر في العمل الأدبي على مستوى واحد فهناك أعمال يكون التشديد فيها قوياً على عنصر دون آخر . ومهما يكن من أمر فان أهم مايجب ان يحتاط له الناقد هو عدم تطبيق هذه العناصر على الادب الاوروبي الحديث (Modern) لأن هذا الادب له قوانينه الخاصة التي تختلف عن كل ماعرفته الآداب الانسانية السالفة من مواصفات ، وبدلاً من العناصر السابقة تسيطر على الادب الحديث عناصر أخرى مثل التوتر والتعارض والصراع والنشاز وهي عناصر مقصودة ومتعمدة وتؤلف لب الموقف الفردي المتمرد ضد الحضارة الآلية المعاصرة التي لم يعرف تاريخ الانسانية الماضي مثيلاً أيضاً .

* * *

— ٥ —

وهكذا يتضح من خلال العرض السابق أن النظرتين الأخلاقية والشكلية كلتيها

---

(١) اعتمدت في شرح الخصائص السابقة اعتماداً رئيسياً على البروفسور غراهام هاف في كتابه مقالة في النقد .

Hough : An Essay on Criticism . 8 - 25

يصعب أن تعتبرا نظريتين أدبيتين لأنها أصلا نبعتا من مفهومات أوسع من الأدب نفسه وطبقتا عليه قوانين أشمل منه ، ولم تستنبطا وظيفة الأدب وطبيعته انطلاقاً من قوانينه الداخلية ؛ وقد حرصت خلال البحث في النظرية الشكلية على إظهار الركيزة الفلسفية التي تستند اليها هذه النظرية لأنفي المعتقد السائد بأن النظرية الشكلية هي النظرية التي تنطلق من طبيعة الأدب نفسه ، على أن ذلك لا ينفي صحة الاعتراض الذي يواجه به الشكليون دعاة النظرية الاخلاقية ومفاده أن الاخلاقيين يقيسون الادب بمقياس خارج عنه . واذا صح هذا الكلام فان للمرء أن يتساءل هل كان للأدباء والنقاد دور جوهري في مجال نظرية الأدب ام كانت محاولاتهم جميعاً من بودلير الى كولردج الى آرنولد الى إليوت تتكىء اتكاء شديداً على أسس فلسفية أي على موقف من خارج الأدب ؟ وهل يظل الأمر على حاله أم أن تطورات الأدب الحديث — وهي تطورات أساسية وذات شأن ، وقد تختلف عن كل ما عرفته الانسانية من ادب في الماضي — سوف تقود الى نظرية في الأدب مستنبطة من دراسة الظاهرة الأدبية نفسها ؟ لعل المرء لا يستطيع إطلاق هذا التساؤل على عواهنه دون ان يشير الى المحاولة الجدية العميقة التي قام بها رينيه ولك وأوستن وارين في كتاب نظرية الأدب Theory of Literature الذي اشرت اليه واقتبست منه في مطلع هذا البحث ، إن هذه المحاولة تكاد تكون من المحاولات القليلة من نوعها ، ولكن المرء إذ يقدر قيمتها العلمية الهائلة لدارس الأدب لايستطيع الا ان يلاحظ ان الجانب التكنيكي والعملي هو الغالب عليها ، وبالتالي يعود المرء الى طرح السؤال بشكل آخر ؛ ترى هل توجد امكانية لوضع نظرية للأدب نابعة من خواص الأعمال الأدبية نفسها وغير تابعة مباشرة لنظرة فلسفية او ايديولوجية اشمل ؟

والى أن يتحقق ذلك يظل دارس الادب او الناقد مضطراً للاتكاء على النظريتين كلتيهما للاستفادة منها معاً حسبما يقتضي الحال ، واستبعاد الاسراف والمغالاة ؛ وتقريب الشقة بين طرفين يتناقضان في المجال النظري تناقضاً واضحاً ولكنها في مجال الممارسة يلتقيان عند أمور كثيرة لسبب بسيط هو أن وظيفة الأدب وطبيعته وجهان لحقيقة واحدة .

المرأة .. والنقد .. والكلمات الحجارة !

الدكتورة نجاح العطار

ولنبدأ بالمرأة أولاً ، تلك التي زعموا في التاريخ - تاريخنا - أنها لعبة ، وأنها مسلاة « لطفل » اسمه الرجل ، فنقلوا الينا عرفين أو مجتهدين ، العبارة الشهيرة القائلة بأن النساء « لعب الرجال » ، وجهدوا لاقناعنا بأن ذلك ما كان ، وما يجب أن يكون .

والغريب في الأمر أن المرأة ـ جهل المرأة ـ ارتضى هذا الواقع، فكان الحريم مخزناً للعب الرجال. وقد توارث الرجال هذه النظرة إلى المرأة وتشبثوا بها وما يزالون .. لكن منطق الحياة علّم المرأة، في صراعها من أجل الأكرم ، أن الحرية تؤخذ ولا تمنح ، وأنها إذ تحطم اغلالها ، وتزداد إحساساً بوجودها وانسانيتها ، تملي على الآخرين موقفهم حيالها .. ثم هبت رياح التغيير ، ومباركة كانت ، فتبدلت النظرة إلى حد ما .. فرضت المرأة، بسبب من تحررها العلمي والاقتصادي ، وجودها حضوراً في الحياة لا غنى عنه ، إن تتح لها فرص العطاء تعط بلا حدود، وتكون في كل مجال شريكة لا تابعة ، وسيدة لا عبدة ، وذات رأي وموقف لا عالة على الرأي والموقف .

غير انني ، في كلامي الآن ، لاأقصد الجانب الاجتماعي من حياة المرأة . ذلك له وقت آخر وحديث آخر ، يطول . ما أريده ، بتحديد ، هو نظرة الرجل إلى أدب المرأة ، أو الأدب الذي تصنعه المرأة ، أياً كان حظه من الإبداع .

فقد لا حظت ، بكثير من الإشفاق ان نظرة الدمية إلى المرأة ، هي ذاتها نظرة الدمية إلى أدب المرأة . فالسادة الرجال يبهرهم ان تكتب المرأة كتابة جيدة . يعتبرون ذلك ظاهرة ، وتزداد دهشتهم أمام هذه الظاهرة إذا كان ماتكتبه ينطوي على قدر من فكر ، وقدر من مطاوعة الأسلوب في أداء هذا الفكر ، فيروحون ، في كرم مبالغ فيه ، يثنون عليها ، ويمتدحونها حتى يدخلوا الغرور إلى نفسها ، ويخنقوها بالأنشوطة التي خنقوا بها أنفسهم .

وقد لا تصرخ كما صرخ محمود درويش : « ارحمونا من حبكم القاسي » ، ذلك أنها ، فيما كتبت ، تعرف أنها في البدايات لماتطمح أن تكون ، فيما يليها . غير أن كلمات الثناء التي سمعتها المرأة وتسمعها ، كافيةوحدها، لولا الكفاح ضدها ، لأن تجعلها تقتنع أن ماكتبت هو ذروة ما يكتب . .

لا! إن ذلك لايجلب سروراً كبيراً للكاتبة الجادة ، ولئن حمل بعض السرور فانه لايفيد وهي تعرف هذه الحقيقة ، ومن أجلها تحب لكلمات المديح أن تتنازل عن مواقعها لما هو أجدى ، الانصاف ، والموضوعية ، والجدية .

ولماذا أقول ذلك ؟

لأن بعض النقاد ينظرون إلى أدب المرأة بمنظار يختلف عن أدب الرجل . . يسايرون الأنثى لأنها الدمية جسماً وعقلاً وأدباً في اعتبارهم ، كما كانت في اعتبار أجدادهم .

ولقد تحدثت إلى أحد النقاد حول تعليق له على أدب سيدة من سيداتنا ، وما تكلفه من جهد لاصطناع اللطف واللين في الحكم عليه ، فقال إنه يفعل ذلك للتشجيع . . فيا له من أسلوب لطيف في التشجيع ! ويا للخدعة أن نسمي الأشياء بغير أسمائها ، وأن نرى في البذرة الذاوية نبتة ذات شأن ، وأن يصير مثل هذا التدليس واجباً ، وإلا فالموهبة تظل إمكاناً في حيز الامكان كما قال .

أنا أسأل الأستاذ الناقد ، كيف يتصور أن تبقى الموهبة الأصيلة إمكاناً في حيز الامكان ؟

ورود الربيع تنمو أحياناً في قفر أو في ثنايا صخرة، تتخطى وتتحدى وتنشر العبير، وجودها فرض وفي نمائها ذاتية وتصميم . كذلك الموهبة حين تكون ، وحين تصر على أن تكون ، في تفجرها النبعي الذي لن تبلغ أن تحجزه قشرة أرض أو قشرة قمر . انها لا تنتظر، كالتمثال ،يداً ترفع عنها الستار ولا مدشناً يقص لها الشريط الحريري ، وقد تحتاج إلى الرعاية والتشجيع، ولكنها لاتصير بها ، ولا تتوكأ عليها ، لأن ذلك يتعارض أساساً مع كبرياء الخلق .

ولندع جانباً وبشيء من الصراحة ما اجترته المرحلة من أفكار ! فباسم رعاية المواهب الناشئة كان هذا الركام من الانشاء الأدبي ، وباسم تشجيع الأدب النسائي طفا على السطح غثاء يحار القارىء كيف يسيغه . . وبقي على النقد الأصيل أن يقول كلمته لهؤلاء جميعاً .

أسأل : لم كل هذه المجاملة وهذا التواضع في تقبل أدب المرأة ؟ الأمر الطبيعي هو أن نحتكم في تقييم إنتاجها إلى المقاييس ذاتها التي تقيم أدب الرجل أو تحكم على صدق موهبته ، هذا إذا شئنا ألا نقف عند حدود المنطق الرجعي الذي يبرر الضعف بالضعف ، ويتكرم فيبسط جناحه على المخلوق السلبي الأصم ، سخياً بالمجاملات ! !

أعود الى السؤال الأول : كيف تبقى الموهبة امكاناً في حيز الامكان ، بانتظار من يقول لها كوني لتكون ؛ وهي شيء في الأعماق يشتعل فيضيء ، وقلق في النفس لاهف يؤرق ويستبد ويتلمس، ويبحث بالحاح عن التجسد ، ويتجسد لأنه لابد أن يتجسد كالتيار الجوفي الذي لابد أن يعبر عن ذاته عاصفة أو بركاناً أو ماهو بينهما على الأقل.

أما القلم الحيي الذي يمس على استحياء ويتقطع، والذي يعوزه دائماً حبر التشجيع

وحافزه وعرضه، فمحال على صاحبه أن يتخطى عتبة الابداع ، وان هو تخطاها راوح عندها غير محلق في دنيا الخلق الساحرة والمسحورة معاً .

لا أهاجم أحداً ، ولا أدافع عن أحد ، ولكنني أرجو الا نعتبر من يكتب أحياناً ما يروق أو يعجب أو يصل الى المستوى المقبول ، كاتباً او كاتبة . . والا نحاول اقناعه بذلك .

الكتابة شيء آخر . .

والأستاذ الناقد يعرف هذه الحقيقة ، وفي الظن ان السيدة التي عنى تشاركني الرأي، وأنها مثلي لا تسيغ هذه الجنتلمانية الأدبية .

لقد شبت المرأة عن الطوق . . .

أقول شبت ولا اقول انعتقت . فضغط البيئة ، واسار العادات ، وترسبات الماضي تفعل فعلها زمناً ـ وهذا الفعل التأثري اللا ارادي ينعكس على السلوك كما ينعكس على الادب ، فتجنح الكاتبة ، في وهم التحرر أو شكليته على الأصح ، الى جعل ما تكتبه تكريساً للخاص ، ونرجسية للذات ، تمهوساً في اختراع قصص حب هي بطلتها ، وحولها وحدها تدور ، كأنما الحب ، هذه العاطفة الأسمى ، هو فقط هذا اللون من حكايا الغرام المعزول اجتماعياً وانسانياً ، المتمحور على علاقة ثنائية بين الرجل اللاعب والمرأة اللعبة!

ان صمت النقد الواعي حيال هذا الادب الأنثوي المحدود في ابعاده حيناً ، والخالي من الأبعاد أحياناً صمت مشبوه ، ومن المؤسف أنه يتملقه اذا خرج عن هذا الصمت أحياناً بدلاً من ان يساعفه باتجاه الشمول الانساني والعمق الاجتماعي ، للخلاص من التقوقع الذاتي والتعبد النرجسي . بل ان بعضهم صفق « للجرأة » في قول اشياء خاصة لا تهم غير أصحابها ، وكان هذا التصفيق استجراراً على متزلق ، ينم عن رضى بأن تبقى المرأة ، انثى وكاتبة ، في اطار النظرة الصنمية اليا ، وبشي بالتوافق معها على دور الدمية التي روضت على ارتضائه لنفسها .

* * *

غير أن هذا النقد الواعي المنهجي غائب أصلا عن حياتنا أو محجوب . ومقابل هذا التمدح لأدب المرأة من جهة، والإغضاء عن تهافت بعضه بحجة تشجيعه من جهة اخرى ، نرى أن المحاولات النقدية ، في التعليقات الصحفية السريعة، تتسم بتجريحية طائشة تعبر عن قصور في الاستشراف ، وعجز في الرؤية . . وقد قال نيتشه قديماً : « إذا عجزتم فلا تقولوا عجز الإنسان » وكم يعجبني هذا القول . .

فما أكثر من يرفعون العصا ليقولوا للآخرين لا مناص ! عجز الإنسان وتعجزون .

الأديب قاصر ومقلد وسطحي ودون مستوى أقرانه في العالم ، والفنان لا يرسم بل يلطخ وبينه وبين الابداع أبعاد ، والممثل بليد لا يعرف كيف يعبر ولا كيف يتحرك والمسرح ليس له ! أما المفكر فعالة على الترجمات يلص" دون أن يعترف ، ويخلط ويهذر ، ويصنع كل شيء الا أن يفكر الخ!

وحتى في اليوميات الصغيرة ، يقف بعضنا لبعض بالمرصاد ، لا نرى الا من زاوية واحدة ، ولا نقيّم الا لنلوي بالمبادرين عن المبادرة ، ونرضى بعد ذلك عن أنفسنا بصلف مضحك حين نظن أننا أقنعنا الآخرين بعجزهم ، أو حين ، في دخلة من حسد ، نخلع عجزنا على غيرنا لنكون فيه سواء .

بيد أن هذا السلب يتخطاه بجدية اولئك المهيئون لهذه الجدية ، ومن يعملون ولا يأبهون «للذين لا يعملون ويريدون لغيرهم أن لا يعمل» حسبما شكا طه حسين يوماً . ثم لماذا ننسى دائماً أننا مازال ننفض عنا غبار التاريخ ، واننا نعبر من مرحلة تخلف الى مرحلة حضارة ، والعمل شاق ، والضلال ممكن ، والعثرات كثيرة ، وبعض القصور مقبول ، الا أن يكون قعوداً ، وأن نكون نحن في القعدة من الناس ؟ ! . .

ولم كل هذه العنجهية نمارسها فيما بيننا ؟! ولم لا يرضينا الا أن يستسلم الانسان تحت ضرباتنا ويعلن افلاسه ؟ أمّا اذا اختار لنفسه أن يحمل معولاً ويشق الطريق ، أما اذا اختار أن يكتب أو يرسم أو يمثل أو يفكر ، رحنا نعدد أخطاءه وعيوبه ، وما ارتكبه وما اجترحه ، بغير إحساس منا بالمسؤولية وبغير رغبة في مساعفته وتقويمه ، صارخين في وجهه : لم لا تعرف حدودك ؟

وحدودنا جميعاً أين هي ؟

لو خضع من يمارسون شؤون الفكر أو الفن في بلدنا لضغط السخرية ، واستجابوا لسلبيات النقد الطائش ، لحرمنا من كثير مما يمكن أن يعد أساسياً بالنسبة لتطورنا وعبورنا من مرحلة تخلف شبه مطلق الى مدى أرحب وأغنى وأكثر انبساطاً .

لقد حمل هؤلاء صليبهم مرتين ، وكانت سيوفنا أبداً مصلتة فوق رؤوسهم عبثاً دونه كل أعبائهم .

أقول ذلك في ضيق من النقد ؟

أرجوكم ! ليست هذه دعوة إلى عدم ممارسته !

ذلك أن مثل هذا الاتهام أمر غير وارد . فالنقد الذي أعنيه هو ذاك الذي لا يشكل إلا السلب المطلق ، ولا يقصد

من ورائه إلا القعود بالعاملين عن العمل بحجة العجز والانسحاق أمـــام التراث العالمي العظيم .

وكم هو مؤلم أن يؤدي هذا الإحساس بالانسحاق إلى تنازلات كثيرة ، دفعنا ثمنها تمزقاً وتبلداً واسترخاء واستسلاماً ، وما نزال ندفع حتى الآن .

أما النقد البناء البريء الذي يمد يداً كريمة ترشد وتصحح وتشجع في آن ، وتقيم الصوى على الطريق ، غير متأثرة الا بمنطق العمل المنتج ، وبالايمان بالانسان وامكانات الانسان فأمل كبير ، وطموح يتحقق أحياناً ، وتغيب ملامحه في أحيان كثيرة .

للعاملين أن يتابعوا ، وللساخرين أن يكفوا عن ايقاف الركب .. القافلة تتحرك ، والزمن لا يواكب المتبطين . العجز كبير ولكن الطموح يتخطى العجز .

كلمات التجريح كثيرة يمكن ان يقولها ، دون عناء ، من يشاء ، وكيف يشاء ، وهي لا تدل على عبقرية أو على ذكاء . . . والأمر العسير هو أن نعلم هؤلاء المجرحين أن ينظروا بكثير من التعاطف الى جهود غيرهم أو الى انتاج غيرهم ، وان يقيّموا هـــذا الانتاج على اكثر من ضوء ، وبأكثر من مقياس ، وان يفعلوا ذلك بضمير من النَّصَفَة وفوق مهاد من الثقافة التي تتيح لهم أن يكونوا في المقوّمين .

* * *

شيء آخر ورثناه من الماضي ، هو الحماسة اللفظية في غير موضعها ، أو الكلام بصوت مرتفع ، أو الخطابة التي هي أشبه بالصراخ . فنحن نخطب حين ننظم ، وحين نكتب ، وحين نتكلم . نخطب في مجالس الأصدقاء ، وضمن جدران الغرف ، وحين ينبغي ان يكون الحوار حديثاً ، وحين يستحسن ان يكون الحديث همساً ، نجوى حبيب ، أو وشوشة رملة لأخرى ، في صحراء نخال ان السكينة العميقة سر أسرارها .

نحب الخطابة تراثاً ؟! نعم ! ولكن إلى متى ؟

كانت الكلمة في دمنا حنيناً بعيداً الى غنائية بدائية تتكشف عن أفق المتاهة ، ايقاعه العاصفة ولونه الثأر ، بسيط ولكنه عنيف ، وظلت الكلمة في حياتنا عاصفاً هدر ظلت منبرية عبر قرون طويلة . . . ونادراً ما كنا نسمع همسها أو حفيفها أو تلاوين نغمها . وقليلاً ما كانت ناياً أو بدراً أو ظلاً أو حكاية ، أو مسارب نفس أحزانها شفق مساء ، أو زهرة ربيع .

وعبر قرون طويلة من التردي تحولت الكلمات الى كتل صماء ، الى حجارة تتساقط على الرؤوس ، الى قشور مزوقة همها البلاغة ولا بلاغة . ثم تطورت الحياة وتبدلت الدنيا وانفتحت آفاق ومسارب ، وضعفت وطأة التراث الخطابي ، وتغيرت مدلولات الأشياء وتاه على الشفاه سؤال — الى متى يظل الكاتب خطيباً ، والشاعر خطيباً ، والمتحدث خطيباً ؟ الى متى نخطىء في فهم معنى الكلمة الهادئة والكلمة الحارة والكلمة التي تصنع البطولة بالايحاء لا بالصراخ ؟

نحب الخطابة تراثاً ؟ ما نزال نحبها ؟! وفي كل مجال ؟ وهل هي ترادف عندنا معاني البطولة ومعاني الالتزام ؟

إن كنا نفكر بهذا الشكل فتلك بداية غريبة لا نحسد عليها . لقد خطرت في بالي هذه الخواطر وأنا أقرأ مجموعة قصصية صغيرة تتحدث عن الحب ، وتتقحم فيها البطولات ، لانها ، في رأي كاتبها ، التزام لا يتم بدونه الالتزام .

أتساءل : هل هناك من يرى ان الشيء الوحيد الذي يلتزم به الكاتب هو ترداد كلمات النضال والبطولة والكفاح والتضحية والواجب والفداء في غير مكانها وغير ضرورتها ؟

هل يغدو الفدائي فدائياً حين يلبس بزة الفدائي ؟ هل ينبغي أن يقيم القاص منبراً يقف بطله أو بطلته عليه ليلقيا منه كلمات الحماسة حجارة على الرؤوس كي يعتبر ملتزماً ؟

ولماذا كل هذا الافتعال وهذه الخطابة ؟

لماذا يصطنع كاتب هذه المجموعة المواقف الوعظية ، ويجعل من أشخاصه عرائس متحركة ؟ كلماتها فخمة ولكن خيوطها بادية للعيان ، وثوبها فضفاض طويل الذيل ، والجسم ضئيل ضئيل .

من يقول لصاحب هذه المجموعة باسمي : مات يا سيدي الكلمة الحجر وفات أوانها ، وسقطت الكلمة الصماء وتهاوى منبرها . الكلمة أنفاس حارة وحياة بعيدة الأغوار ، هي النضال وليست صداه الاصم . والاقصوصة ، بعد ذلك ، لم تعد الاذن مسربها .. لها مسالكها الخاصة الى النفس ، وهي لا تدخل من نوافذ الجعجعة .. وقد تكون أشد نضالية حين لا يكون فيها كلمة نضال ، وحين تأتي بكامل عفويتها وصدقها وبساطتها ..

الناس يريدون من القاص أو الكاتب أو المناضل أن يخاطبهم من بين صفوفهم ، ان يهمس في آذانهم ، لم يعودوا يتقبلون لغة المنابر أو يفهمون معنى عصا الواعظ ، لأنهم بحاجة الى ما هو اكثر حميمية ، واشد ارتباطاً بهم .

والقاص قبل غيره من تحدث الى الناس حديث صديق ، فهو يعرف كيف يلمس الجراح ، ويكشف عن الطوايا ، ويفجر منابع القوة والعنفوان ، ويتخطى سلبية الاشياء بكلماته الرفيقة ، البسيطة ، المتناغمة التي تزداد عطاء كلما ازدادت فنية ، وبعدت عن غوغائية الصراخ والضجيج ، والمواقف المصطنعة المصنوعة ...

واحزناه يا حكايا الجدات وأقاصيص السامرين في اعماق البادية ، فقد كنت ، على بساطتك ، اقرب الى الفن من بعض أقاصيص الطبول والزمور !

وا حزناه للالتزام يفهم على غير معناه ، ويؤخذ بظاهرة ويغدو عارياً من مضمونه الحقيقي ، حلية لفظ وصنعة خطابة .

والحب ، ويلاه للحب ، يمر عبر قفص الاتهام ، وقوس المحكمة ، وسلسلة من الشتائم والمواعظ ، الرمز فيهـا سقيم ، والمعنى ضائع في ثنايا غير شفيفة .

الثورة حقيقة أكبر من المنبر ، وفلسطين والفداء وأبناء الخيام والمشردون هم في واقعهم اليومي الممزق أغنى من أن يحتاجوا إلى أقلام لا تعرف أن ترسم سماتهم ، او ان تستقرىء واقعهم وتنفذ إلى صميم عذاباتهم .

* * *

رايت من ايام لوحة لفنان قيل لي إنها ملتزمة . وامعنت فيها النظر ، واصابتني رعشة .

الخطابة هنا مرة ثانية .

اللون والخط والحركة ! من يستطيع ان يحدق في الوجه ؟ لم يكون المقاوم مفزعاً بهذا الشكل ؟! كاداري المنبر هنا أيضاً ، مع ان اي مشهد آخر يصلح ان يكون مادة للوحة اروع ، ولكن ماذا تفعل إذا كان لابد من ان يبرز العقال وتظهر البارودة ، وتجحظ العين ، حتى تكون اللوحة ملتزمة في نظر بعض الملتزمين او المسيئين إلى الالتزام ؟

وقد عدت بالذاكرة الى عشرات اللوحات التي تعرض باستمرار على أنها التعبير الملتزم عن القضية . . واستعرضت في ذهني أيضاً ما نشهده في المسرح أو على الشاشة من مسرحيات أو لوحات راقصة هي على الأغلب خطابة من نوع رديء ، مسخ للاشياء ، أو تشويه ، وأ كاد أقول عبث محزن يفتق في النفس أكثر من جرح .

ان عملية الابداع لنسيج انساني في دقته ورهافته وتنوعه وحرارته ومعجزة الخلق فيه ، وهـذه المعجزة في خلق الانسان هي

نفسها في خلق الفن ، ومن المحال أن تشرح أو توصف ، ومن المحال ، كذلك ، أن تكون حجارة ترصف ، أو كلمات تطن ، ونحن لم نبدع ما أبدعنا الا بالتخلي عن الافتعال والصراخ ، ولن نستمر في الابداع وننهض به الى المستوى اللائق بعصرنا الا حين نتحرر من علبة الطنين هذه ، ولنتعلم كيف نتناول الأمور ببساطة صادقة ونرسم خطوطها من خلال ممارساتنا ، ونعيش حياتنا في واقعها الأكثر شفافية وصدقاً ، والأقل تزييفاً ، والا حين نعرف كيف نتعامل مع الكلمة واللون والحركة تعاملاً فنيا صحيحاً .

نحب الخطابة تراثاً ؟! ما تزال نحبها !؟ أتصور ان الجمهور غدا شديد العزوف عنها وعن ممثليها ، يحس وطأتها ويضيق بها ، ولئن كان أسيرها فقد تمرد عليها ، تجاوزها المد ، وخسرت مواقعها في معركة الانسان المدافع عن أرضه وكرامته .

هل اخطب انا ايضاً ؟ هل وقعت دون ان اعي فريسة السحر العتيق ؟

معذرة اذن للقارىء ، وللقاص الذي انتقدت ، وكذلك للفنانين والمسرحيين ، وكل من قام في ذهنهم أن الالتزام في الفن منبر الكلمات الاحجار او علبة للألوان الفاقعة .

* * *

✶ ✶ ✶

الثورة والثوريون

في مسرح بيتر فايس

خالد الشريقي

يرى سارتر ان نساجي الحرير في مدينة ليون ، والعمال الذين ثاروا عام ١٨٤٨ لم يكونوا ثوريين ، لكنهم مثيرو شغب ، لأنهم كانوا يناضلون لتحقيق بعض الاصلاحات، وليس لاحداث تغيير جذري في طريقة حياتهم . وهذا يعني انهم كانوا راضين عنها ككل ولقد قبلوا ان يكونوا مأجورين وان يعملوا على آلات لم يكونوا يمتلكونها ، واعترفوا بحقوق الطبقة المالكة ، وارتضوا بما فرضت عليهم من اخلاقيات ، ولم يكونوا يطلبون

الا ان يستزيدوا اجورهم داخل نطاق احوال لم يتجاوزوها او حتى يعترفوا بها(١) .

وبرغم هذه النظرة المزاجية من سارتر ، فان ارنست فيشر (٢) يرى ان هذه الحركات كانت ثورية ، لا مجرد حركة من حركات الاحتجاج ، لأنها تمكنت من تحريك الجماهير .

كان كوميون باريس نقطة التحول ، فقد تمكن العمال في أول ثورة يقودونها من الاستيلاء على السلطة . ومع ازدياد دور الطبقة العاملة ازدادت صعوبة الاكتفاء باعلان السخط داخل الاطار البرجوازي ، وزاد الصراع الطبقي من مطالبة المثقفين الساخطين بتحديد موقف واضح لهم ، فقد كان عليهم ان يختاروا بين التحالف مع العمال، او الانضمام لرجعيين ، لأن الطريق الثالث كان وهماً ، فاختيار موقف الاستقلال الظاهري كان في الواقع تأييداً للاوضاع القائمة وعملا ضد قوى المستقبل .

ستكون الصورة أوضح الآن عندما نقول : اذا لم تكن معنا فأنت علينا .

وانطلاقاً من هذا المبدأ ، فان الموقف الثالث مرفوض حتما ، فهو ان لم يكن موقف الضد المباشر ، فسيكون موقف المتفرج المتعاطف والمنحاز الى الوضع القائم وهذا ماأكده الثائر الفلسطيني في اكثر من مناسبة ، لأنك لم تثر وتحارب ، فانت مسحوق تئن تحت نير الاستغلال .

يخبرنا غاندي بان نساء البوير (٣) قد فهمن بان دينهن يقتضيهن ان يتألمن من اجل صيانة استقلالهن ، وبأنهن من أجل ذلك قد تحملن المشاق كلها في جلد وابتهاج ، في الوقت الذي يعرف فيه غاندي ان ماركس يريد ان يقول بأنه ينبغي على الطبقة العاملة ان تسحق ، تدمر ، تنسف آلة الدولة بأكلها ، وبان الثورة ليست في ان تسود وتحكم بواسطة آلة الدولة القديمة ، بل في ان تسود وتحكم بواسطة آلة جديدة بعد ان تحطم القديمة ، وكان يعرف ايضاً ان ماركس يعارض في عدول العمال عن استخدام السلاح او عن استخدام العنف المنظم بقصد تحطيم مقاومة البرجوازية(٤) .

---

(١) كتاب (الماركسية والثورة)

(٢) كتاب « الاشتراكية والفن »

(٣) كتاب « قصة اللاعنف »

(٤) كتاب « الدولة والثورة » لينين

ان انتصار الثورة لايعني نهايتها ، فالرجعية والبرجوازية لن تهادن . ان فانون يؤكد على استمرار الثورة بعد الاستقلال السياسي لاستكمال مابدىء به اثناء القتال المسلح من تغيير البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية وذلك خوفاً من البرجوازية المحلية على مكاسب الثورة . ان الصراع بين الحرية الفردية والاجتماعية سيبقى مستعراً طالما بقي الصراع قائماً بين الاشتراكية والرأسمالية . وعليك ان تعرف اين تضع قدمك .. أين تقف .. ان الموقف الوسط مرفوض تماماً كما رفض من قبل الموقف الثالث .

ادرك المخرج الالماني ارفين بسكاتور ان طريق الاشتراكية هي الحل الأفضل لمشكلات الانسان الحديث ، فربط مسرحه بالواقع وحاول الوصول به الى الجماهير العريضة التي كان يأمل ان تقوم بالثورة (١).

صدر لبسكاتور عام ١٩٢٩ كتاب « المسرح السياسي » الذي حدد فيه دعائم هذا المسرح واساليبه ، فمهد بذلك الطريق لبريخت ومسرحه الملحمي ولبيتر فايس ومسرحه التسجيلي .

يشير ماتييز الى ان الثورة تقوم عندما يصاحب التغيير في المؤسسات تغيير أعمق في نظام التملك ، وينطلق بريخت ملتمساً صيحة ماركس : « ان كل مافعله الفلاسفة هو انهم فسروا العالم بطرق مختلفة والمسألة الرئيسية هي تغييره ».

وكان بريخت قد قال من قبل بأن المسرح يجب ان ينمي لدى الناس متعة الفهم والادراك ويجب ان يدربهم على الاغتباط بتغيير الواقع ، وان نعلمهم في مسرحنا كيف يشعرون بكل الفرحة والرضا اللتين يشعر بها المكتشف والمخترع وبكل النصر الذي يستشعره الفائز على الطغيان .

وقد آمن بيتر فايس ببريخت واعتبره اعظم من تحدث الى عصرنا من فوق خشبة المسرح ، وآمن ايضاً بضرورة تغيير المجتمع ، ورفض اشكاله ومفاهيمه ، كما

(١) كتاب « المسرح الحديث » اريك بنتلي

رفض الواقع بكل قسوته وغربته وجبروته . وهو يؤكد على دور الفن في تغيير الفكر البشري والعلاقات الاجتماعية السائدة .

يعتمد المسرح التسجيلي على اعادة جمع عدد من الحقائق التاريخية لتقديمها بشكل مسرحي في محاولة لالقاء ضوء جديد عليها وتفسيرها باسلوب معاصر، وهي وان تكن خالية من العقدة ، الا أن الأحداث التاريخية تقع وتتتابع دون ان يتدخل الكاتب فيها او يبدي رأيه حولها .. انه يكتفي بأن يرقبها من بعيد.

وهذا مادعا بعض النقاد لأن يصفوا هذا المسرح بانه لا يعدو أكثر من ريبورتاج صحفي ، او نوع من المذكرات .

يتحدث بيتر فايس عن نفسه :

(انني لا اثق في الاشكال الاجتماعية السياسية القائمة كما انني لا اجرؤ على اقتراح شكل آخر ، هذا منتهى الضعف لا شك ، كما انه لا ينبغي ان نطلب من الكاتب حلاً واضحاً ، فالعالم نفسه ليس بواضح) .

في ايام الحكم النازي هرب فايس الى السويد، وعاش فيه، وقد تولد لديه الاحساس بانه لم يعد ينتمي الى وطن معين ، وان أية بقعة في هذا العالم هي وطنه (فالذي لا يتبع وطناً معيناً يصير مواطناً عالمياً) .

هذا الاحساس كان له التأثير الكلي على اتجاهه ، فقد غدا يرقب احداث العالم من بعيد .. واصبح يلتزم بالعالم ككل ، ويصور التجربة الانسانية بكل ابعادها ، بكل قسوتها وهولها ، وبكل الفزع الذي تقيمه في النفوس .

فماذا قدم لنا بيتر فايس من افكار ثورية بعد هذا وهو الكاتب الاشتراكي الالماني الثائر ؟ وما رأيه في الثورة والثوريين من خلال اعماله المسرحية ؟.. وهل تراه يؤمن بحتمية الثورة ؟.

سنستعرض اكثر من عمل لهذا الكاتب حتى نصل الى الكلمة الاخيرة التي يريد أن يقولها لنا .

في عام ١٩٦٤ قدم مسرحية بهذا الاسم ،

(اضطهاد واغتيال جان بول مارا كما قدمته فرقة تمثيل مصحة شارنتون تحت اشراف السيد دي صاد) (١) .

وقد اثارت هذه المسرحية حين ظهورها ضجة كبيرة في معظم عواصم العالم التي مثلت فيها .

سنقف قليلا لنتعرف الى الخلفية التاريخية لهذه المسرحية ، والى شخصيتي بطليها ؛ جان بول مارا ، والمركيز دي صاد .

يقول (كارليل) في كتابه (الثورة الفرنسية) بان جان بول مارا كان اول من اصدر بياناً الى الشعب الفرنسي في اول تموز ١٧٨٩ وقبل اندلاع الثورة بأيام ، وجه فيه الى الشعب نصيحة حارة بان يبتعد قبل كل شيء عن استعمال العنف والقسوة في مسيرته الثوريـــة .

كان يطلق على مارا صديق الشعب وحامي الفقراء ، وكان يطالب بمحاكمة عادلة للملكيين ولكل فرد يشك في ولائه حتى تثبت براءته او يدان ، وقد اغتالته فتاة قروية تدعى كوردي عندما كان يستحم في احد الحمامات بدافع من الجيرونديين ، الجمهوريين المعتدلين الذين انضم اليهم الملكيون فيما بعد .

وقد اعدمت كوردي بالمقصلة بعد ان قتلت مارا .

كان مارا طبيباً عالماً مشهوراً ، عاش فترة في انكلترة قبل أن ينضم الى الثورة الفرنسية ، وقد وصفه بعض الكتاب البرجوازيين — كما يقول فايس — بالعنف وتعطشه للدماء ، في حين أن بعض كتاب القرن العشرين أعادوا النظر في موقف مارا معترفين بذكائه وحدة فهمه السياسي ، ومع هذا فان فايس لا يستغرب تعطش مارا للدماء ، معتبراً ميوله أقرب ما تكون الى النظام الدكتاتوري الخطر برغم صيحته الشهيرة : (دكتاتور .. يجب أن تختفي هذه الكلمة ، انني اكره كل شيء يذكرني بالسادة والملوك)، ولا يرى فايس في مارا الا أحد مفكري ودعاة الاشتراكية برغم نظرياته الاجتماعية الثورية (٢) .

---

(١) سنشير الى هذه المسرحية بكلمتي « مارا — صاد » كما هو معروف عنها

(٢) ان الدكتور امين العيوطي في مقاله « مـــارا — صاد — نظرة غريبة الى الثورات الاشتراكية » مجلة المسرح — العدد ٤٣ لعام ٩٦٧ يتهم فايس بانه اراد دفـــع مارا كرائد اشتراكي بالدموية والعنف ليصل الى ادانة الثورات الاشتراكية المعاصرة .

أما الماركيز دي صاد فقد كان فردي النزعة ، شغل عدة مناصب ، واليه تنسب كما هو معروف (السادية) ، وهي الرغبة واللذة في تعذيب الآخرين .

من المعروف الشائع عن دى صاد أنه شاذ وفاجر ، كتب العديد من كتبه التي اتضحت فيها ميوله ، والتي كانت السبب في سجنه والحكم عليه بعقوبة الاعدام فيما بعد ، لأنه قدم فيها صوراً غريبة لتحلل الاخلاقي في المجتمع البرجوازي الفاسد .

قضى دى صاد بقية حياته من عام ١٨٠١ الى عام١٨١٤ في مستشفىشارنتون للامراض العقلية ، وفي خلال وجوده في ذلك المستشفى أخرج عدة مسرحيات مثلها المرضى الذين كان يعيش معهم .

وفي رأي بيتر فايس أن دي صاد كان يعتبر نفسه ثورياً ، من خلال رسالة بعث بها من سجنه الى زوجته في عام ١٧٨٣ يقول فيها :

(ان طريقتي في التفكير لا يمكن ان يبيحها او يوافق عليها انسان ، هكذا قالوا ، ولكن ماقيمة ذلك ، مجنون بالفعل من يحاول تقديم طريقة تفكير للآخرين ، ان اسلوبي في التفكير نتيجة لتفكير مستمر ، انه يخص حياتي فحسب ، يخص ابداعي ، وليس في مقدرتي ان اغيره ، ولو كان ذلك في مقدوري لما فعلت ، ان هذا المنهج الذي يستنكرونه علي في التفكير هو عزائي الوحيد في هذه الحياة ، انه هو الذي خفف عذابي في فترة السجن ، انه هو الذي سبب لي كل افراحي وسعادتي في هذا العالم ، حتى انه يهمني اكثر من حياتي نفسها ، لم تكن طريقة تفكيري هي سبب شقائي ، وانما طريقة تفكير الآخرين) .

وفي أواخر أيام حياته وصفه طبيب من مصحة شارنتون بالوصف التالي :

(قابلته مراراً ، وحيداً ، يخطو خطوات متثاقلة ، مهملا ثيابه ، سائراً في الممرات ، لم أره قط يحادث انساناً ، وعندما كنت امر به واحييه كان يرد التحية بشكل مقتضب بارد مهذب ، ليصد اي محاولة لفتح حديث معه) .

وبصدد علاقة مارا بدي صاد ، فان بيتر فايس قد اختلق هذا اللقاء ليصل الى الهدف الذي يسعى اليه ، وليعطينا الرجل الثوري كما يراه ويصوره .

يقول فايس بصدد هذه العلاقة بأنها علاقة خيالية ترتبط بحادثة واقعية هي القاء دي صاد خطبة في تأبين مارا .

ويقول فايس ان الذي يهمنا من مواجهة دي صاد بمارا هو ذلك الصراع بين الفردية المتطرفة وبين الدعوة الى التغيير السياسي والاجتماعي ، لقد كان دي صاد مقتنعاً أيضاً بضرورة الثورة ، وكانت اعماله تتحدى وتفضح الطبقة الحاكمة المتعفنة .

ويضيف فايس أن دي صاد كان نموذجاً للموقف الثالث أو الموقف الوسط ، فهو يفضل من ناحية موقف مارا ، لكنه يرى في الناحية الاخرى خطورة النظام الجماعي وهو الفردي المتطرف، كذلك فان آراءه التي تتعلق بتوزيع الثروة كانت محافظة،لدرجة انه كان يريد الاحتفاظ بقصره وبأملاكه .

لقد كان من صميم خيال فايس كما يبين ذلك أن يضع دي صاد في مواجهة مارا في ساعاته الاخيرة .

ويؤكد فايس انه من الضروري ان نحاول من خلال المسرح تغيير المجتمع ، فالكتابة الذاتية الفردية ، وبتعبير آخر الكتابة الشخصية غير كافية على الاطلاق، وعلى الكاتب ألا يكتب الا من خلال ذلك المنطق : (تغيير المجتمع والتأثير فيه)

وفي هذا كما يقول د . يسرى خميس : يلتقي فايس مع استاذه العظيم بريخت في امل تحقيق مجتمع اشتراكي مثالي .

فالحياة – كما يقرر بريخت – سيئة كما هي ، وستظل سيئة طالما كان هناك من يمارس الضغط على الآخرين .

ان فايس يصر على تغيير الواقع ، وهو يعتبر ان الفن يمتلك القدرة على تغيير الحياة ، والا فقد الفن هدفه .

سأعيد رأي فايس بنفسه عندما كتب مسرحيته (مارا – صاد) :

(انني لا أثق في الاشكال الاجتماعيـة السياسية القائمة ، كما أنني لا أجرؤ على اقتراح شكل آخر ، هذا منتهى الضعف ولا شك ، كما انه لاينبغي ان نطلب من الكاتب حلاً واضحاً ، فالعالم نفسه ليس بواضح) .

ان فايس يزداد جرأة في حديثه عن نفسه عندما يقول :

(كان من الأفضل كثيراً لو أمكنني القول انني شيوعي مقتنع او اشتراكي

متطرف ، اذ لأمكنني قول شيء ، لكنني أقف في الوسط ، انني امثل الموقف الثالث الذي لايعجبني قط ، وربما بممارستي الكتابة سوف اكتشف موضعي ، انني اكتب لأكتشف أين أقف ، لذا يجب علي أن اطرح شكوكي حتى استطيع الاختيار) .

ان د . يسرى خميس يقول بصدد هذه المسرحية ، بأنها تعرض فترة من فترات تاريخ الثورة الفرنسية ، وان بيتر فايس يعيد تفسير احدى شخصيات الثورة الهامة « مارا » بحيث تبدو دوافعه ممكنة التصور بدلا من تلك الصورة الدموية التي وصفه بها المؤرخون ، فانها تتضمن اكثر من ذلك انها عرض للقيم التي تحملها هذه الشخصية ، وللمعوقات التي تقف في وجه تحقيق تلك القيم ، ويظل مارا مع ذلك يناضل ، لايدفعه شيء الى اليأس بعد ان صمم على التغيير .

ولكن فايس لايتوقف في تصويره لشخصية مارا عند هذا الحد . بل يواجهها بشخصية اخرى مضادة يدخلها الموقف التاريخي ، ليبرز من خلال تناقضها بعداً جديداً وهاماً في مفهومه عن الثورة وعن الحرية .

ان فايس يعترف بكل صراحة بأنه يمثل الموقف الثالث الذي لايعجبه ، فهو غير راض عن موقفه هذا اذن ، وهو يبحث لنفسه عن موضع ، انه يريد ان يحدد موقفه ، يريد أن يعرف اين يقف . برغم ايمانه بضرورة التغيير الاجتماعي .

وفي معرض حديث فايس عن دي صاد يقول بأن دي صاد كان نموذجاً للموقف الثالث أو الموقف الوسط ، وكأن فايس قد وجد نفسه في دي صاد الفردي النزعة ، هناك قطبان يتنازعان ، مارا الذي يمثل الثورة والتغيير الاجتماعي ، ودي صاد الذي يجسد النزعة الفردية بجميع صورها واشكالها .

هذان القطبان يتصارعان في عقل فايس ، انه يؤمن بالحرية الفردية ، يؤمن بالانسان ، ولكن أي معنى لوجود هذا الانسان في مجتمع مقهور مغلوب على امره ؟..

كما انه يؤمن أيضاً بالتغيير الاجتماعي والسياسي ،، ولكن أين يقف الانسان الفرد في هذا المجتمع اذا كان مسحوقاً لايجد فيه حريته ونفسه ؟

يتمنى فايس ان يوفق بين هذين القطبين ، يتمنى ان يصاحب التغيير الاجتماعي الحرية الفردية للانسان بمفهومها الشامل ..

ولهذا نرى فايس يتردد بين هذين الموقفين ، انه حائر ، يبحث عن نفسه ولا يجدها .. وهو يأمل من خلال ممارسته الكتابة ان يكتشف موضعه ومكانه .

فهل اكتشف شيئاً .. سؤال لازلنا نردده ، لنحاول الاجابة عليه من خلال أعمال بيتر فايس المسرحية الشعرية .

ذكرنا قبل قليل ، انه في عام ٩٦٤ قدم مسرحيته (مارا ـ صاد) ، فماذا قال لنا فيها ؟..

أبطالها جميعاً من نزلاء مصحة شارنتون ، الذين يؤلف لهم المركيز دي صاد(نزيل المصحة ايضاً) تمثيلية عن الليلة الأخيرة لاغتيال جان بول مارا .

الممثلون اذن من المجانين ، مدير المصحة (كولمييه) يفتتح الحفلة بهذه المقدمة ؟

بصفتي مديراً لمصحة شارنتون

أحييكم في هذا الصالون

وأتوجه بالشكر الى المركيز دي صاد الذي ألف هذه المسرحية .

من أجل تسليتكم ومن أجل تثقيف المرضى ، ويحاول الآن اخراجها .

وهذه المسرحية سوف نمثلها في الحمام .. سنعرض عليكم الساعات الأخيرة لجان بول مارا التي قضاها كما نعلم في حوض الاستحمام .

ويخرج كولمييه ، ليتقدم (المنادي) الذي يعرفنا بأبطال المسرحية ، ويخبرنا عن الحدث الذي سيقع فيما بعد ، اننا منذ البداية نعرف كيف تنتهي الاحداث .

استطاعت البرجوازية الفرنسية والقوى المضادة أن تحول الثورة الفرنسية عن مسيرتها ، وقد قاوم الثوريون الحقيقيون هذا الاتجاه .

ان الافراد الاربعة الذين يمثلون الشعب يقولون هذه الحقيقة :

مضت اربع سنوات على ثورتنا .

منذ ان حطمنا التاج الذهبي

في الليلة السابقة للاحتفال بالثورة

التي اجهز عليها في النهاية الامبراطور نابليون

فليشنق الجنرالات سماسرة الحرب

تحيا الثورة

ان مارا يجسد مطاليب الفقراء من الناس ، انه أملهم في انتصار ثورتهم ، وتصحيح انحرافها ، وفايس يرى فيه هذا الانسان الثائر :

مارا نريد طعاماً

مارا لا نريد ان نبقى في السجون

مارا نريد ان نعيش في رخاء

بهذه الاوراق نتوجك يا مارا

عاش مارا

نحن ننتظر منك الكثير

انت الوحيد الذي نثق فيه

حذار ان تفسد ثورتنا

ان فايس يستعرض حقيقة الشعب الفرنسي ، لأنه يؤمن ان هذا الذل ، وهذه العبودية والقسوة التي كبلت الفقراء من الناس ، لا يمكن لها أن تدوم ، ان الشعب الذي قال كلمته عندما أسقط النظام الملكي ، مستمر في ثورته على الذين يحاولون اجهاضها :

بصلابة كافحت القس والمنافقين وتجار الذهب وقرود الحرب .

كشفت باستمرار حقيقة الاشاعات التي يروجها انصار النظام القديم

بينما اصبح ابطالنا السابقون .. السادة الجدد

الذين يسدون الطريق في وجه بعضهم

يتصارعون ويتقاذفون

ويلقون بعضهم في الحفر وتحت المقصلة

.. اننا نسمع دائماً هذا الالحاح ، الذي يمهد لأفكار فايس ، ان الثورة لا زالت قائمة .. ولكن هناك تساؤلاً كبيراً :

مارا ماذا حدث لثورتنا ؟

مارا لا نريد الانتظار حتى الغد

مارا ما زلنا فقراء

اليوم نريد التغييرات الموعودة .

من خلال هذه النداءات المتكررة يقدم لنا فايس المريضة (كوردي) ليبرر لنا اغتيالها لمارا ان هذا الثائر الذي أطلقوا عليه صديق الشعب ومحامي الفقراء قد تحول الى طاغية :

كوردي لمارا : كلانا اراد الحرية

غير انك كنت تسير الى الحرية فوق جبل

من الجثث البشرية

لذلك يجب ان أنبذ آخوتك

وان يكون واجبي هو قتلك

اني اقتل فرداً من أجل آلاف مؤلفة ،

من أجل تحريرهم من القيود

هل هذا هو مارا الثائر حقاً ؟ وهل نستطيع ان نشك في ثورية فايس ؟

طالما ان فايس قد اعترف بأن البرجوازية حاولت اعطاء مارا صورة شارب الدماء . فلماذا اذن يثبت في أذهاننا هذه الصورة ؟ ولماذا يجعله يتكلم بلهجة استبدادية :

هل يناقض فايس التاريخ :

مارا : ماذا يعني حوض استحمام مليء الدم

مقابل الدماء التي سوف تسيل عما قريب

ذات يوم كنا نعتقد أن عدة مئات من الموتى فيهم الكفاية .

ثم رأينا أن الآلاف لاتكفي

ان مارا يريد أن يسير على الجماجم ، لابد أنه يؤمن بالعنف المضاد الذي حدثنا عنه فانون فيما بعد ، فالشعب يئن تحت القسوة والوحشية ، والفوضى والفقر والجوع متفشية كلها بشكل مخيف ، حتى أن الانسان لم يعد يطمئن الى سلامته في ذلك الجو الرهيب الذي ساد فرانسا أيام الثورة :

مارا : مملكتنا ليست من هذا العالم

هكذا انتزعوا من الفقراء القرش الأخير

ثم قالوا للجياع تعذبوا كما تعذب المسيح على الصليب
وصلوا من أجل جلاديكم .

من أجل هؤلاء ، لابد وأن يثور مارا ، انه يعلن خطأ أشياء معينة ليعمل على تغييرها ، في الوقت الذي يبحث فيه دي صاد عن نفسه حتى يميز الخطأ من الصواب ، ولايمانه بأن مايفعله ليس الا مجرد صورة وهمية لما يريد أن يفعله ، فالحقائق منفية في رأي دي صاد ، ماعدا الحقائق المتغيرة التي يختبرها الفرد بنفسه .

ان دي صاد حائر ، لايعرف اذا كان هو الجلاد أم الضحية ، ان أي شيء لم يعد يهمه ، حتى الثورة ، كأنه يئس من حتمية الانتصار الانساني الشامل قبل أن ينتصر الفرد على نفسه في مثل هذا الجو الغاضب الذي يقول فيه أحد المرضى أنه اشترك في قتل ملايين البشر .

يقول البير كامو أن (الغاضب يتحدى ، والثوري يهدم ويبني) .

لن نشك في أن مارا يريد أن يهدم حتى يستطيع البناء من جديد ، لأنه يعرف أن الافكار القلقة لاتكفي لتحطيم جدار ، وان الاقلام لايمكنها اسقاط نظام ، وهو يبرر عملية الهدم بأن الشيء الجديد لاينشأ الا وسط الاعمال الهوجاء ، ولان كثيرين من الذين بدأوا الكفاح معه عادوا يغازلون العهد القديم . ان الثورة كما يراها مارا لم تعد تمشي الا في ركاب مصالح التجار البرجوازيين ، تلك الطبقة الجديدة المنتصرة التي تتلوها الطبقة الرابعة في المؤخرة كالعادة .

يرى (رو) القس الاشتراكي المتطرف في مارا صورة القديس ، بل يعتبره كالمسيح المصلوب الذي يربح كل المؤمنين ، انه لايفتأ يطالبه ان يخرج اليهم ، لان دوره قد حان ، ولان الثورة يجب أن تستمر للحظة واحدة فقط تكون خلالها كالبرق الخاطف يسحق كل شيء .

ان (رو) يعرف أن أفراد الشعب محرومون من كل شيء ، حتى من الارض التي كانت ستوزع عليهم ، انه يؤكد على وجوب امتلاك المصانع والورش ، وبناء المدارس داخل الكنائس ، وفتح مخازن الغلال لتخفيف البؤس المتفشي ، ان تغييرات أساسية في العلاقات الاجتماعية يجب ان تتحقق ، لانه بغير هذه التغييرات لايمكن ان يثمر اي شيء مما يفعلونه .

أحس بيتر فايس في غربته بعدم ولائه الى وطن معين ، كان يشعر أن العالم كله هو وطنه ، ودى صاد الذي يمثل الموقف الثالث في نظر فايس لا تربطه أيضاً بوطنه أية رابطة ،

أترى حماقة حب الوطن
أقول لك أنني تخليت عن هذه البطولة منذ وقت طويل
وانني أهزأ بهذا الوطن كما أهزأ بكل الأوطان الأخرى

لقد عانى دى صاد من الاضطهاد والسجن لا شك ، كان يدرك أنه مظلوم ، وأن أحداً ما لا يفهمه في الوقت الذي كان يمارس فيه العنف والتلذذ بتعذيب الآخرين كما هو معروف عنه ، فكيف نفسر استنكاره للقسوة اذن :

الجميع يرغبون لعق الدم
حين نحسكم بالاعدام وتطير الرؤوس
نسمي ذلك عدالة ..

ربما لأن محاكم التفتيش التي أقيمت لم تعد تهيجه ولأن الاغتيالات غدت بلا وهج بعد أن أصبحت من نظام حياتهم اليومي ، حتى الادانة يراها دى صاد بلا عاطفة، فهو يقرر أنه لم يعد هناك موت فردي جميل ، وكل ما تبقى موت مجهول وبلا قيمة يلقون اليه بشعوب كاملة في برود وجمود حتى يأتي يوم تختفي فيه الحياة ، طالما أن أحد المرضى يقرر انهم يمشون على طمي رجراج من الجثث البشرية ، وأن تحت الأقدام في كل مكان عظام نخره ، رماد ، شعر متعفن ، أسنان منتزعة وجماجم مشجوجة .

واذا كان مارا يلمح بأن وسائل العنف لا تدوم ، وبأن كلمة دكتاتور يجب أن تختفي ، لأنه يكره كل شيء يذكره بالسادة والملوك ، فان كوردي التي تريد اغتياله تعرف أنه سوف ينصب نفسه زعيماً شعبياً ودكتاتوراً ، وان الانحلال والفوضى هما هدفه الأخير .

لا شك أن كوردي هذه تتكلم بلسان دي صاد ، الذي يمثل كما قلنا من قبل الموقف الثالث الذي يقف فيه فايس نفسه .

ان فايس يبحث عن الحرية الفردية التي يريدها دي صاد ، كما أنه يبحث عن التغيير الاجتماعي الذي يقرره مارا ، فهل من سبيل الى الاختيار والمفاضلة بينهما ؟..

ان فايس لا يزال يقف هنا بين هذين الجدارين ، متمنياً أن يجد السبيل الى هذا التغيير الاجتماعي والسياسي في ظل حرية الفرد الشخصية ، ودي صاد في بحثه عن الحرية الشخصية أيضاً يهزأ بكل التحركات الجماهيرية ، يهزأ بكل الضحايا التي تبذل من أجل أية

قضية ، لأنه لا يؤمن الا بنفسه برغم استنكاره للمفاهيم البرجوازية التي كانت سائدة وقتذاك ، وهو يرى أن هذه الثورة تقود الى ضياع الفرد ، الى ضعف مميت في دولة يبتعد نظامها كل البعد عن كل فرد ، ودي صاد الذي قضى سنوات في السجن يرى أن السجون الذاتية أبشع من الزنزانات ، ولطالما لم تفتح بعد هذه السجون فان كل ثورة مارا مجرد سجن للثورة .

ان بيتر فايس الحائر المتردد ، يعطي أكثر من مفهوم للثورة ، انه يبرر دائماً لدى صاد كراهيته للعنف والقسوة ، وعدم ايمانه الا بنفسه وسط مجتمع تسيل فيه الدماء ، وهو في محاولة أخرى يبرز وجهة نظر كوردي قاتلة مارا ، الفتاة الريفية المتدينة ، في أن الانسان سيعيش في يوم ما في وفاق مع نفسه ومع الآخرين ، وأن كل فرد سيمارس مع الجميع نفس الحق الذي يمارسه مع نفسه في ظل نظام يبيح للفرد أن يحافظ على حريته،وأن يكون فيه الجميع متساوين في الحقوق عن طريق القانون والاتفاق.

هذا هو المجتمع الذي تريده كوردي ، وهذه هي المدينة الفاضلة التي تقتل من أجل تحقيقها مارا الثائر .

ولكن هل تقنع المدينة الفاضلة الرجل الثوري الذي يريد تغيير المجتمع من جذوره؟

ان مارا الثائر لا يمكن أن تخدعه هذه الشعارات الكاذبة ، لان الاغنياء لن يكونوا على استعداد لان يتنازلوا عن أملاكهم عن طيب خاطر ، واذا اضطرتهم الظروف للتراجع، فهم يفعلون ذلك لانهم يعلمون جيداً أنهم سوف يربحون الجولة في النهاية . واذا قالوا أن العمال سينالون أجوراً أفضل، فلانهم يتوقعون انتاجاً أكثر يتبعه توزيع أكثر للمنتجات يؤدي الى تضخم جيوب أصحاب المشروعات .

ان مارا لاتفوته هذه الحقيقة ، وهو لايريد المهادنة ، ولن يكون هناك محل لغير استعمال العنف في تصفية الحساب مع المستغلين ، ان المصالحة مع هؤلاء مستحيلة لأن الصراع قائم لامحالة ، والوعود البراقة والاماني المعسولة ، والكلمات المنمقة لن تكون إلا محاولات لامتصاص نقمة وغضبة الجماهير في صراعها مع الطبقات المستغلة .

ولكن من هم الثوريون في نظر دي صاد :

هذه زوجها قصير وتريد زوجاً أطول

هذا حذاؤه ضيق ويرى أن حذاء جاره مريح

شاعر لايسعفه الوحي ، يبحث يائساً عن افكار جديدة

صياد يلقي سنارته في الماء منذ ساعات ، فلا تمسك بأي سمكة ،
وهكذا ينضمون الى الثورة ،
ويتصورون أن الثورة ستعطيهم كل شيء
سمكة ، حذاء ، قصيدة ، زوجاً آخر ، امرأة اخرى ..

واذا كان بيتر فايس قد جعل من هؤلاء الفاشلين ثوريين في نظر دي صاد ، فانه قد حكم على مارا بالثورية ، لأنه انسان فاشل ، ولنسمع ماذا يقول هؤلاء عن مارا الثوري :

المدرس : منذ صباه كان ذلك المارا يحرض رفاقه في اللعب .
فيتعار كون .. كم سالت الدماء
كانوا يسجنون بعضهم ، يقيدونهم ، يجلدونهم
دون أن يعرف أحد سبباً لذلك

الأم : حبسناه في البدروم ... لم ينفع ذلك كله ... كان من المستحيل علاجه

الأب : كان يعضني حينما اعضه

مارا : نعم .. اني اراكما .. يا أبي البغيض .. يا امي البغيضة ..

المدرس : هذا الدعي المتباهي صاح في سن الخامسة قائلا : ما يعرفه المدرس أعرفه انا .

ممثل الجيش : انظروا اليه الدجال الذي ظل يطمع في الألقاب وفي شرف النبلاء.
ولأنهم لم يعترفوا به .. وقف ضدهم .

ممثل العلم : ماذا فعل في انكلترا هذا المارا الشقي .
ألم يتحذلق وسط المجتمع الراقي ثم اضطر للهرب
بعد اكتشافهم سرقاته واختلاساته .

ثري الحروب : وعندما اكتشفوا انه نصاب

ركب ادويته من الماء والطباشير

فولتير : وصلنا من شخص يدعى مارا وريقات بعنوان (عن الانسان)

......

في مثل هذه الاشياء التي نسميها علماً لانملك حتى الضحكات ،

لافوازيه : لقد تلقت اكاديمية العلوم من شخص يدعى مارا بحثاً عن النار والكهرباء والضوء .

يدعي انه قادر على ....

فولتير : وعندما فشلت كل ابحاث هذا الدعي ،

القسيس : وجد في الثورة مخرجه الوحيد ،

المدوس : وذهب الى المضطهدين

ثري الحرب : وسمى نفسه صديق الشعب ،

القسيس : ولكنه لم يفكر في الشعب ،

لافوازيه : بل فكر في ازمة اضطهاده .

هل هذا حقاً مارا الثائر؟ ان هذه الاقوال عندما تصدر عن عدو للثورة ، فاننا لن نصدقها ، ولكن لماذا حشر فايس أم وأب مارا بين هؤلاء ؟ هل اعتبرهما أيضاً من اعداء الثورة ؟ وهل هذا الذي سمعناه هو من الحقائق التاريخية التي يريد اثباتها لنا ؟ انه سؤال كبير لازال يدور في أذهاننا ربما يكون مرده الى عدم وضوح رؤية فايس الذي يصر على أن الثورة هي من أجل هؤلاء الذين لايريدون أن يحفروا قبورهم بأيديهم من أجل الذين يريدون طعاماً ، ويرفضون أن يبقوا في السجون ، من أجل الذين يريدون أن يعيشوا في رخاء والذين مازالوا فقراء ينتظرون التغييرات الاجتماعية .

من أجل هؤلاء يثور مارا ويؤكد ثورته بعنف وتصميم ، من أجل هذه الحقائق التاريخية التي يلقي بها فايس بين أيدينا حين يعلن عنها مارا في الجمعية الوطنية الفرنسية ، الوطن في خطر ، جيوش اوروبا تقتحم الحدود ، ووزير الحربية باع القمح المخصص للجنود الى الأعداء ، قائد الجيش يقف في صفوف العدو ، السيد كامبون رجل

الثقة يزيف الأوراق المالية ويضع في جيبه ثروة ضخمة ، الشعب لايمكنه ان يدفع أسعار الخبز الباهظة ، الجنود يرتدون خرقاً ممزقة ، حرب أهلية جديدة تشعلها الثورة المضادة وروبسبيير يجلس الى الموائد الحافلة ويردد أحاديث منمقة في ضوء الشموع.

لكن مارا الملاحق ، الذي لم يكن لديه وقت لأي شيء آخر سوى العمل ، مارا هذا قد سبق عصره بقرن من الزمن .

لقد قتلت كوردي الفتاة الريفية المتدينة مارا الثائر وهو في حوض الاستحمام، هذه حقيقة تاريخية ، فهل قصد فايس من خلال ابراز هذه الحقيقة - وقد جعل دي صاد يضحك منتصراً لمقتل مارا – أنه يحكم على الثورات بالفشل ؟ .

ماذا حدث للثورة بعد مقتل مارا اذن ؟... هل أجهضت ؟ أم استمرت من بعده ؟..

ان فايس يساير الحقائق التاريخية بعد مارا ، ويسمعه ماذا حدث من بعده .

لقد سحقت الثورة الملكيين ، ودكت كل قلاع الثورة المضادة ، وساد العنف ، وطهرت صفوف الثورة من الضعفاء والعاجزين كما كان يقول مارا . لكن الناس كانوا يأكلون بعضهم البعض كما يخبرون مارا بعد موته .. فالمقصلة لم تبدأ .. كانت تعمل باستمرار .

ولكن الى متى استمرت أعمال العنف هذه ؟

لقد انتهت الثورة الفرنسية بظهور نابليون ، ان فايس يقف عند هذه الحقيقة :

مارا يمكننا أن نخبرك على سبيل العزاء
من الذي يقف معنا الآن
بونابرت ، انه معنا ..
أتى مثلك من سردينيا أو كورسيكا
وهو يعدنا بالسلام الدائم
ويعطينا عملاً في مصانع الأسلحة
ومن أجل تكريم الثورة
سمى نفسه القيصر نابليون ..

هكذا اذن كانت نهاية الثورة الفرنسية ، العودة الى القيصرية ، الى الوقفة التي قامت الثورات بسببها ومن أجلها ..

(مازالت الغالية تملك القليل ، والأقلية تملك الكثير) .

ان « القيصر نابليون » قد أعاد فرانسا الى الوضع الذي كانت عليه قبل الثورة .. ان فرانسا لازالت في مكانها تراوح لم تبرحه أبداً .. كأن الصمت قد خيم على الجميع ، واذا كان من صخب فهو تسبيح بحمد (نابليون القيصر الأوحد الذي أنهى الثورة نهاية رائعة) ، كما يعلن أفراد الكورس ..

ان هذا الجزء الذي يركز عليه فايس وقد اختاره نهاية لمسرحيته ، يجعلنا ندرك أنه لازال متردداً في موقفه الذي لم يتضح بعد ، لكن ترديداً من خلال الصخب ، يجعلنا ننتبه الى حقيقة ما قد يتبلور عند فكر فايس الثوري الاشتراكي ، ان كولمييه مازال يردد من خلال الصخب المؤيد لنابليون هذه الصرخة : (متى تفتحون عيونكم ؟ متى تفتحون عيونكم ؟.. متى تفهمون ؟..) .

ان المسيرة الثورية لم تخمد ، وان كانت قد توقفت قليلا ، طالما ان الوعي لازال يدرك أن الثورة لابد ان تنهض من جديد ، لتقف على قدميها ، بعد ان تنزاح الغشاوة والتعجب والحيرة من عقول الناس ، هذا المسد الذي خلقته الأحداث الرهيبة ،

مارا اننا نقف ونتعجب
من هذا القدر الغريب الأطوار ،
مارا كيف تفسر لنا هذا
أن يأكل الناس بعضهم بعضاً

* * *

صدقنا انها تمثيلية
نشاهدها بمعدة مرتبكة
نقف امامها منهولين
وتباركنا القس .

★ ★ ★

في مسرحية (التحقيق) التي قدمها في عام ١٩٦٥ ، نحس ان فايس لا زال يؤمن بمعتقدات دي صاد التي قدمها لنا من قبل ، لكننا ندرك أنه ينحاز بشكل اوضح الى الموقف الثاني الذي اختاره مارا . ان فايس يريد أن يقول لنا هنا بأن الانسان الحر لن يكون موجوداً في نظام يعتمد على القسوة والعنف ، ان حرية الفرد الذاتية هنا إذن لن تتحقق إلا في مجتمع حر يبتعد عن القهر والقسوة والعنف ، ومن اجل ايجاد انسان حر ينبغي أن نحقق هذا المجتمع الحر أولاً .

لقد كشف فايس في مسرحيته هذه ، فظائع المانيا النازية في حق الشعب الالماني ، مديناً هذا النظام ، ومتعاطفاً مع الانسان الذي فقد كل شيء ، حتى كلماته التي يريد أن يقولها لنفسه . .

أكد فايس على حقيقة العنف الذي يمسخ الانسان ويشوه حقيقته ، غرف الغاز .. الارهاب .. المعتقلات .. التعذيب بأبشع صوره .. الافران التي تشوي اللحم البشري .. لقد ضاع الانسان .. ضاعت حريته .. انمحى وذاب ، كما ذابت عظام الآلاف من المعتقلين . . .

اين هو الانسان اذن في هذا المجتمع الرهيب ؟.. اين هي حريته ؟.. الى اين يقوده الصراع ؟.. ان هذا الانسان لا يفتأ يحاول الهروب ، يحاول الافلات .. ان النار تشتعل في جسمه .. انه في بحثه الدائب عن الماء ..

ان فايس الذي ينادي بالتغيير الاجتماعي ، يؤكد أن هذا التغيير هو السبيل الوحيد لتحقيق حرية الفرد . وان الاشتراكية هي المنقذ للانسان في علاقاته الاجتماعية .

صحيح أن الانسان قد انتصر بسقوط النازية الالمانية ، ولكن هل انتهت النازية من العالم ؟.. هل اغلقت معسكرات الاعتقال والتعذيب الى الابد ؟.. ان الانسان لازال يكافح .. وثورته لا زالت مستمرة ، ان القوتين ، الرجعية والثورة ، لازالتا تتصارعان.

في مسرحيته « انشودة غول لوزيتانيا » التي قدمها عام ٩٦٦ ، اختار بيتر فايس احداث البرتغال موضوعاً لهذه المسرحية ، وقال كلمته بصدق ووضوح وحدة ، لقد ادان البرتغال واوروبا وحلف الاطلنطي والعالم الرأسمالي ادانة مباشرة قاسية اتهم على أثرها بتخاذله امام الشيوعية .

ان الانسان في البلاد المستعمرة لا زال يكافح ويناضل ليجد نفسه وحريته ، ان ثورته تأخذ ابعاداً اوسع واشمل في حربه ضد القوى الامبريالية العالمية المسيطرة ، ان الاقلية البيضاء في انجولا لا زالت تستعبد الانسان الافريقي منذ خمسة قرون . هذه الاقلية التي تساندها المنظمات الرجعية والاستعمار العالمي بشتى صوره واشكاله ، لتستغل

وتنهب ثروات الرجل الافريقي الذي لا يفتأ يصارع هذه القوى الباغية المستغلة دون هوادة او يأس .

ان القوى غير متكافئة في انجولا .. ومع ذلك فان الافريقي يصمد ، ليثور في وجه الظلم والاستعباد ، مؤمناً بحتمية انتصاره .

ان « الغول » هو « سالازار » الدكتاتور الذي يحاول ان يمسخ الانسان الافريقي ويشوه معالمه ، وان يبقي على الجهل والمرض والفقر ، حتى يتمكن من السيطرة التامة ضماناً للمصالح الاحتكارية المستغلة حتى « يفقدون القدرة على النهوض في وجهه » .

هذا هو الاسلوب الذي يلجأ اليه الاستعمار دائماً ، ليكون بمكنته أن يخدر العقول التي تفقد الاحساس بوجودها ، عازفاً على نغمة الرجل الاسود الذي خلق لخدمة الرجل الابيض .

ان الاستعمار لايلجأ الى اسلوب واحد في سياسته الاستعمارية ، ان الاساليب متعددة ، وذكاؤه لايقف عند حد معين ، انه باستمرار يبحث عن طرق جديدة تبرر له استغلاله وسيطرته ، وهو يجد أيضاً لنفسه التبرير الكافي الذي يقنعه عند كل عمل يقوم به . ان اقنعته متعددة متلونة ، لكل مناسبة منها قناع .

ان الغول يرتدي هنا قناع الدين ، فهو يدعي انه يتلقى الأوامر من الرب،وان مهمة لوزيتانيا هي نشر رسالة الرب على الأرض . ان التاريخ يؤكد كما يقول الغول بأن الانسان غير قادر على قيادة نفسه وهو يحتاج الى ان تقوده سلطة ما من أجل أن تحميه من السقوط في الانانية المادية وسط سباق الريح الاقتصادي .

ان الغول لايخجل التصريح بكل صفاقة بأن هدفه هو انقاذ الانسان من هواة الغواية ، وتربيته ككائن اجتماعي اخلاقي يتذكر دائماً العالم الآخر الذي يوجد بجوار العالم العرضي الزائل ، عالم التكنولوجيا . وان مهمته هي نشر المدنية في هذه البلاد المتخلفة

هذه اذن المعزوفة التي يبدؤها الغول الاستعماري دائماً حتى يبرر لنفسه استعباده واستغلاله لخيرات الشعوب التي يتسلط عليها ، انه في سبيله الى تخدير العقول ، حاملا هذه الشعارات المزيفة التي يريد استغلالها في عمى الابصار وكم الافواه ، الا عن التسبيح بحمد الاستعمار وفضائله .

ان فايس لايكتفي هنا بأن يظهر بوضوح وحشية الاستعمار واعوانه ، صحيح انه يعطي الرجل الافريقي حق الاحتجاج والمطالبة ، لكنه في الوقت نفسه لايجد الحل

الا في الثورة التي لابد منها في مواجهة القسوة والقهر .

لم يعد فايس في هذه المرحلة يخاف مثل دي صاد من الدماء والعنف . لقد انحاز بكل وضوح الى مارا ، وترك موقفه الثالث ، ان فايس قد اكتشف لاشك اين يقف كما اكتشف ذلك الرجل الأفريقي حين أعلن بان مايخصه هو تنظيف حذاء السيد وحمل حقيبته .

حين أدرك هذا الرجل حقيقته ، ووعى نفسه ، ووجد الهوة السحيقة التي تفصله عن السيد ، ثار وتمرد واشعل النار ، لينتزع حقه بيديه ، لأنه أدرك كما قال مارا ان الاغنياء لن يتنازلوا عن املاكهم بمحض اختيارهم ، ان الافريقي يؤمن كما قال فانون بأن العنف لابد وان يقابله العنف ، فهو يضرب في القرى في المدن ، يخرب السكك الحديدية .. الجسور .. يحرق .. يدمر .. ان القوة لابد وأن تقابلها القوة حتى ينمحي الظلم من العالم . . لقد آمن بيتر فايس بهذا اخيراً كما آمن الرجل الافريقي بان الرجل الشاحب .. هذا الرجل الميت لابد من ضربه حتى لايعود مرة أخرى الى الظهور ،

لقد مارس فايس الكتابة بعد (مارا ـ صاد) ووجد نفسه كما كان يريد ، واكتشف موضعه :

(ربما بممارستي الكتابة سوف اكتشف موضعي ، انني اكتب لكي اكتشف أين أقف).

لم يعد فايس يقف متردداً في الوسط بين الحرية الفردية والحرية الاجتماعية ، لقد آمن اخيراً بأن الثورة والعنف هما الحل الوحيد للانسان حتى يتخلص من عبوديته وليحقق حريته الذاتية ، وهو لم يعد يرى كما رأى دي صاد في الثوريين اناساً فاشلين ، وبالتالي فلن يعد يبرر لدى صاد كراهيته للعنف وللقسوة ، ان رؤيا فايس اتضحت مع قرائن فانون في ان العنف الثوري هو السبيل الوحيد لهزيمة الاستعمار ، وان الوصول الى الحرية لايمكن ان يكون الا عن طريق العنف وان التخلي عنه هو تخلي عن الثورة ، وهذا يعني الاستسلام أمام العنف الامبريالي ، ان الثورة ستبقى مستمرة ،

سوف يتكاثرون باستمرار
سوف ترونهم
لقد تجمع الكثيرون بالفعل

في المدن وفي الغابات والجبال
يجهزون اسلحتهم ويخططون بدقة
من أجل التحرر القريب.

ان بيتر فايس الثوري الاشتراكي «١٠» قد آمن اخيراً بمارا الثائر، لهزم دي صاد الذي أضحكه عندما قتل مارا، واختار مكانه الى جانب الثوريين الحقيقيين.

---

(٩) يقول فيكتور هوجو في روايته «ثلاثة وثمانين» بان مارا هو البؤس بعينه. كما يتحدث عن لحظة اعدام شارلوت كوردي بالمقصلة بعد إن قتلت مارا، بانهم قالوا لها ان مارا قد مات، فتجيبهم: مارا لم يمت .. انه سيولد من جديد .. في الانسان العاطل عن العمل .. في المرأة الضعيفة .. في الفتاة المومس .. في الطفل الذي يجهل القراءة .. في البطالة .. في البروليتاريا.

ثم تضيف كوردي بان على المجتمع ان يكون على حذر، لأن مارا لن يموت الا اذا مات البؤس والشقاء .. وانه سيبقى حياً طالما بقي هناك بؤساء، وان سحابة تتجمع عند الافق لتتحول الى شبح .. وان الشبح سيتحول الى مارا.

(١٠) لم تتعرض لمسرحية بيتر فايس «حديث عن فيتنام» التي تتضح فيها آراؤه الثورية المماثلة لآرائه في مسرحيته التي تكلمنا عنها اخيراً، فهو لا زال يؤمن بالعنف الثوري في مواجهة العنف الاستعماري:

ايها العمال والفلاحون والصناع
المعلمون والطلاب
التجار والموظفون والجنود
قودوا الثورة الشاملة الى النهاية المظفرة
ان هذه الثورة لا بد وأن يرافقها العنف حتى للنصر
ان علينا أن نستخدم القوة
مامن وسيلة سوى القوة لانهاء المظالم

وهو من جهة اخرى يرى أيضاً وجوب استمرار الكفاح الثوري، كما يقرر ذلك في مسرحية «انشودة غول لوزيتانيا»:

نحن نعلم .. لن يتغير شيء
طالما هو يسيطر بقوة ثرائه الهائلة، هذه هي البداية نحن اوضحناها
والكفاح يستمر.

كتاب جديد

رواية «ملح الأرض» والعودة بالصراع إلى البدائية

عادل أبوشنب

تفتح رواية صلاح دهني « ملح الأرض«١» » عيوننا على حياة ريفنا التي نعرفها ، انها تضعنا منذ السطر الأول، في مواجهة ألد اعدائنا : التخلف .

وحتى يكون لهذه الرواية نكهة ما ، لابد من شيء من التلخيص لأحداث الرواية التي جعل لها زمانان ، شبيهان بفصلين ، الزمن الاول ، والزمن الثاني :

[يعود « عويضة » الفلاح الحوراني الشاب من مهجره « بيروت » حيث عمله في

«١» نشرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق في ٢٣٥ صفحة في مطلع هذا العام .

ورشة بناء ، الى قريته « ناحتة » في نفس يوم وفاة أبيه الذي ناضل في القرية فلاحاً أجيراً ، ثم مات بشرف ضد ظروف يعتبرها ككل فلاحي ناحتة ، قدراً . عويضة وريث ابيه الآن ، ودم الشباب يلح عليه ان يستأجر ارضاً ، ويعمل لحسابه بدلاً من العمل كأجير ، وفي سبيل تحقيق هذا الأمل يمر بمتاعب جمة ، أقلها مواجهة « أحمد تفاحة » الشامي صاحب البقاليه ، والمرابي الذي يئن الفلاحون بسبب الديون المترتبة عليهم له ، وأحلامه حبه للفلاحة الشابة « عايشه » التي يتمنى ان يتزوجها .

الشح والجفاف عدوان لدودان ، والآبار لاتخرج مافي جوفها من مياه ، فيحمل الفلاحون شكواهم الى الدولة التي تعدم بشخص وزير الزراعة وباسم الزعيم الأوحد «٢» النظر في أمرهم وادخال العلم الحديث الى قراهم ، لكن الحياة تسير في حوران دونما تغيير . والزرع الذي نما في « ناحتة » في أحد المواسم رغم الجفاف الذي أصاب القرى الأخرى .. يفدح بكارثة لم يسمع الفلاحون بمثلها من قبل ، اذ ان قطيعاً من الفئران ، يعد بالآلاف .. يقضم الزرع ويأتي على المحصول ، والحكومة غير مهتمة ، وليس أمام « عويضة » الا الهجرة والنزوح بعد ان ماتت احلامه .]

يبرع صلاح دهني ، كروائي ، في رسم الشخصيات على قلتها . عويضة الطموح الى استئجار أرض ، الحامل بسبب عمله خارج « ناحتة » شيئاً من الأفكار الجديدة صورة لفلاح من بلدنا ، يدرك غرق الفلاحين في ظروف مريرة ، ويريد التغيير بجهد فردي ، دون ان يعي كيف يمكن تغيير ملامح مجتمع القرية وجعلها اكثر اشراقاً ، فيه جانب ايجابي ، ونزوع الى التعاون .. لكنه ، مع ذلك ، يحمل على كتفيه تخلف القرية واستلامها وغيبياتها . « عايشة » الفلاحة التي توزع حياتها بين الاهتمام بالرجل ، كسيد سواء أكان زوجاً أو أباً ، وبين الاهتمام بالأرض والعمل فيها ، ككل فلاحات بلادنا . أحمد تفاحة «مراب .. مخادع ، منغمس في الموبقات ، يتزيا بزي الحريص على مصلحة الفلاحين ، لكنه في حقيقة الأمر سر بلائهم . ابنته العانس التي تدبر خلوات الحب للعاشقين السذج ، وتمنح جسدها لعابري الطريق والفتيان الأقوياء .. بالقوة . المخاتير وموظفو الحكومة والجباة .. كل اولئك مرسومون على الورق ، كأن الكاميرا قامت بعمل ضخم في هذه القرية الحورانية الملقاة في تلك الأرض البركانية الجدبة . ان الفوتوغرافية مذهب من مذاهب القص ، كثيراً مايكون وثيقة وتأريخاً ، والمؤلف في «الزمن الأول» يضع بين أيدينا وثيقة للحياة في قرية

«٢» الفترة التي تتحدث الرواية عنها هي فترة حكم الشيشكلي في سورية .

حورانية في الخمسينات من هذا القرن ، وثيقة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية وحتى السلوكية في مجتمع تلك القرية ، وهو في هذا الصدد ، محلق ، بارع حتى ليمكن القول ان القسم الأول من الرواية الشودة واقعية.

على ان مايثير في الرواية هو مسألة الصراع التي يمكن الادعاء بانها عصب كل رواية ، منذ الملاحم اليونانية القديمة وحتى آخر صيحات فن الرواية في العالم . اين الصراع في « ملح الأرض »وماهي عناصره وهل ثمة خط تصاعدي له ؟ والى اين يقودنا المؤلف في سرده ، بل ماذا يريد ان يقول في هذه الصفحات التي تجاوزت المئتين؟

نحن نواجه عناصر محددة : أهل«ناحتة» الفلاحون السذج المتخلفون .. الأرض الحرون التي لاتجود بزرع الا اذا شربت ماء . السماء الصاحية بشماتة . الفئران الجائعة التي تلتهم كل شيء ، حتى جثة طفل . كل هذه عناصر متألقة لصراع دموي متوقع . وبشيء من التفصيل نحن نواجه نماذج من الفلاحين السوريين القابعين تحت رحمة ظروف مريرة ، وفيهم واحد ، واحد فقط ، يطمح الى تغيير جزئي في نمط حياته، استئجار ارض وفلاحتها لحسابه هو : بدء التفكير البرجوازي ، او ، بكلمة اوضح ، بدء الطموح الى البرجزة ، ونحن نواجه قوى شبيهة بالقوى التي كانت الميثولوجيا اليونانية تعتبرها طرفاً في الصراع . ان السماء لا تمطر رغم دعاء الاستسقاء ، والفئران الجائعة التي تكتسح الحقول.. كارثة طبيعية غير متوقعة، وليس في الاسلحة المألوفة سلاح موضب لمكافحتها . اهمال الدولة وتخلف الفلاحين واستسلامهم وعجزهم ونومهم الدائم على حياتهم البائسة .. اطراف تكمل الصورة وتهيئ بعناصر الصراع . كل شيء موجود ومهيأ للقيام بعملية تصعيد درامي للمأساة.. لكن الصراع لا يصل الى نقطة حاسمة ، لان العناصر غير متكافئة ، الفلاحون عاجزون امام قوى من هذا النوع ، قوى تماثل في جبروتها وطغيانها قوى الميثولوجيا اليونانية التي كان يواجهها ابطال من نوع الآلهة . ان المواجهة ، في صراع « ملح الارض » دونكيشوتية، وقد اراد المؤلف - في تقديري - ان يجعلها كذلك،لانها هي كذلك في الواقع في تلك الحقبة ، فلو انه حرك الصراع على نحو ما .. لجاء العمل مصطنعاً تركيبياً ، لا يصور المرحلة(الخمسينات)تصويراً حقيقياً.

على ان الرواية لا توجه اصبع الاتهام الى احد ، لا تضع المسؤولية على عاتق معين ، واذا كان المؤلف قد اتى على ذكر الدولة والمخاتير والمرابين والوزراء الذين يعدون باستنزال المطر اصطناعي دون وفاء بالوعد.. فمن باب اكمال الصورة . كل ذلك اكسسوار، والحجم الحقيقي للمشكلة هو ان الفلاحين انفسهم متخلفون. ان الرواية، كما قلنا ،تصور بفوتوغرافية بارعة واقع شعب«ناحتة» الذي

هو في الواقع شعب الريف بأكمله – وتحكي قصة – بل حكاية – ذلك اليوم الذي داهم فيه قطيع من الفئران حقولاً نمت بعرق الفلاحين وجهودهم ، ولكن لماذا لم يواجه الفئران بسلاح مجد ، ولماذا يبقى التطلع نحو السماء قدر القرى الحورانية ، لماذا التخلف ، ولماذا يعمل المرابون عملهم في أوساط الفلاحين الفقراء ، ولماذا يتحكم موظفون صغار بمصائر تلك القرى ؟ قليلاً ما اجابت الرواية على هذه الاسئلة . إن صلاح دهني بفوتوغرافية جعلها منهجاً أراد أن يصور واقعاً وان يكتفي بذلك دون أن يكون طرفاً ، لكن الرواية تشير ، بأحداثها ، الى قوى معينة ، موجودة في حركة الصراع الاجتماعي والطبقي ، بل إنها ، امعاناً في المنهج الفوتوغرافي ، تجعل الصراع قائماً بين الفلاحين بقدراتهم المحدودة ، وبين عناصر « طبيعية » شبيهة بالعناصر التي استخدمها خالقو الميثولوجيا اليونانية .. وتلك ذروة المأساة .

التخلف والمطر الذي اصبح حلماً ، والمرابون والبؤس الذي يخيم على القرية ، وحتى الفئران الجائعة .. حقائق ، ولكن لماذا هي موجودة ؟ ومن الذي جعلها موجودة ، ومن الذي يملك الوسائل لمجابهتها ولم يجابهها ؟ وهل الفلاحون وحدهم المسؤولون عن مجابهتها ؟ اسئلة معلقة .. تمهد السبيل الى البحث عن أجوبة لها ، ولقد حدث في الواقع ، في الفترات التي تعاقبت ، أن أصبحت الأجوبة .. على المائدة .

وتبقى مسألة تصوير الواقع .

الواقع الذي تصوره رواية ما .. يعني ، بالترجمة الحرفية ، ولادة أدب مرحلة ، والأدب المرحلي بقدر مايكون صادقاً وامينا بقدر ماينطوي على خطر الطي والانطفاء .. بمجرد ان المرحلة قد انتهت أو ان ظروفاً أخرى قد نشأت فغيرت ماكان سائداً ، والرد على هذه الفكرة سهل بالطبع ، فالكلاسيكيات الواقعية التي مازال نقرؤها حتى الآن ، هي تصوير لمراحل في مجتمعات . هذا صحيح .. في حالة واحدة ، هي ان الأدب المرحلي لم يكن فوتوغرافياً فحسب ، وإنما كان ينطوي على ارادات التغيير . إن الكلاسيكيات التي مازال رائجة هي رائجة ومتداولة حتى الآن لأنها تضعنا لا أمام واقع مرحلي فحسب ، وانما امام انماط الثورة على الواقع ، وامام البذور التي أدت للتغيير . وفي « ملح الأرض » التصوير الواقعي لمرحلة مجتمع القرية في الخمسينات .. هو السيد ، وارادة التغيير أو البذرة التي تزرع عادة لتبديل ملامح المجتمع موجودة . ولكن كيف ؟ لقد اكتفى المؤلف بسرد الواقع .. كنوع من انواع الاحتجاج عليه ، ورفضه ، وهو مذهب ساد في الخمسينات بالذات ، في ادبنا العربي السوري ، وفي أدب القصة القصيرة بالذات .

ان لهذه الرواية ، في تقديري ، نكهة خاصة في ادبنا الروائي في القطر ، ذلك انها تنقلنا بصدق وبعفوية وبسلاسة وبلغة

بسيطة الى مجتمع القرية الحورانية الذي يشبه مجتمع أية قرية اخرى ، ثم انها تضعنا في زمنها الثاني أمام حادثة نادرة ، قل أن نجد لها مثيلاً في الرواية العربية ، في اضعف الايمان ، وهي حادثة غزو الفئران للقرية .. بكل ما فيها من بشاعة وعنف . ألا تذكرنا هذه الحادثة التي وقعت فعلا بما تصوره هيتشكوك في فيلمه « العصافير » عندما جعل العصافير تغزو بالملايين مدينته ؟

ان قلب القارىء لينخلع من الخوف عندما يعيش مع الفلاحين مأساتهم عندما يواجهون قطيعاً من الفئران لايحصره عد ، ويرون الى الفئران « متغلغلة في الزرع كتلا سوداء قذرة بين الأعواد الذهبية »فينهالون عليها « ضرباً بالعصي والدبسات والمجارف والحجارة » . دراما عجيبة في التأثير خاصة عندما يصل اهل القرية الى الأرض الموبوءة فيبلغهم « هدير القضم . مئات والوف الافواه الصغيرة ذات الاسنان الدقيقة الحادة كانت تقضم الزرع ، وتؤلف جوقة واحدة هائلة ، ترسل هديراً رتيباً ، كأنما يصدر عن مجموعة من الطواحين ، رصفت الواحدة لصق الاخرى » وتبلغ الدراما أعنف اقسامها عندما تهاجم الفئران ناحتة بالذات . وتروح تفتك بكل شيء ، وها هي جثة طفل قد « تكالبت فوقها مجموعة كبيرة من الفئران حتى لقد حجبتها عن الأعين » .

ما أحوج هذا الجزء الى تحويله الى سيناريو — ان امكن — ليصبح فيلماً وثيقة عن زمن كانت الجرذان فيه تهاجم القرى الجائعة في بلادنا بسبب الجوع ، والحكومة غير مهتمة ، بل لاتعرف كيف تصل الى القرية نفسها .

* * *

ان « ملح الأرض » تنضاف الى الرصيد القليل من الروايات الجيدة التي انتجت في هذا القطر .

أزمـــــة

اللغـــــة

المؤلف : جورج شتاينر

الكتاب : ما وراء الإطار الاقليمي

Extra - Territorial

مقالات في اللغـــة والثورة اللغوية

ترجمة : هشام دجاني

جورج شتاينر ألمع صحفي معني بالثقافة في الوقت الحاضر بين من يكتبون بالانكليزية ، او ربما بأية لغة اخرى . وما يستحقه من الشهرة في هذا المجال ربما يضاهي في الشمول تطلعه الى المعرفة . ودائرة مراجعه الفكرية مدهشة كاحساسه المتوقد بما هو هام في الحياة الروحية للانسان المعاصر . وبالرغم من ان فصول كتاب [Extra - Territorial] تتألف من مقالات منفصلة ، كتبت لصحف مختلفة (بما فيها الملحق الأدبي للتايمس) خلال السنوات الاربع الماضية ، فانها تكشف عن وحدة في الاهتمام تدعو للاعجاب ، وتتردد في اصدائها نغمة الاهتمام بحالة الثقافة الغربية .

وحتى أشد النقاد المحافظين الذين يشككون بقدرته ، عن طريق الأبحاث أو الأفكار ، على إعطاء شيء جديد للموضوعات التي يعالجها ، عليهم أن يقروا بأنه لا يوجد عرض كعرضه أكثر إحكاماً وادراكاً للمشكلات التي تضغط على الحياة العقلية للحضارة في النصف الثاني من هذا القرن . ولا وجود بالتأكيد لعرض سيطر بمثل هذا الاسلوب المشرق ، الملون ، الملحاح لأن الدكتور شتاينر يشعر بأنه لا يخاطب مجرد أدباء اختصاصيين انغلقوا بأمان ضمن أطر نظام فكري معين واحد ، بل يخاطب سائر الناس المفكرين الواعين لعالم الحقائق الاجتماعية والسياسية حولهم . ويستمد اسلوب الدكتور شتاينر جزءاً من قوته من رؤيته للقضايا الفكرية لخلفية الأزمات والنكبات التاريخية . ثمة مؤثر قوي آخر في اسلوبه آت من براعته في ربط أحدث الموضوعات في الحقول المألوفة لعلم النفس ـ وعلم دلالات الألفاظ والكيمياء العضوية بالمجال الواسع للعلوم الانسانية .

وهكذا فان الموضوع الأساسي لكتابه يأتي من النزاع بين تشومسكي و ب. ف. سكينر حول طبيعة اللغة . ومن الواضح أن الدكتور شتاينر يشارك يورك ويلكز في وجهة نظره من أن النزاع كان في الواقع غير منطقي .

فالنزاع لم يكن بين نموذج للفلسفة الآلية، ورؤية مثالية لتكوين الكلام الانساني، ولكن « بين بديلين لنظريات الفلسفة الآلية : بديل سكينر البسيط ، وبديل تشومسكي الأعقد».

اعترض تشومسكي بالطبع على الايحاء بأنه « يميل ، غير عامد تقريباً، الى عقيدة آلية خاصة به ، وزيدني إزعاجه . أنها ستكون، ثقافياً وشكلياً أيضاً ، عقيدة حتمية » . ويضمّن الدكتور شتاينر في هذا الفصل الرئيسي عدداً من الدفاعات القوية لتشومسكي تساعد على ايضاح موقف كل منها .

وموقف الدكتور شتاينر هو موقف الراغب رغبة كبيرة في تعلم علوم اللغة وعلم الوظائف العضوية ـ السيكولوجية، وقد حصل معرفة شخصية عنها أكثر من غالبية غير الاختصاصيين (على أنه يعترف بتواضع بأن نوع المعرفة الآتية من هذين العلمين، وخاصة عندما يقتربا من حدود الكيمياء العضوية ليس سهل المنال بالنسبة للانسان العادي). وفي الوقت ذاته يرى نفسه في خط انساني آخر، ويبدو من دفاعه عن هذا الخط أنه يعتزم اتخاذ موقف. ليست ماهية هذا الموقف واضحة، ولكنه يعد تكراراً بكتاب «بدراسة مطولة» لتلك القضايا اللغوية «التي تبدو لي أولية وبدئية».

ونوع السؤال الذي يثير اهتمام الدكتور شتاينر هو: هل اللغات المختلفة هي وسائل جذرية لبناء الحقيقة وممارستها؟». ان شعوره نحو القيمة الفريدة التي ترتبط بالكلمات في عمل أدبي تجعله يشك بالاتجاهات الشمولية للعلم. «أظن أنه حتى أكثر الحاسبات الالكترونية تعقيداً تقدم وسائل للتعبير أبعد في ايغالها بالبدائية والتخطيطية من ان تلقي ضوءاً حقيقياً على الكفاءة والمظهر اللغوي الانساني». وان الموضوع الحاسم الذي سيعالجه الدكتور شتاينر في كتابه القادم، يعرضه بهمة الترجمة، بعلاقة قيم احدى اللغات بقيم أخرى لايفهمها أحد كفهم الشاعر لها (انه لا يستشهد هنا بل قد تكون لديه ملاحظة بول فاليري بأن الشعر هو الشيء الذي يضيع في الترجمة). ان عنوان الكتاب الحالي يتعلق بظروف النفي اللغوي للعمل وراء حدود لغة المرء، وهو الذي جعل جويس ونابوكوف وبورغيس وكافكا، وفوق الجميع بيكيت، أعظم ممثلين للكتاب الابداعيين في العصر الحديث، الذي يصفه الدكتور شتاينر بأنه عصر «الثورة اللغوية» عاكساً في هذا صورة الثورات الاجتماعية والروحية التي اعطيت لها العديد من الصفات والتعاريف. انه في الواقع يقترح عنواناً واحداً، يمكن ان تصنف تحته الأوجه المتعددة لثقافة القرن العشرين وتاريخه، وكأنها دلائل على أزمة اللغة.

إن معرفة الكيفية التي سيعالج بها الدكتور شتاينر هذا الموضوع الصعب لأمر يثير الاهتمام بالتأمل. وما سيصل إليه بدون شك بكل سهولة سوف يكون جولة تحليق حرة أبعد في زيادة المواقع الثقافية البارزة. وما سيستطيع مشاهدته سيكون مذهلاً، لكن سيراه باختصار شديد مما سيجعل النتيجة بالغة الاثارة، ولاهثة أيضاً.

الدلالات حافلة بالمعرفة لكنها سريعة العبور، وخطط الأفكار الذي يرى من هذا الارتفاع الرائع يهب القارىء فرصة ضئيلة لتقويم محتواها أو إدراك عمقها . وإن التأكيد السريع من حين لآخر بأن ثقافتنا وحضارتنا هما قاب قوسين أو أدنى من الدمار قمين بأن يجعلنا نرى الى حد بعيد أن مجتمعنا على خطأ ، بقدر ما هو قمين بأن يجعلنا نرى أن من الخطأ الروحي التحليق بهذه الطريقة .

ومن المؤمل ألا يعود الدكتور شتاينر الى أية محاولة من محاولات الغوص في الاصطفائية النيتشوية من النوع الذي يقذف في وجوهنا سريعاً « الامكانية بأن أغلب الحياة الشخصية لامعنى لها وهي مهياة النسيان ، وبأن الحاضر لا يصبح مستقبلاً الا عن طريق الموسيقا والرياضيات والشعر والفكر لعدد ضئيل جداً ». وتؤدي الفوضى في القيم الروحية الشديدة الشبه بتلك التي يستغلها نيتشه ، تؤدي في كتابات الدكتور شتاينر الى التراوح بين رغبة متطورة نحو آخر ما توصلت إليه المعرفة « العلمية » من جهة « لعل هذه بالنسبة إليّ هي أشد حقول المعرفة إثارة ; الا وهي ترجمة كلمة الصورة اللفظية للعلوم الى كلام دارج » ، الى شعور عام عن طريق العرض الشاعري المقدم « التراجي — كوميدي » ، والتأسي من ناحية أخرى على فقدان الثقافة التقليدية. وينتهي الكتاب بصورة بارزة « للوضع الانساني » الحالي الذي يبدو بصورة خاصة مثل وصف لفكر كاتبه :

« يبدو وكأننا نقف في قلعة ذي اللحية الزرقاء » عنوان آخر كتاب لشتاينر » ، حيث يقف الذكاء عاجزاً ... يجد نفسه أمام أبواب خير له أن تبقى موصدة » .

أمن الممكن العودة إلى الخلف اذن ، بالنسبة لنا أو للدكتور شتاينر ؟

بالطبع ليس في الوقت نفسه الذي نستبر نحن وهو فيه « بالقفز الى الأمام » هكذا . ثمة « امكانية » مختلفة تماماً جديرة بالتأمل. وهي أن الخشية من فقدان الثقافة تتأتى جزئياً من ايلاء المرء ثقته الروحية لتعميات الثقافة ومحصلاتها، من تضخيم أهمية التراكيب اللغوية التي وضعها الانسان في الحقيقة بطريقة لم يفعلها لوك مثلاً . ولا شك أن الدكتور شتاينر قد لاحظ مقدار الغموض في نظرته الخاصة الى « أزمة اللغة » وفي نظرة غالبية المؤلفين الذين يكتب عنهم. ان يأسهم لايمكن أن يكون أصيلاً أصالة كلية بأية حال طالما أنه مصدر الكثير من الايحاء اللفظي .

والدكتور شتاينر مشدود الى «مهد الهر(*)» للمعاني المنسوجة بين الكلمات وبين اللغات من قبل « سادة » في هذا الفن يعجب بهم من أمثال نابوكوف . هنـاك يأس واستهتار معاً في الافتراض الحديث بأن كل مـا بيننا وبين القدر هو مهد هر من المعاني. اذ كم منا يستطيع أن يستمر في لعبة اللغة هذه بمهارة كافية ؟ وأية مهـارة تكفي للوقوف بوجه المجهول ؟ هل المهارة هي الشيء المطلوب ؟ أو أي شكل من الفن أو الثقافة ؟

ان الأسئلة التي يطرحها الدكتور شتاينر لا يمكن الاجابة عنها بالطريقة التي اختار الآن أن يكتب عنها ويفكر بها . انه يضيق ذرعاً بالأعمال المتسمة بالغباوة التي يقوم بها معظم نقاد الأدب . لكنه قد يكون معرضاً لخطر الخطأ فيما يمكن تحقيقه بواسطة الكتابة الانتقادية ، مثلما يكون قد أخطأ في الفارق بين الأشياء في الحقيقة والفن . انـه يكافح من جديد هنا من أجل مشكلة المثقفين الذين يمكن أن يرتكبوا في الواقـع أشياء بربرية . ومنـذ صدور كتابه الأول عـن موت المأساة (*) فشل في التوافق مع الطبيعة المتناقضة للتجربة الجمالية ، ذلـك التناقض الذي كان مألوفاً يوماً ، ووضع بيرك اصبعه عليه عندما كتب يقول .

« ان الشعر والرسم والفنون الأخرى ... قـادرة في الغالب عـلى ادخال المتعة على صميم الفقر والفاقة وعلى الموت نفسه . ومن الملاحظ عموماً ان الامور التي تبعث على الصدمة في الحياة الواقعية هي في التصوير المأساوي وضروبه مبعث صور رفيعة جداً من السرور » .

يعالج الدكتور شتاينر هذه المشكلة لدى حديثه عن ظاهرة سيلين Celine المزعجة، مزعجة لأن سيلـين كاتب جيد ، ولم يكن بالامكان رفض سياسته البربرية . ولكن لماذا يجب أن تكون للمهـارة الأدبية ضمانة من الحس الخلقي الجيـد ؟ القيم الأدبية تختلف اختلافاً كبيراً بالتأكيد عن القيم المعاشية .

وان حل الدكتور شتاينر لمشكلة سيلين هي التأمل فيما اذا كانت «كلمات سيلين قد أضحت بديلاً عن الحقيقة » .

(*) « مهد الهر Cat s' Cradle : هي لعبة الأطفـال من الخيوط المتقاطعة تعلق بين الأصابع تصنع منها أشكال تشبه شكل السرير أو مهد الصغير .

(*) Geath of Tragedy

ان آثار تأملاته هنا عظيمة وستؤدي خدمة كبرى لدراسة الأدب والثقافة اذا ما استمر فيها . لقد اعتدنا كثيراً على تقبل المآزق والأزمات والتجارب ورفوف معروضات الفن الحديث على اعتبارها تقول كلمة حق عن حقيقة العيش. ويقول الدكتور شتاينر عن العملية التي جعلت لبورغيس « صورة خيالية خاصة عن العالم ... تبدل المنظر العام للوعي » ، يقول انها مجرد ظاهرة ، يصعب التحدث عنها » . حقاً إنها كذلك ، ولكن هذه الصعوبة بالذات يجب التحدث عنها. ومهما كانت فالعمليات لايمكن القبول بها على أنها حقيقة بسيطة أو يجب الاعتراف بها كعمل من الاختيار النقدي وربما بعجابيتها أيضاً . ان معالجة كتابات بيكيت أو كافكا ككتابات وثائقية عن العصر ستكون خلطاً بين الوسيلة والرسالة . وكما يعلم الدكتور شتاينر جيداً فان علم دلالات الالفاظ وتطورها(*) هو علم يهدد باحلال الحروف مكان الروح؛ انه نقد للثقافة ، نقد قائم على التسليم « بأزمة اللغة » على أنها « حقيقة » ثقافية ، ومن الخطر أن يفعل الشيء ذاته .

(*) Semanticr


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠,٠٠٠ ل.س
٦٠,٠٠٠ ل.س
٣٥,٠٠٠ ل.س
٢٥,٠٠٠ ل.س
يجري السحب كل يوم ثلاثاء من كل اسبوع